سلسلة الرسائل البازية ١

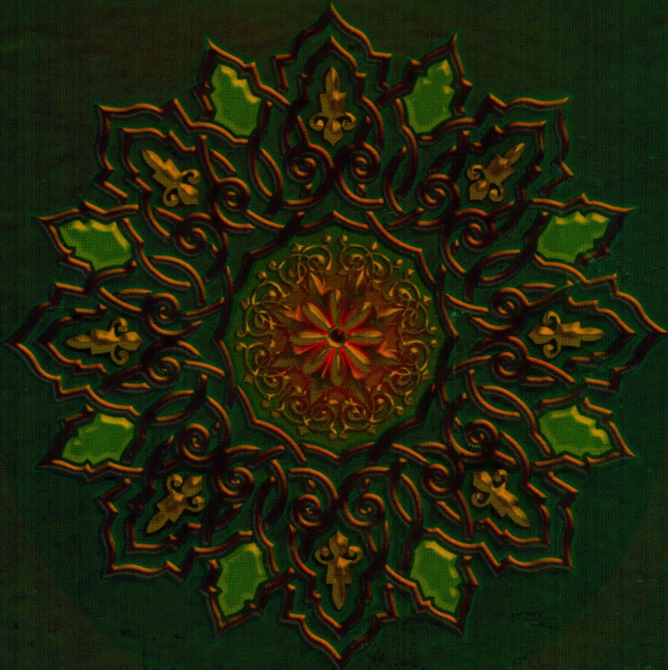
الرسائل البازية

في المسائل المنهجية

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رحمه الله



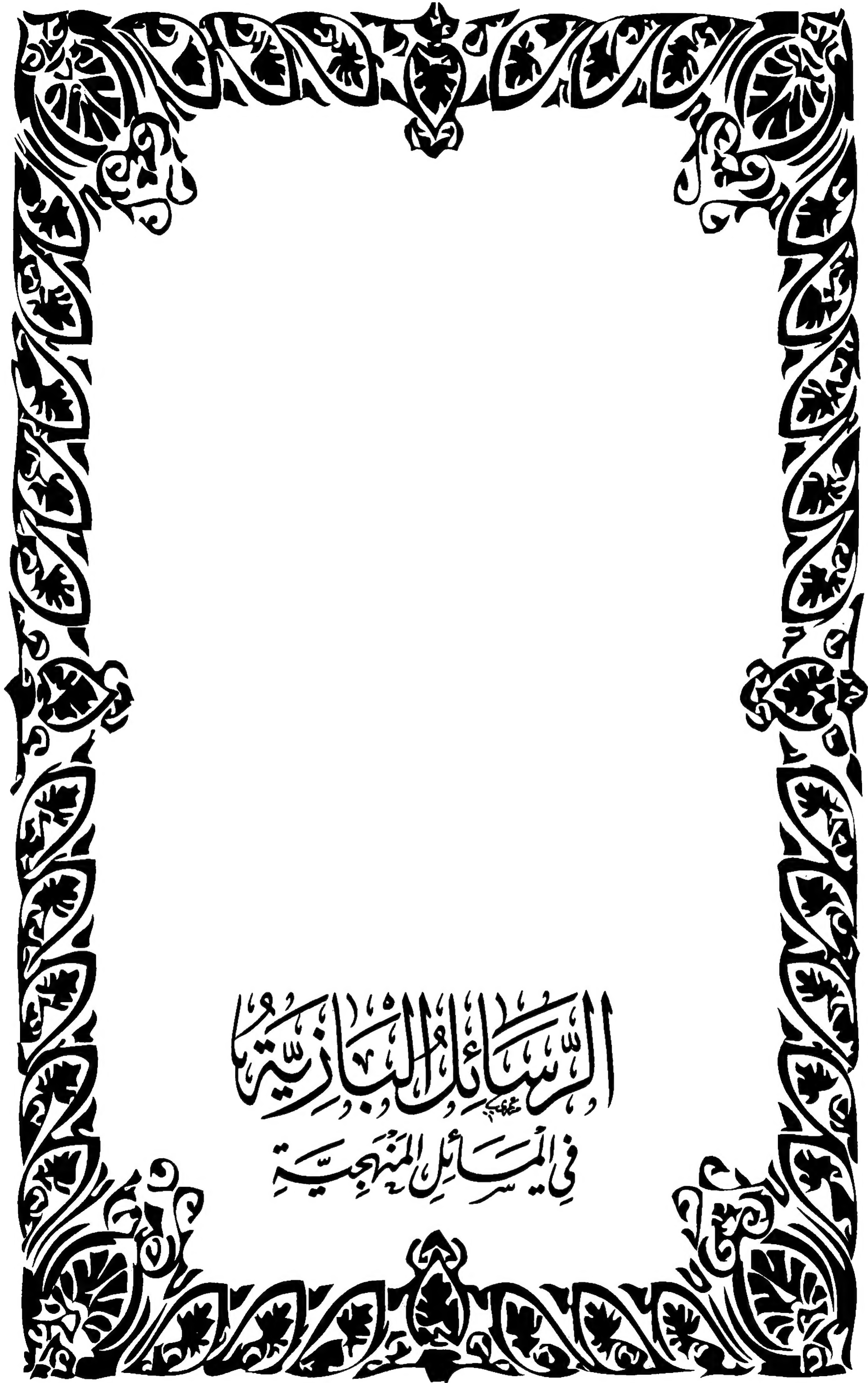
تخريج وتعليق

عراقي حامد

منارة الإسلام

للنشر والتوزيع


مصـــورات
أبي عبد الرحمن السلفي الفلسطيني


الرسائل البازية
في المسائل المنهجية

الطبعة الأولى: ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٤٠٤٨م



شارع الهدي المحمدي - أحمد عرابي - مساكن عين شمس
جمهورية مصر العربية - القاهرة
E-mail:Manart-aslam@hotmail.com
E-mail:Manart.aslam@yahoo.com
جوال: ٠١٢٠٥٥٤٠٤٢٢ - ٠١١٤١١٤٦٣٦٦

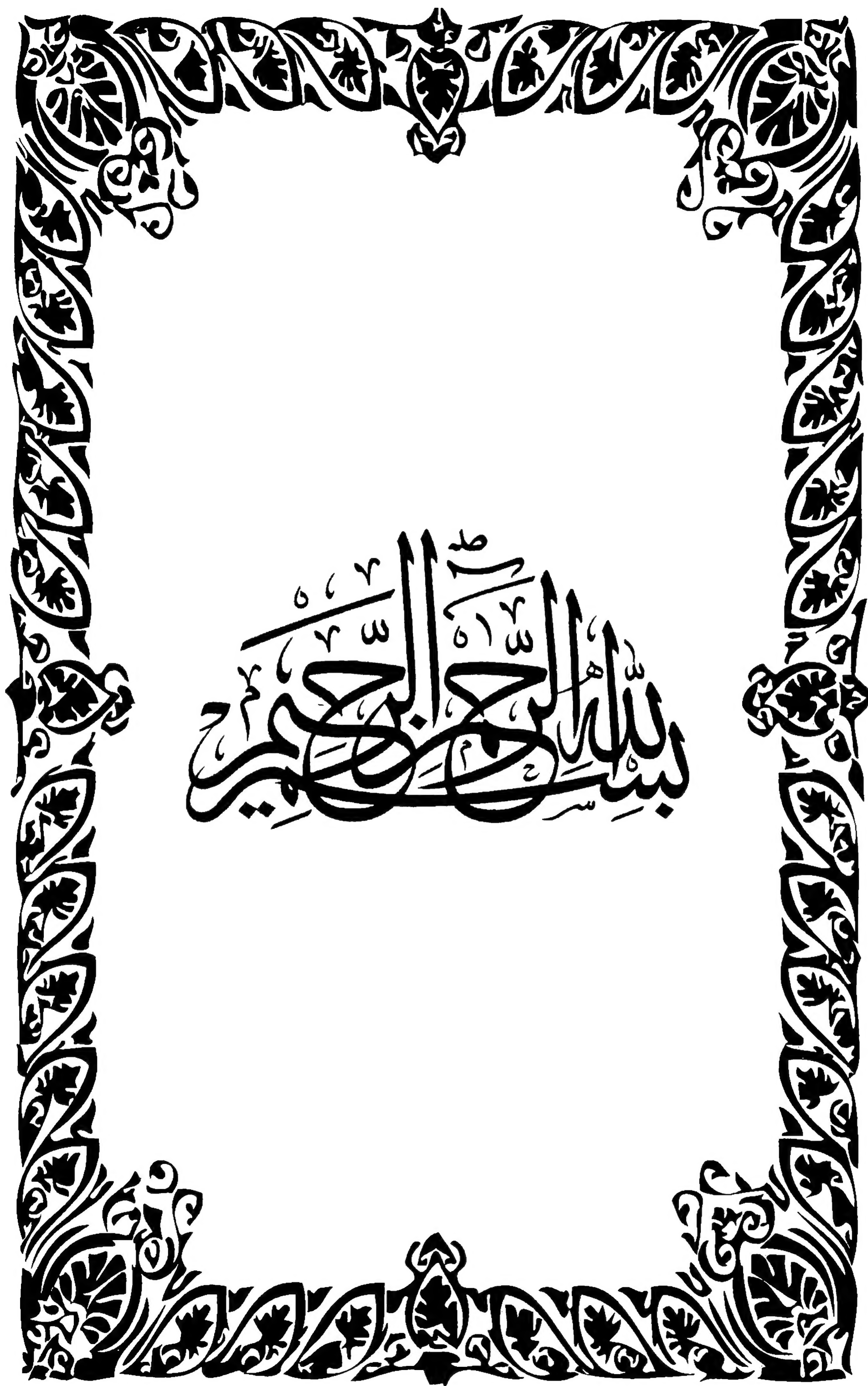
الرسائل البازية

في المسائل المنهجية

لفضيلة الشيخ العلامة
عبد العزيز بن عبد الله بن باز

تخريج وتعليق
عراقي حامد

منارة الإسلام
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقدِّمَةُ النَّاشِرِ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمدُهُ، وَنَستَعِينُهُ، وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِل فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أمَّا بَعدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ، **وَبَعْدُ:**

فالمَنْهَجُ الحَقُّ المَعْصومُ الذي لا يَحِلُّ لأحدٍ مُخالَفَتُهُ، أَو الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ، هو كتابُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وإجْمَاعُ الأُمَّةِ، وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ هي أصولُ الدِّينِ التي لا يَتَطَرَّقُ إليها خَلَلٌ أَبَدًا.

والمَنْهَجُ: هُوَ السَّبِيلُ الذي كان عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وأَصْحَابُه، والتَّابِعُونَ، وتابِعُوهم، مِنْ أصحابِ القُرُونِ الثَّلاثَةِ الأُولَىٰ المُفَضَّلَةِ التي شَهِدَ لَهَا بالخَيْرِيَّةِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حيث قال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**»(١).

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

قال مجاهدٌ رَحِمَهُ اللهُ: «الشِّرْعَةُ: السُّنَّةُ، و«مِنْهَاجًا»: قال: السَّبِيلُ»(٢).

وقد فَضَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ علىٰ سائرِ الأُمَمِ بِوَسَطِيَّتِهَا، وشهادَتِها علىٰ سائرِ الأُمَمِ، فقالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

وَجَعَلَهَا جَلَّ وعلا خَيْرَ الأُمَمِ علىٰ الإِطْلَاقِ، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وأوضحَ لها جَلَّ جَلَالُه الطَّرِيقَ، وأبانَ لها السَّبِيلَ، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٣٨٨).

ولم يَلْحَقِ النَّبِيُّ ﷺ بالرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ إِلَّا بَعْدَ أنْ أَدَّىٰ الأَمَانَةَ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ للأُمَّةِ، وَأَنَارَ السَّبِيلَ، حَتَّىٰ تَرَكَ الأُمَّةَ عَلَىٰ المَحَجَّةِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا؛ فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**وَايْمِ اللهِ، لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ مِثْلِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ**».

قال أبو الدَّرْدَاءِ: «صَدَقَ واللهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، تَرَكَنَا واللهِ عَلَىٰ مِثْلِ البَيْضَاءِ، لَيْلُها ونهارُها سواءٌ»[(١)].

واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اخْتَصَّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ المُصْطَفَاةِ المُخْتَارَةِ طائفةً بِعَيْنِهَا، وَفِرْقَةً بِذَاتِها، هي الفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، والطَّائِفَةُ المَنْصُورَةُ (أهلُ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ)، والتي هي في هذه الأُمَّةِ كَأُمَّةِ الإسلام بينَ أَهْلِ الأديانِ وسائِرِ المِلَلِ؛ فعن معاويةَ ابن أبي سفيان رضي الله عنهما أنه قال: «أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ: «**أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ**»[(٢)].

وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ مَنْهَجَهَا فقال: «**هُمُ الَّذِينَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**»[(٣)].

فهي فِي أَمَانٍ مِنَ الضَّلَالِ إِنْ تَمَسَّكَتْ بِمَا تَرَكَها عَلَيْهِ النَّبِيُّ المُخْتَار ﷺ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٥) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٤٨).

فَعَنْ أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَينِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ»(١).

ومع وضوحِ هذا السَّبيلِ وجَلَائِهِ، وبيانِ المَنْهَجِ وثَبَاتِهِ، تَسْتَغْرِبُ لحَالِ بَعْضِ الشُّعُوبِ المُسْلِمَةِ الآنَ، ومَا وَصَلَتْ إِلَيْه مِنْ فَوْضَىٰ، وَضَيَاعِ الأَمْنِ، وَفَسَادِ الأَخْلَاقِ، وَتَسْتَغْرِبُ جِدًّا مِن انْجِرَارِ أُولَئِكَ المُسْلِمِينَ وَرَاءَ كُلِّ نَاعِقٍ؛ بِحَيْث صَارُوا لَا يُفرِّقُونَ بَيْنَ مَنْ يَدْعُو إِلَىٰ الحَقِّ بِدَلِيلِه مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ أَئِمَّةِ الأُمَّةِ، وبَيْنَ مَنْ يَدْعُو إِلَىٰ مَنَاهِجَ أَرْضِيَّةٍ وَضْعِيَّةٍ مِنَ الأَنْظِمَةِ الغَرْبِيَّةِ أَو الشَّرْقِيَّةِ، أَو النَّظَرِيَّاتِ الفَلْسَفِيَّةِ، أَو الأَفْكَارِ الإِلْحَادِيَّةِ، أَو المَبَادِئِ المَاسُونِيَّةِ الصُّهْيونِيَّةِ، مِمَّا لَا خَلَاقَ لهَا في شَرِيعَةِ رَبِّ العَالَمِينَ، ودِينِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ ﷺ.

لأنَّ الإسلامَ دينٌ كاملٌ ومنهجٌ شاملٌ لجميعِ مناحِي الحياةِ كلِّها، مِنْ سِيَاسَةٍ واقْتِصَادٍ واجْتِمَاعٍ، يَدْعُو إلىٰ إقامَتِها علىٰ خَيْرِ وَجْهٍ؛ فهو يُنظِّمُ عِلاقةَ العَبْدِ بِرَبِّه أَوَّلًا، ثُمَّ علاقتَه بالنَّاسِ مِنْ حَوْلِه، حتَّىٰ يَصِلَ إلىٰ العلاقةِ بينَ الحاكمِ والمَحْكُومِ.

فَجَعَلَ مِنَ الواجبِ علىٰ وَلِيِّ الأَمْرِ أنْ يَسُوسَ النَّاسَ بِشَرْعِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك أن يَحْكُمَهم ويُحكِّم فيهم شَرْعَه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٢) (٣١٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ [النساء:١٠٥].

وجَعَلَ مِنَ الواجبِ علىٰ الرَّعِيَّةِ أن يَلْتَزِمُوا شَرْعَ اللهِ، وَيَعْمَلُوا بالدَّعْوَةِ إليه، ويَسْمَعُوا وَيُطِيعوا لحُكَّامِهم، ما لم يَأْمُرُوهم بِمَعْصِيَةٍ، وأنْ يَصْبروا علىٰ جَوْرِهم إنْ حَدَثَ مِنْهم جَوْرٌ وَظُلْمٌ لهم، وألَّا يَخْرُجُوا عَلَيْهِم، ما لم يَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عندَهم من اللهِ فيه برهانٌ.

فالنَّبيُّ ﷺ قَدْ عُرِضَ عليه المُلْكُ فأبَاهُ، والجاهُ والمَنْصِبُ فرَفَضه؛ وآمنَ به النَّجاشيُّ وهو مَلِكٌ، فلَمْ يَسْتَقْوِ بِهِ علىٰ مَنْ نَاوَأَهُ، وسَلَكَ سَبِيلَ الدَّعْوةِ وتَرْبيةِ مَنْ آمَنَ مَعَه، وتَعْليمِهم دِينَ اللهِ، وإنْ كَانُوا أَرِقَّاءَ وضُعَفاءَ وفُقَراءَ، إلَّا أنَّ اللهَ قَد اطَّلَعَ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، فنَصَرهُمْ، ومَكَّنَ لهم، وأعزَّ بِهِمْ دِينَه، ونَشَرَهُ في أَرْجاءِ المَعْمورَةِ.

قالَ الشَّيخُ العلَّامَةُ عبدُ العزيزِ بنُ باز رَحِمَهُ اللهُ: «... فكَوْنُ الدَّاعي إلىٰ اللهِ يَسْلُكُ مَسْلكَ الرُّسُلِ وأَتْباعِهِمْ -ولَوْ طَالَتِ المُدَّةُ- أَوْلىٰ به مِنْ عَمَلٍ يَضُرُّ بالدَّعوةِ ويُضَايِقُها، أو يَقْضي عَلَيها، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله»[1].

وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «ولا تَقَعُ فِتْنَةٌ إلَّا مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فإنَّهُ سُبْحَانهُ أَمَر بالحقِّ، وأَمَر بالصَّبْرِ، والفتنةُ إمَّا مِنْ تَرْكِ الحقِّ، وإمَّا مِنْ تَرْكِ الصَّبْرِ»[2].

وقد أَخَذَ العلماءُ الرَّبَّانيُّون عَبْرَ تاريخِ الأمَّةِ علىٰ عاتِقِهم بيانَ هذا الأصلِ،

---

(١) «مجلة البحوث الإسلامية»، (العدد ٣٨، ص ٢١٠).

(٢) «الاستقامة» (١/٣٥).



ودعوةَ الخَلْقِ إليه، وهو البدءُ بالدَّعْوَةِ إلىٰ توحيدِ اللهِ، واتِّبَاعِ سبيلِ النَّبيِّ ﷺ في الدَّعْوَةِ، والبَيَانِ، والاعْتِصَامِ بكتابِ اللهِ ﷻ وسُنَّةِ نَبِيِّه ﷺ، والعَمَلِ علىٰ تَحْكِيمِ شَرْعِ الله في أَرْضِهِ وخَلْقِهِ، بكلِّ السُّبُلِ الشَّرْعِيَّةِ المُمْكِنَةِ.

ومِنْ هؤلاءِ الأئمَّةِ الأعلامِ ومناراتِ الهُدَىٰ الكِرَامِ سَمَاحَةُ شَيْخِنا العلَّامةُ عَبْدُ العزيزِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ باز رَحِمَهُ اللهُ، فقد ظَلَّ حياتَه مجاهدًا في هذا المَيْدَانِ، خائضًا غِمَارَ الدَّعْوَةِ والبَيَانِ، والعملِ علىٰ هدايةِ النَّاسِ، ورَدِّهم إلىٰ الأَصْلَيْنِ النَّيِّرَيْنِ؛ الكتابِ والسُّنَّةِ، وذلك عن طريقِ دروسِه وفتاويه ومقالاتِه ولقاءاتِه، ومُصَنَّفَاتِهِ، فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْزِيَهُ خَيْرَ الجَزَاءِ وَأَعْظَمَه وأَتَمَّه وأَوْفَاه، علىٰ ما قَدَّمَ للإسلام والمسلمين.

هذا وقد تَتَبَّعْنَا رسائلَ سماحةِ الشَّيْخِ ابنِ بازٍ وفتاويه ولقاءاتِه، وَجَمَعْنَا مِنْ ذلك هذا المُصَنَّفَ الذي بين يَدَيْكَ أخي القارئ الكريم؛ ليكونَ نِبْرَاسًا لك يُضِيءُ طَرِيقَك في هذه الحياة، وَيَأْخُذُ بِيَدَيْكَ في هذه الفِتَنِ المُدْلَهِمَّةِ والنَّوازِلِ المُلِمَّةِ، ويُجِيبُكَ علىٰ ما يَدُورُ بِخَلَدِكَ مِنْ أسئلةٍ مُحَيِّرَةٍ، ويردُّك إلىٰ النَّبْعَيْنِ الصَّافِيَيْنِ (الكتابِ والسُّنَّةِ)، الذي ارْتَوَىٰ مِنْهُمَا سماحةُ شَيْخِنَا رَحِمَهُ اللهُ، وعمل علىٰ أن يهديَ الخَلْقَ إليهما؛ لينالوا سعادةَ الدُّنْيَا والآخرةِ.

وَقَدْ سَمَّيْنَا هذا المُصَنَّفَ: «الرَّسائلَ البازِيَّةَ في المَسَائِلِ المَنْهَجِيَّةِ»، ولقد ضَمَّ بَيْنَ دفَّتَيْه الرَّسائلَ التَّاليةَ:

١- أنواعُ التَّوحيدِ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٢- توحيدُ المُرْسَلِينَ وما يُضَادُّهُ مِنَ الكُفْرِ والشِّرْكِ.

٣- وجوبُ الاعتصامِ بكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، والتَّحْذِيرِ مِمَّا يُخَالِفُهُمَا.

٤- واجبُ المُسلمين تجاهَ دِينِهم ودُنْيَاهم.

٥- وجوبُ تَحْكِيمِ شَرْعِ اللهِ، وَنَبْذِ ما خَالَفَه.

٦- نصيحةٌ واجبةٌ لِتَحْكِيمِ شَرْعِ اللهِ المُطَهَّرِ.

٧- حُكْمُ الاحتكامِ إلىٰ القوانينِ الوَضْعِيَّةِ.

٨- وجوبُ العَمَلِ بِسُنَّةِ الرَّسولِ ﷺ، وكُفْرُ مَنْ أَنْكَرَها.

٩- أسبابُ ضَعْفِ المسلمين أمامَ عَدُوِّهم، ووسائلُ العِلاجِ لذلك.

١٠- أسبابُ نَصْرِ اللهِ للمؤمنين عَلَىٰ أَعْدَائِهِم.

١١- عواملُ إصلاحِ المجتَمع.

١٢- موقفُ المؤمنِ مِنَ الفِتَنِ.

١٣- حوارٌ حولَ مسائلَ إيمانيَّةٍ مُلِحَّةٍ.

١٤- حوارٌ حولَ مسائلِ التَّكْفِيرِ.

١٥- الغَزْوُ الفِكْرِيُّ.

١٦- كيف نحاربُ الغَزْوَ الثَّقافيَّ الغربيَّ والشَّرقيَّ؟

١٧- أهميةُ العلم في محارَبةِ الأفكارِ الهَدَّامَةِ.

وقد قُمْنَا في دارِ «منارةِ الإسلامِ» بإعدادِ هذه الرَّسائلِ للنَّشْرِ، ضِمْنَ هَذَا



المُصَنَّفِ، لِيَعُمَّ النَّفْعُ بِهَا، وذلك وَفْقَ الخُطُواتِ العِلْميَّةِ المَنْهجيَّـةِ التَّالِيَةِ:

١- مراجعتُها مُراجَعةً لُغوِيَّةً دَقِيقةً.

٢- إثباتُ الآياتِ القرآنيَّةِ بالرَّسْمِ العُثْمانيِّ، وَعَزْوُها إلىٰ مواضِعِها في المُصْحَفِ الشَّريفِ.

٣- تخريجُ الأحاديثِ والآثارِ.

٤- شرحُ بعضِ الكلماتِ الغَرِيبةِ، وإضافةُ بعضِ التَّعْليقاتِ المفيدةِ.

٥- عَمَلُ مُقدِّمةٍ بَيَّنَّا فيها المنهجَ المُتَّبَعَ في إعدادِ هذه الرِّسالةِ للنَّشْرِ.

٦- وضع الترجمة المختصرة للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي أملاها في حياته.

واللهُ مِنْ وَرَاءِ القَصْدِ، وهو المُوفِّقُ والهادي إلىٰ سواءِ السَّبيلِ.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعين

عراقي حامد

رئيس قسم التَّحقيق والبحث العلمي

بدار المنهاج

ترجمة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١)

أَنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ عَبْد الله بْنِ عَبْد الرَّحْمَن بْنِ مُحمَّد بْنِ عَبْد الله آل باز.

وُلِدْتُ بمَدِينَةِ الرِّياض في ذِي الحَجَّة سَنَة ١٣٣٠هـ. وكُنْتُ بصيرًا في أَوَّل الدِّرَاسةِ، ثُمَّ أَصَابني المَرَضُ في عَيْني سَنَة ١٣٤٦هـ، والحَمْدُ لله عَلَىٰ ذَلِكَ، وأَسْأَلُ الله -جلَّ وعَلَا- أَنْ يُعوِّضني عَنْه بالبَصِيرَةِ في الدُّنيا، والجَزَاء الحَسَن في الآخِرَةِ، كَمَا وَعَدَ بذَلِكَ سُبْحانَه عَلَىٰ لِسَانِ نَبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ، كَمَا أسأَلُهُ سُبْحانَه أَنْ يَجْعلَ العاقبةَ حَمِيدةً في الدُّنيا والآخِرَةِ.

وقَدْ بَدَأْتُ الدِّراسةَ مُنْذُ الصِّغَر، وحَفِظْتُ القُرْآنَ الكريمَ قَبْل البُلُوغ، ثمَّ بَدَأْتُ في تَلقِّي العُلُوم الشَّرعيَّة والعربيَّة عَلَىٰ أَيْدِي كثيرٍ من عُلَماء الرِّياضِ؛ مِنْ أَعْلَامِهِمْ:

١- الشَّيخ مُحمَّد بْنُ عَبْد اللَّطيف بْنِ عَبْد الرَّحمن بْن حَسَن ابن الشَّيخ مُحمَّد بن عَبْد الوَهَّاب رَحِمَهُمُ الله.

٢- الشَّيخ صَالح بْنُ عَبْد العَزِيزِ بْن عَبْد الرَّحمن بْن حَسَن ابْنِ الشَّيخ مُحمَّد ابْنِ عَبْد الوَهَّاب، قاضي الرِّياض، رَحِمَهُمُ اللهُ.

٣- الشَّيخ سَعْد بْنُ حَمَد بْنِ عَتِيقٍ، قَاضِي الرِّياض رَحِمَهُ اللهُ.

(١) تَفضَّل سَمَاحة الشَّيخ عبد العزيز بإِمْلَاءِ نُبْذةٍ عَنْ حياتِهِ وقُرِئَتْ عَلَيه بَعْد كِتَابَتِهَا، فأَقرَّها.

٤- الشَّيخ حَمَد بْنُ فَارس، وَكِيل بَيْت المَالِ بالرِّياض رَحِمَهُ اللهُ.

٥- الشَّيخ سَعْد وَقَّاص البُخَاري، مِنْ عُلَماء مَكَّة المُكرَّمة رَحِمَهُ اللهُ، أَخَذْتُ عَنه التَّجويدَ في عام ١٣٥٥هـ.

٦- سَمَاحة الشَّيخ مُحمَّد بن إِبْرَاهيمَ بْن عَبْد اللَّطيف آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ، وقَدْ لَازَمْتُ حَلَقَاتِهِ نَحْوًا مِنْ عَشْر سَنَواتٍ، وتَلقَّيتُ عَنْه جَميعَ العُلُوم الشَّرعيَّة، ابتداءً مِنْ سَنَة ١٣٤٧ هـ إِلَىٰ سَنَة ١٣٥٧ هـ، حَيْث رُشِّحْتُ للقَضَاءِ مِنْ قِبَلِ سَمَاحتِهِ.

جَزَىٰ اللهُ الجميعَ أَفْضلَ الجَزَاءِ وأَحْسَنَه، وتَغمَّدهُمْ جَمِيعًا بِرَحْمتِهِ ورِضْوَانِهِ.

وقَدْ تولَّيتُ عِدَّةَ أعْمالٍ؛ هِيَ:

١- القَضَاءُ في مِنْطقةِ الخَرْج مُدَّةً طويلةً اسْتمرَّتْ أَرْبعةَ عَشَرَ عامًا وأَشْهرًا، وامْتدَّتْ بَيْن سَنَتي ١٣٥٧ هـ إلىٰ عام ١٣٧١هـ، وقَدْ كانَ التَّعيينُ في جُمَادىٰ الآخرة من عام ١٣٥٧ هـ، وبَقِيتُ إِلَىٰ نِهَايةِ عَام ١٣٧١هـ.

٢- التَّدريسُ في المَعْهدِ العِلْميِّ بالرِّياض سَنَة ١٣٧٢هـ، وكُلِّيَّة الشَّريعة بالرِّياض بَعْدَ إِنْشائِهَا سَنَة ١٣٧٣هـ، في عُلُوم الفِقْهِ والتَّوحيدِ والحَدِيثِ، واسْتمرَّ عَمَلي في ذَلِكَ تِسْعَ سَنَواتٍ انْتهَتْ في عام ١٣٨٠هـ.

٣- عُيِّنْتُ في عام ١٣٨١هـ نائبًا لرَئِيسِ الجَامِعَةِ الإِسْلاميَّة بالمَدِينَةِ المُنَوَّرة، وبَقِيتُ فِي هَذَا المَنْصِبِ إلىٰ عام ١٣٩٠هـ.

٤- تَولَّيتُ رِئَاسةَ الجَامِعَةِ الإسلاميَّة في سَنَة ١٣٩٠هـ، بَعْدَ وَفَاة رَئِيسِها شَيْخنا

الشَّيخ مُحمَّد بن إِبْرَاهيم آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في رَمَضان عام ١٣٨٩هـ، وبَقِيتُ في هَذَا المَنْصبِ إِلَىٰ سَنَة ١٣٩٥هـ.

٥- وَفِي ١٤/ ١٠/ ١٣٩٥هـ صَدَرَ الأَمْرُ المَلكيُّ بتَعْيِينِي فِي مَنْصبِ الرَّئيس العَامِّ لإِدَاراتِ البُحُوثِ العِلْميَّة والإِفْتَاءِ والدَّعوةِ والإِرْشَادِ، وبَقِيتُ في هَذَا المَنْصبِ إِلَىٰ سَنَة ١٤١٤هـ.

٦- وَفِي ٢٠/ ١/ ١٤١٤هـ صَدَرَ الأَمْرُ المَلَكيُّ بتَعْيِيني في مَنْصب المُفْتي العَام للمَمْلَكة، ورَئِيس هَيْئَة كِبَارِ العُلَماءِ، ورَئِيس إِدَارَة البُحُوث العِلميَّة والإِفْتَاءِ.

أَسْأَلُ اللهَ العونَ، والتَّوفيقَ، والسَّدادَ.

وَلِي إِلَى جَانِبِ هَذَا العَمَل في الوَقْت الحَاضِرِ عُضْويَّة في كَثِيرٍ من المَجَالسِ العِلميَّةِ وَالإسلاميَّة؛ مِنْ ذَلِكَ:

١- رِئَاسَة هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَماءِ بالمَمْلكةِ.

٢- رِئَاسَة اللَّجنة الدَّائمة للبُحُوثِ العِلميَّة والإِفْتَاءِ في الهَيْئة المَذْكورَةِ.

٣- عُضويَّة ورِئَاسَة المَجْلس التَّأسِيسيِّ لِرَابطَةِ العَالَمِ الإِسْلاميِّ.

٤- رِئَاسَة المَجْلسِ الأَعْلىٰ العَالَمي للمَسَاجدِ.

٥- رِئَاسَة المَجمع الفِقْهيِّ الإِسْلاميِّ بمَكَّة المُكرَّمة التَّابع لِرَابطَةِ العَالَم الإِسْلاميِّ.

٦- عُضويَّة المَجْلس الأَعْلَىٰ للجَامِعَةِ الإِسْلاميَّة في المَدِينَةِ المُنوَّرة.

٧- عُضويَّة الهَيْئة العُلْيا للدَّعْوة الإِسْلاميَّة في المَمْلكةِ.



أمَّا مُؤلَّفاتِي؛ فمِنْهَا:

١- «الفَوَائدُ الجليَّة في المَبَاحث الفَرضيَّة».

٢- «التَّحقيق والإيضَاحُ لِكَثِيرٍ مِنْ مَسَائل الحَجِّ والعُمْرةِ والزِّياراتِ». (تَوْضيح المَنَاسك).

٣- «التَّحذيرُ مِنَ البِدَعِ، ويَشْتمل عَلَىٰ أَرْبع مَقَالَاتٍ مُفِيدَةٍ: «حُكْم الاحْتِفَالِ بالمَوْلد النَّبويِّ، ولَيْلة الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ، ولَيْلة النِّصْفِ مِنْ شَعْبانَ، وتكْذيب الرُّؤيا المَزْعومَةِ مِنْ خَادِمِ الحُجْرَةِ النَّبويَّة المُسمَّىٰ الشَّيخ أحمد).

٤- رِسَالَتانِ مُوجَزَتَانِ فِي الزَّكاة والصِّيام.

٥- «العَقِيدَةُ الصَّحيحةُ ومَا يُضادُّها».

٦- «وُجُوبُ العَمَل بسُنَّة الرَّسُول ﷺ، وكُفْر مَنْ أَنْكَرها».

٧- «الدَّعوة إِلَىٰ الله، وأَخْلاق الدُّعاة».

٨- «وُجُوب تَحْكيم شَرْع الله، ونَبْذ ما يُخَالفُهُ».

٩-«حُكْم السُّفُور والحِجَابِ، ونِكَاح الشِّغار».

١٠-«نَقْد القَوميَّة العربيَّة».

١١-«الجَوَاب المُفِيدُ في حُكْم التَّصوير».

١٢-«الشَّيخ مُحمَّد بْن عَبْد الوَهَّاب، دعوتُهُ وسيرتُهُ».

١٣-«ثَلَاثُ رَسَائل في الصَّلاة».

أ) كَيْفيَّة صَلَاة النَّبيِّ.

ب) وُجُوب أَدَاء الصَّلاة في جَمَاعةٍ.

ج) أَيْنَ يَضَع المُصلِّي يَدَيه حِينَ الرَّفْع مِنَ الرُّكُوع؟

١٤- «حُكْم الإِسْلامِ فيمَنْ طَعَن في القُرْآن، أَوْ في رَسُولِ الله ﷺ».

١٥- «حَاشِيَة مُفِيدَة عَلَىٰ فَتْح البَارِي»؛ وَصَل فِيهَا إِلَىٰ كِتَابِ الحَجِّ.

١٦- «رِسَالَةُ الأَدلَّة النَّقليَّة والحِسِّيَّة عَلَىٰ جَرَيانِ الشَّمْس، وسُكُون الأَرْض، وإِمْكَان الصُّعُود إلىٰ الكَوَاكِبِ».

١٧- «إِقَامَةُ البَرَاهِينِ عَلَىٰ حُكْمِ مَنِ اسْتَغَاثَ بغَيْر الله، أَوْ صَدَّقَ الكَهَنَةَ والعَرَّافِينَ».

١٨- «الجهادُ في سَبِيلِ الله».

١٩- «الدُّرُوسُ المُهمَّة لعَامَّة الأُمَّة».

٢٠- «فَتَاوىٰ تَتعلَّق بأَحْكَامِ الحَجِّ والعُمْرةِ والزِّيارة».

٢١- وُجُوبُ لُزُوم السُّنَّة، والحَذَر من البِدْعَةِ».



(١) أنواع التوحيد الّذي بعث الله به الرُسُل عليهم الصلاة والسلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ رَسُولِ الله وعَلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ، ومَنِ اهْتَدىٰ بِهُدَاه، **أمَّا بَعْد:**

فَإِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَ رُسُلَه -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- دُعَاةً للحَقِّ، وهُداةً للخَلْق، بَعَثَهم مُبشِّرينَ ومُنْذرينَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ للنَّاس عَلَىٰ الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَبَلَّغوا الرِّسالَةَ، وأَدَّوْا الأَمانَةَ، ونَصَحوا لأُمَمِهِمْ، وَصَبَروا عَلَىٰ أَذَاهُمْ، وجَاهَدوا في الله حَقَّ جِهَادِهِ حتَّىٰ أَقامَ اللهُ بِهِم الحُجَّة، وقَطَع بهم المَعْذرةَ، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾.

فَبَيَّنَ سُبْحانَه في هذِهِ الآيَاتِ أَنَّه أَرْسَل الرُّسُلَ لِيَدْعوا النَّاسَ إِلىٰ عِبادَة اللهِ وَحْده، ويُنْذِرُوهُمْ عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَعِبادَة غَيْره، وقَدْ بَلَّغَ الرُّسُلُ -عَلَيهم الصَّلاة

والسَّلام- ذَلِكَ، ودَعَوْا إلىٰ تَوْحيدِ الله في عبادتِهِ، فَأَرْسَوا لأُمَمِهِمْ قَوَاعدَ العَدَالةِ، والبرِّ، وَالسَّلامِ، ونَجَحوا في مَهمَّتِهِمْ غايةَ النَّجاحِ؛ لأنَّ مَهَمَّتَهُمْ هِيَ البَلاغُ والبَيَانُ، أَمَّا الهدايةُ للقُلُوب، وتَوْفِيقُها لقَبُول الحقِّ، فهَذَا بِيَدِ الله سُبْحانَه، لَيْسَ بِيَدِ الرُّسُلِ، وَلَا غَيْرِهم، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل:٣٥]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وَلَا سِيَّمَا خَاتَمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وأَفْضَلُهُمْ نَبِيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ، فَإنَّه قَدْ نَجَح في دَعْوتِهِ أَعْظَمَ نَجَاحٍ، وأَكْمَلَ اللهُ له ولأُمَّته الدِّينَ، وأَتمَّ عَلَيهم النِّعمةَ، وجَعَل شَرِيعَتَهُ شريعةً كاملةً عامَّةً لجَمِيعِ الثَّقَلين، مُنْتظمةً لجَمِيعِ مَصَالِحهم العَاجِلَةِ والآجِلَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨].

وَقَدْ أَجَابَهُمُ الأَقَلُّون، وكَفَر بِهِم الأَكْثَرُونَ جهلًا وتقليدًا للآباءِ والأَسْلافِ، واتِّبَاعًا للظَّنِّ والهَوَىٰ كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَر اللَّاتَ، والعُزَّىٰ، ومَنَاةَ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:٢٣]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَىٰ كثيرةٌ.

وقَدْ يَحمِلُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ التَّكْذيبِ والمُخَالَفةِ: الحَسَدُ، والبَغْيُ، وَالاسْتِكْبَارُ، مَعَ كونِهِ يَعْرِف الحقَّ؛ كَمَا جَرَىٰ لليَهُود، فَإِنَّهم يَعْرفونَ مُحمَّدًا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- كَمَا يَعْرفونَ أَبْناءَهُمْ، ولَكِنْ حَمَلهم البَغْيُ، والحَسَدُ، وإيثارُ العَاجِلَةِ عَلَىٰ تَكْذيبِهِ، وعَدَم اتِّبَاعِهِ.

وكَمَا جَرَىٰ لِفِرْعَون وقومِهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ مُوسَىٰ أَنَّهُ قالَ لِفِرْعونَ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾، الآية [الإسراء:١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ فِرْعونَ وقومِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وَقَالَ سُبْحانَه عَنْ كُفَّارِ قُرَيشٍ فِي تَكْذِيبِهِمْ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

وَقَدْ كَانُوا يَعْرِفُونَه في الجَاهليَّة بالصِّدْقِ وَالأَمَانةِ، ويُسمُّونَه الأَمِينَ، ويَشْهدونَ لَهُ بالصِّدْقِ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بغَيْرِ مَا عَلَيه آبَاؤُهُمْ وأَسْلافهمْ أَنْكَروا عَلَيه، وكَذَّبوه، وَعَادَوْه، وَآذَوْهُ، وَقَاتَلُوهُ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ في عِبَادِهِ مَعَ الرُّسُل ودُعَاةِ الحَقِّ، يُمْتَحنونَ، ويُكذَّبونَ، ويُعَادَوْنَ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العاقبةُ، كَمَا شَهِدَتْ بذَلِكَ الآياتُ المُحْكماتُ، وَالأَحَاديثُ الصَّحيحةُ، وَالوَقَائِعُ المَعْروفةُ؛ قديمًا وحديثًا.

وكَمَا شَهِدَ هِرَقْلُ عظيمُ الرُّوم لَمَّا سَأَلَ أَبَا سُفْيانَ عَنِ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وسيرتِهِ، وكَيْفَ الحربُ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ، فقَالَ أَبُو سُفْيان: إنَّها بَيْنَهُمْ وبَيْنه سِجَالٌ، يُدَالُونَ عَلَيه، ويُدَالُ عَلَيهِمْ، فقَالَ هِرَقْلُ: هَكَذا الرُّسُلُ تُبْتَلىٰ، ثمَّ تَكُونُ لَهُمُ العاقبةُ[1].

وقَدْ وَعَد اللهُ الرُّسُلَ وأَتْباعَهُمْ بالنَّصْر وَالتَّمْكينِ، وحُسْنِ العَاقِبَةِ في الدُّنيا والآخرة، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١، ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٧-٩]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن

(١) قصة أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هرقل قبل فتح مكة؛ أخرجها البخاري (٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥]، وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

ومَنْ تَأمَّل سُنَّةَ اللهِ في عِبَادِهِ، عَلِمَ صِحَّةَ مَا دَلَّتْ عَلَيه هذِهِ الآياتُ من جِهَةِ الوَاقِع، كَمَا قَدْ عُلِمَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ النَّقْل، وَإِنَّمَا يُصَاب أَهْلُ الإِسْلامِ فِي بَعْض الأَحْيانِ بِسَبَب مَا يَحْصُلُ مِنْهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ والتَّفْريطِ فِي أَمْرِ الله، وعَدَم الإِعْدَادِ المُسْتطاعِ لِأَعْدَائِهِمْ، ولحِكَمٍ أُخرىٰ، وأَسْرَارٍ عَظِيمَةٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ:٣٠]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران:١٦٥]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء:٧٩].

وَمَنْ يَتأمَّل دَعْوةَ الرُّسُل -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- وحَالَ الأُمَم الَّذين دَعَتهُمُ الرُّسُلُ يَتَّضح لَهُ أَنَّ التَّوحيدَ الَّذي دَعَوْا إليه ثَلاثةُ أَنْواعٍ، نَوْعانِ أقرَّ بِهِمَا المُشْركونَ، فلَمْ يَدْخُلُوا بِهِمَا فِي الإِسْلامِ، وهُمَا تَوْحِيد الرُّبُوبيَّة، وتَوْحيد الأَسْمَاء والصِّفات، أَمَّا تَوْحِيدُ الرُّبُوبيَّة فَهُو الإِقْرارُ بأَفْعَالِ الرَّبِّ مِنَ الخَلْقِ، والرِّزْقِ، وَالتَّدْبيرِ، وَالإِحْيَاءِ، وَالإِمَاتَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من أَفعالِهِ سُبْحانَه، فإِنَّ المُشْركينَ قَدْ أَقرُّوا بذَلِكَ، وَاحْتجَّ اللهُ عَلَيهم بِهِ؛ لأَنَّهُ يَسْتلزمُ تَوْحيدَ العِبَادَةِ وَيَقْتَضيه، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت:٦١]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية [الزخرف:٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

المَعْنَىٰ: فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقونَ الإِشْراكَ بِهِ في عبادتِهِ وأَنْتُمْ تَعْلمونَ أَنَّهُ الفاعلُ لهَذِهِ الأَشْياءِ؟! وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وَالآياتُ فِي هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ، وكُلُّها دَالَّةٌ عَلَىٰ إِقْرارِهِمْ بأَفْعَالِ الرَّبِّ سُبْحانَه، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ ذَلِكَ في الإِسْلامِ، كَمَا تَقدَّم لعَدَمِ إِخْلَاصِهم العِبَادَةَ لله وَحْدَه، وذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَيهم فِيمَا أَنْكَروه مِنْ تَوْحيدِ العِبَادَةِ؛ لأنَّ الخالقَ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ الَّتي أَنْكَروها هُوَ المُسْتحقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ وَحْده لَا شَريكَ لَهُ.

أَمَّا النَّوعُ الثَّاني، وَهُو تَوْحيدُ الأَسْماءِ وَالصِّفاتِ، فَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ في آياتٍ كَثِيرَاتٍ، وَلَمْ يُنْكره المُشْركونَ سِوَىٰ ما ذُكِرَ عَنْهُمْ من إِنْكَارِ الرَّحمنِ في قَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠].

وَهَذَا مِنْهُمْ عَلَىٰ سَبيلِ المُكَابرةِ والعِنَادِ، وإِلَّا فَهُمْ يَعْلمونَ أَنَّهُ سُبْحانَه هُوَ الرَّحمنُ كَمَا وُجِدَ ذَلِكَ فِي كثيرٍ مِنْ أَشْعَارِهِمْ، قَالَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر:٢٢]، وَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١] وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة:٢-٤]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل:٧٤].

وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَىٰ كثيرةٌ، وكُلُّها دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سُبْحانَه لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَىٰ، والصِّفاتُ العُلَىٰ، وَلَهُ الكَمَالُ المُطْلَقُ في ذاتِهِ، وأَسْمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِه، لَا شريكَ لَهُ في ذَلِكَ.

وقَدْ أَجْمَعَ سَلَفُ الأُمَّة عَلَىٰ وُجُوبِ الإِيمَانِ بكُلِّ مَا جاءَ في كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ الصَّحيحة مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفاتِ، وَإِقْرارِهَا كَمَا جَاءَتْ، وَالإِيمَانِ بأَنَّ اللهَ سُبْحانَه مَوْصوفٌ بِهَا عَلَىٰ الحَقِيقَةِ لَا عَلَىٰ المَجَاز، عَلَىٰ الوَجْه اللَّائق به، لَا شَبِيهَ لَهُ في ذَلِكَ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا كُفْؤ، وَلَا يَعْلمُ كَيْفيَّتها إِلَّا هُوَ سُبْحانَه، وهُوَ المَوْصوفُ بمَعَانيها كُلِّها عَلَىٰ الكَمَالِ المُطْلَقِ الَّذي لا يُشابِهُهُ فِيهَا أَحَدٌ كَمَا تَقدَّم في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، وَهَذَا النَّوعُ حُجَّةٌ قاطعةٌ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِ رَبِّنا سُبْحانَه العِبَادَةَ كالنَّوْعِ الأَوَّل.

أَمَّا النَّوعُ الثَّالثُ، فهُوَ تَوْحيدُ العِبَادَة، وهُوَ الَّذي جَاءَتْ به الرُّسُلُ، ونَزَلتْ الكُتُبُ بالدَّعْوةِ إِلَيْه، والأَمْرِ بتَحْقِيقِهِ، وخَلَقَ اللهُ مِنْ أَجْلِهِ الثَّقلَيْنِ، وَفِيهِ وَقَعتِ الخُصُومةُ بَيْنَ الرُّسُل وأُمَمِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠

فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وَقَالَ عَنْ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيْبٍ -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام-: إِنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهم قَالَ لقومِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٢٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الآيَة [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَىٰ كثيرةٌ، وكُلُّها تدلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سُبْحانَه أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وأَنْزَلَ الكِتَابَ، وخَلَقَ الخَلْقَ ليُعْبَدَ وَحْده لَا شَرِيكَ لَهُ، ويُخَصَّ بالعبادة دُونَ كُلِّ ما سِوَاهُ.

وَقَدْ تَنوَّعَتْ عِبَادةُ المُشْركينَ لغَيْر الله، فمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الأَنْبِيَاءَ والصَّالحينَ، ومِنْهُمْ مَنْ عَبَد الأصنامَ، ومِنْهُمْ مَنْ عَبَد الأَشْجارَ والأَحْجارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَد الكَواكِبَ وغَيْرَها، فأَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، وأَنْزلَ الكُتُبَ لإِنْكَار ذَلِكَ كُلِّه، ودَعْوة الخَلْق كُلِّهِمْ إِلىٰ عِبَادَة اللهِ وَحْده دُونَ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَلَا يُدْعىٰ إِلَّا اللهُ، وَلَا يُسْتَغاثُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُتوكَّلُ إِلَّا عَلَيه، وَلَا يُتقرَّبُ بالنُّذُور والذَّبَائح إِلَّا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَىٰ غَير ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَة.

وَهِيَ: اسْمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُحبُّه اللهُ ويَرْضاهُ مِنَ الأَقْوالِ والأَعْمَالِ الظَّاهرةِ والبَاطِنَةِ.

وَقَدْ زَعَم المُشْركونَ أَنَّهُمْ قَصَدوا بعِبَادَة الأَنْبِيَاءِ والصَّالِحِينَ وَاتِّخاذهم الأَصْنامَ والأَوْثانَ آلهةً مَعَ الله، زَعَموا أَنَّهُمْ إنَّما أَرادُوا بِذَلِكَ القُرْبَةَ والشَّفَاعة إِلَىٰ الله سُبْحانَه، فرَدَّ اللهُ عَلَيهِمْ ذَلِكَ، وأَبْطَله بقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس:١٨]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر:٢، ٣].

وَلَمَّا دَعَا نَبيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ قُرَيشًا وغَيْرهم مِنْ كُفَّار العَرَبِ إِلَىٰ هَذَا التَّوْحيد، أَنْكَرُوهُ، وَاحْتجُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ بأَنَّه خِلَافَ مَا عَلَيه آبَاؤُهُمْ وأَسْلافُهُمْ كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٤، ٥]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦]، وَقَالَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧]، وَالآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَعِنَادِهِمْ، كثيرةٌ جدًّا، قَدْ سَبَق ذِكْرُ الكَثِيرِ مِنْهَا.

فَالوَاجِبُ عَلَىٰ الدُّعاةِ إِلَىٰ اللهِ سُبْحانَه: أَنْ يُبلِّغوا عَنِ الله دِينَهُ بِعِلْمٍ وبَصِيرَةٍ، وَأَنْ يَصْبِرُوا وَلَا يَيْأَسُوا، وأَنْ يَتذكَّروا وَعْدَ الله رُسُلَه وأَتْبَاعَهُمْ بالنَّصْر والتَّمْكينِ فِي الأَرْض إِذَا نَصَروا دِينَهُ، وَثَبَتوا عَلَيه، وَاسْتَقامُوا عَلَىٰ طَاعَةِ الله ورَسُولِهِ، كَمَا

تَقدَّم ذِكْرُ ذَلِكَ في الآيَاتِ المُحْكَماتِ، وَكَما جَرَىٰ لِنَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، فقَدْ أُوذِيَ وعُودِيَ من القَرِيبِ والبَعِيدِ، فَصَبر كَمَا صَبر الرُّسُلُ قَبْله، وَاسْتَمرَّ في الدَّعوة إلىٰ رَبِّه، وجَاهَد في الله حقَّ الجِهَادِ، وصَبَر أَصْحابُهُ وَنَاصِرُوه، وَجَاهَدُوا مَعَه حتَّىٰ أَظْهَرَ اللهُ دِينَهُ، وأَعزَّ جُنْدَه، وخَذَلَ أَعْدَاءَهُ، ودَخَل النَّاسُ في دِينِ اللهِ أَفْواجًا، سُنَّةُ الله في عِبَادِهِ، فلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَبْديلًا، ولَنْ تجِدَ لسُنَّةِ الله تَحْويلًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦]، وَتَقدَّمَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، وَقَوْلُهُ سُبْحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩].

وَأَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، ويُعْلِي كَلِمَتَه، وأَنْ يُصْلحَ أَحْوالَ المُسْلمينَ، ويَجْمعَ قُلُوبَهمْ عَلَىٰ الحقِّ، وأَنْ يُفقِّههُمْ في دينِهِ، وأَنْ يُصْلحَ قَادَتَهمْ، وَيَجْمعَهُمْ عَلَىٰ الهُدَىٰ، ويُوفِّقهُمْ لتَحْكيمِ شَريعَتِهِ، والتَّحَاكم إِلَيْها، والحَذَر مِمَّا خَالَفها؛ إِنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّم عَلَى عَبدِهِ ورَسُولِهِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وآلِهِ وأَصحابِهِ وأتباعِهِ بإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين



(٢) توحيد المرسلين وما يضاده من الكفر والشرك

الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمين، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، والصَّلاة والسَّلَام علىٰ سَيِّد الأَوَّلينَ والآخِرينَ، وعَلَىٰ جميع الأَنْبياءِ والمُرْسلينَ، وآلِ كلٍّ وسَائِرِ الصَّالِحِينَ.

أما بعد: فَلَمَّا كانَ تَوْحيدُ الله ﷻ، والإيمانُ بِهِ وبِرُسُلِهِ -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- أَهَمَّ الوَاجِبَاتِ، وأَعْظَمَ الفَرَائض، والعِلْمُ بذَلِكَ أَشْرَفَ العُلُوم وأَفْضلَها، ولَمَّا كَانَت الحاجةُ إلىٰ هَذَا الأَصْل الأَصِيلِ داعيةً إلىٰ بَيَانه بالتَّفْصيل، رأيتُ إيضاحَ ذَلِكَ في هذِهِ الكلمةِ المُوجَزة لِشِدَّة الحَاجَة إلىٰ ذَلِكَ، ولأنَّ هَذَا المَوْضوعَ العظيمَ جديرٌ بالعِنَايَة.

وأَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ يُوفِّقنا جميعًا لِإِصَابَة الحقِّ في القَوْل والعَمَل، وأَنْ يُعِيذَنَا جميعًا من الخَطَإِ والزَّلَل.

فأَقُولُ ومِنَ اللهِ ﷻ أَسْتمدُّ العونَ والتَّوفيقَ:

لَا رَيْبَ أَنَّ التَّوحيدَ هُوَ أهمُّ الوَاجِبَاتِ، وهُوَ أَوَّل فريضةٍ، وهُوَ أَوَّل دَعْوةِ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهُوَ زُبْدة هذِهِ الدَّعوة، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ رَبُّنا ﷻ في كتابِهِ المُبينِ، وهُوَ أَصْدقُ القَائِلِينَ، حَيْثُ يَقُول سُبْحانَه عَنْ جَمِيعِ المُرْسلينَ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

أَوْضَح -جلَّ وعَلَا- أنَّه بَعَث في جَمِيعِ الأُمَم في كلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا يَقُولُ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللهَ، وَاجْتَنبوا الطَّاغوتَ، هذِهِ دَعْوةُ الرُّسُل، كلُّ واحدٍ يَقُول لقومِهِ وأُمَّتِهِ: اعْبُدُوا اللهَ، وَاجْتَنبوا الطَّاغوتَ.

المعنى: وَحِّدُوا اللهَ؛ لأنَّ الخُصُومةَ بَيْنَ الرُّسُل والأُمَمِ في تَوْحيدِ العِبَادَة، وإِلَّا فالأُمَمُ تُقرُّ بأنَّ اللهَ رَبُّها وخَالِقُها ورَازِقُهَا، وتَعْرف كثيرًا من أسمائِهِ وصفاتِهِ، ولَكِنَّ النِّزاعَ والخُصُومةَ مِنْ عَهْد نوحٍ إلىٰ يَوْمنا هَذَا في تَوْحيد الله بالعِبَادَة، فالرُّسُل تَقُول للنَّاس: أَخْلِصُوا العبادةَ لَهُ، وَحِّدُوه بها، وَاتْركُوا عِبَادةَ مَا سِوَاهُ، وأَعْدَاؤُهُمْ وخُصُومُهم يَقُولُونَ: لا، بَلْ نَعْبدُهُ ونعبدُ غَيْره، مَا نَخصُّهُ بالعبادةِ.

هَذَا هُوَ محلُّ النِّزاع بَيْنَ الرُّسُل والأُمَم، الأُمَم لَا تُنْكر عِبَادتَه بالجُمْلة، بَلْ تَعْبدُهُ، ولكنَّ النِّزاعَ هَلْ يخصُّ بها أَمْ لا يخصُّ؟ فالرُّسُل بَعَثَهُمُ اللهُ لتَخْصِيصِ الرَّبِّ بالعِبَادَة، وتَوْحيده بِهَا دُونَ كُلِّ ما سِوَاه، لكَوْنه عَزَّ وَجَلَّ المَالِكَ، القَادرَ عَلَىٰ كلِّ شيءٍ، الخَلَّاقَ، الرَّزَّاقَ للعِبَادِ، العليمَ بأَحْوَالهم، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ، فلِهَذَا دَعَتِ الرُّسُلُ -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- جميعَ الأُمَم إِلَىٰ تَوْحيدِ الله، وإِخْلاصِ العِبَادَة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَرْك عِبَادَة ما سِوَاهُ، وهَذَا هُوَ مَعْنىٰ قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في هَذَا المَعْنىٰ: العِبَادةُ هِيَ التَّوحيدُ(١).

---

(١) أخرج الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٦٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة:٢١]، للفريقين جميعًا من الكفار والمنافقين، أي: وَحِّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم».

وهكذا قال جميع العلماء: إنَّ العبادةَ هِيَ التَّوحيدُ، إِذْ هو المَقْصودُ، والأُمَم الكَافِرَةُ تَعْبدُ اللهَ، وتَعْبد مَعَه سِوَاهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وعَلَا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦، ٢٧]، فَتبرَّأَ مِنْ مَعْبودَاتِهِمْ كُلِّها إِلَّا فاطِرَهُ سُبْحانَه، أَيْ: خَالِقَه، فعلم أَنَّهم يَعْبدُونَه، ويَعْبدونَ مَعَه غَيْره، فلِهَذَا تبرَّأ الخليلُ مِنْ مَعْبودَاتِهِمْ سِوَىٰ خالقِهِ وفَاطِره عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهَكَذا قولُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ [مريم:٤٨]، فعلم أَنَّهم يَعْبدُونَ الله، ويَعْبدونَ مَعَه غَيْرَه، والآياتُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

فعَلِمْنا بذَلِكَ: أَنَّ المَقْصودَ مِنْ دَعْوة الرُّسُل تَخْصيصُ الله بالعِبَادَة، وإِفْرَاده بِهَا، لا يُدْعىٰ إِلَّا هو جلَّ وعَلَا، ولا يُسْتَغاث إِلَّا بِهِ، ولا يُنْذَر إِلَّا لَهُ، ولا يُذْبح إِلَّا له، ولا يُصلَّىٰ إِلَّا لَهُ، إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ من العِبَادَات، فهُوَ المُسْتحقُّ لَهَا -جلَّ وعَلَا- دونَ كُلِّ ما سِواه، وهَذَا هُوَ مَعْنىٰ «لَا إِلَه إِلَّا الله»، فإِنَّ مَعْناها: لَا مَعْبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

هَذَا هُوَ مَعْناها عِنْدَ أَهْل العِلْمِ؛ لأَنَّ الآلهةَ مَوْجودةٌ بكَثْرةٍ، والمُشْركونَ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَان، مِنْ عَهْد نُوحٍ يَعْبدونَ آلهةً مِنْ دُونِ الله، مِنْها: وَدٌّ، وسُوَاعٌ، ويَغُوثُ، ويَعُوقُ، ونَسْرٌ، وغَيْرُ ذَلِكَ.

وهَكَذا العَرَبُ عِنْدَها آلهةٌ كثيرةٌ، وهَكَذا الفُرْسُ والرُّومُ، وغَيْرهم كُلُّهم عِنْدَهم آلهةٌ يَعْبدونَها مَعَ الله.

فعلم بذَلِكَ أَنَّ المَقْصودَ بقَوْل: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» هُوَ المَقْصود بدَعْوة الرُّسُل، وهُوَ أَنْ يُوحَّد الله، ويخصَّ بالعِبَادَة دون كلِّ ما سِوَاه جلَّ وعَلَا، ولهَذَا يَقُول

سُبْحانَه في كتابِهِ المُبِينِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

فَاتَّضح بذَلِكَ أَنَّ المقصودَ تَخْصيصه بالعِبَادَة دُونَ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وأنَّه سُبْحانه المَعْبود الحقُّ جلَّ وعَلَا، وأنَّ ما عُبِدَ من دُونه معبودٌ باطلٌ، ولهَذَا قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، أَيْ: وَحِّدوا اللهَ، وَاجْتَنبوا الطَّاغُوتَ، أَيْ: اتْركُوا عبادةَ الطَّاغوت، وَابْتَعدوا عَنْها.

والطاغوت: كلُّ ما عُبِدَ من دُونِ الله من الإِنْسِ والجنِّ والمَلَائكةِ، وغَيْر ذلك من الجَمَادات، مَا لَمْ يَكُنْ يكره ذَلِكَ، ولَا يَرْضىٰ بِهِ.

والمَقْصودُ: أَنَّ الطَّاغوتَ كلُّ ما عُبِدَ من دون الله من الجَمَادات وغَيْرها مِمَّنْ يَرْضىٰ بذَلِكَ، أَمَّا مَنْ لا يَرْضىٰ بذَلِكَ؛ كالمَلَائكةِ، والأَنْبيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ، فالطَّاغوتُ هُوَ الشَّيطانُ الَّذي دَعَا إلىٰ عِبادَتهِمْ، وَزَيَّنها للنَّاس.

فالرُّسُلُ، والأنبياءُ، والمَلَائكةُ، وكُلُّ صَالحٍ لَا يَرْضىٰ أَنْ يعبدَ من دُونِ الله أبدًا، بَلْ يُنْكر ذَلِكَ ويُحَاربه، فَلَيْسَ بطَاغُوتٍ، وإنَّما الطَّاغوت كلُّ ما عُبِدَ من دون الله مِمَّنْ يَرْضىٰ بذَلِكَ؛ كفِرْعونَ وإِبْلِيس وأَشْبَاههما مِمَّنْ يَدْعو إلىٰ ذَلِكَ، أو يَرْضَىٰ به.

وهَكَذا الجَمَادات مِنَ الأَشْجَار والأَحْجَار والأَصْنَام المَعْبودة من دون الله، كُلُّها تُسمَّىٰ طَاغوتًا بِسَبَب عِبَادَتها من دون الله، وَفِي هَذَا المَعْنىٰ يَقُولُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، وهَذِهِ الآيَةُ مِثْلُ الآيَةِ السَّابقة، يُبيِّنُ فِيهَا سُبْحانه أَنَّ

دَعْوةَ الرُّسُل جميعًا هِيَ الدَّعوةُ إلىٰ التَّوحيد، وإِخْلَاصِ العِبَادَة لله وَحْده -جلَّ وعَلَا- دون كلِّ ما سِوَاه.

ولَوْ كان قولُهُ: «لا إله إلَّا الله» يَكْفي مَعَ قَطْع النَّظَر عَنْ تَخْصيصِ الله بالعِبَادَة والإيمان بأنَّهُ هو المُسْتحقُّ لَهَا، لَمَا امْتنَع النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ المُشْركينَ عَرَفوا أَنَّ قَوْلَها يُبْطل آلِهَتَهُمْ، وأَنَّ قَوْلها يَقْتضي أَنَّ اللهَ هُوَ المَعْبودُ الحقُّ، والمُخْتص بذلك جلَّ وَعَلا، فلِهَذَا أَنْكَروها، وعَادَوْها، وَاسْتَكْبروا عَنْ الاسْتِجَابَة لَهَا.

فَاتَّضَحَ بِهَذَا أَنَّ المَقْصودَ مِنْ ذَلِكَ تَخْصيصُ اللهِ بالعِبَادَة، وإِفْرَاده بها دُونَ جَمِيعِ مَا عُبِدَ من دُونِهِ ﷻ، من أَنْبِيَاءٍ، أَوْ مَلَائكةٍ، أو صَالِحِينَ، أَوْ جِنٍّ، أَوْ غَيْر ذَلِكَ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحانَه هُوَ المالكُ، الرَّازِقُ، القادرُ، المُحْيي، المُمِيتُ، الخالقُ لكلِّ شيءٍ، المُدبِّر لأُمُور العِبَادِ، فهُوَ المُسْتحقُّ لأَنْ يُعْبد جلَّ وعَلَا، وهُوَ العليمُ بأَحْوَالهم ﷻ، فلذَلِكَ بَعَثَ الرُّسُلَ لدَعْوة الخَلْق إلىٰ توحيدِهِ، والإِخْلَاص لَهُ، ولِبَيَان أسمائِهِ وصفاتِهِ، وأنَّه المُسْتحقُّ لأَنْ يُعْبد ويُعظَّم لكَمَال عِلْمِهِ، وكَمَال قُدْرتِهِ، وكَمَال أَسْمائِهِ وصفاتِهِ، ولأنَّهُ عَزَّوَجَلَّ النَّافعُ الضَّارُّ، العَالِمُ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ، السَّميعُ لدُعَائهم، الكفيلُ بمَصَالِحِهمْ جلَّ وعَلَا، فهُوَ المُسْتحقُّ لِأَنْ يُعْبَد -جلَّ وَعَلا- دون ما سِوَاهُ ﷻ.

وَقَدْ أَخْبَر سُبْحانَه عَنْ نُوحٍ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ، وَشُعَيبٍ -عَلَيهم الصَّلَاة والسَّلَام- أَنَّهُمْ قالوا لقَوْمهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون:٢٣]، فهَذَا مُطَابقٌ لقَوْلِهِ تَعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقَدْ أَجابَ قومُ هُودٍ نَبيَّهُمْ -عَلَيه الصَّلَاة والسَّلام- بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠]، فَقَدْ عَلِمُوا المَعْنىٰ وعَرَفوه، وهُوَ أَنَّ دَعْوةَ هُودٍ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- تَقْتضي إِخْلاصَ العِبَادَة لله وَحْده، وخَلْعَ الأَوْثانِ المَعْبودة من دُونِهِ، ولهَذَا قَالُوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف:٧٠]، فَاسْتمرُّوا عَلَىٰ العِنادِ وَالتَّكْذِيبِ، حتَّىٰ نَزلَ بِهِمُ العَذَابُ، نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ.

واللهُ سُبْحانَه أَنْزلَ الكُتُبَ، وأَرْسَل الرُّسُلَ ليُعْبَد وَحْده لا شَرِيكَ لَهُ، وليُبيِّنَ حقَّه لعبادِهِ، ويَذْكر للعِبَادِ ما هُوَ مَوْصوفٌ بِهِ سُبْحانَه من أسمائِهِ الحُسْنىٰ، وصفاتِهِ العُلَىٰ، ليَعْرفوه -جلَّ وعَلَا- بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وعَظِيمِ إحسانِهِ، وكَمَال قدرتِهِ، وإِحَاطةِ علمِهِ جلَّ وَعَلا، ومَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّ تَوْحيدَ الرُّبوبيَّة هُوَ الأَسَاسُ والأصلُ لتَوْحيد الإلهيَّة والعِبَادَة، فلهَذَا بُعِثَتِ الرُّسُلُ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، وأُنْزلَتِ الكُتُبُ السَّماويَّة مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ لبَيَانِ صفاتِهِ وأسمائِهِ وعَظِيمِ إِحْسانِهِ، وبَيَان اسْتِحْقَاقِهِ أَنْ يُعظَّم ويُدْعىٰ ويُسْأل جلَّ وعَلَا، حتَّىٰ تَخْضعَ الأُمَمُ لعبادتِهِ وطاعتِهِ، وحتَّىٰ تُنِيبَ إِلَيْه، وحتَّىٰ تَعْبده دونَ كلِّ ما سِوَاه جلَّ وَعَلا، وَهَذا مَوْجودٌ كَثِيرًا في كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقَدْ ذَكَر اللهُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ رُسُلِهِ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، فقَالَ سُبْحانَه: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس:٧١، ٧٢].

فبيَّن -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- أنَّه مُعْتمدٌ عَلَىٰ الله، وأنَّه مُتوكِّلٌ عَلَيه جلَّ وَعَلا، وأنَّه لا يُبَالي بتَهْديدِهِمْ وتَخْويفِهِمْ، وأنَّه لا بُدَّ لَهُ من تَبْليغِ رِسَالاتِ اللهِ، فقَدْ بَلَّغَ فِعْلًا عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، فعَرَّفَهُمْ بقُدْرة رَبِّه وعظمتِهِ، وأنَّه هو المُحِيطُ بالجَمِيعِ، والقادرُ عَلَىٰ إنْجَائِهِ، وعَلَىٰ إهْلاكِ أَعْدائِهِ.

كَمَا أنَّه القادرُ علىٰ حِفْظِ رُسُله وأنْبيائِهِ، وَإحَاطَتِهِمْ بكَلَاءتِهِ، وَإعَانتهِمْ عَلَىٰ تَنْفيذِ مَا جَاؤوا بِهِ مِنَ الهُدَىٰ، وأنْزلَ في هَذَا سُورَةً تَتعلَّق بنُوحٍ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- حَيْث قالَ جلَّ وَعَلا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١-١٤].

فأَوْضَح سُبْحانَه عَلَىٰ لِسَانِ نَبيِّه نُوحٍ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- شيئًا من صفاتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّهُ الَّذي يَمدُّهُمْ بِمَا يَمدُّهُمْ بِهِ من الأَرْزَاق والخَيْر الكَثِير، والنِّعَم العَظِيمة، وأنَّه المُسْتحقُّ لأَنْ يُعْبد ويُطَاع، ويُعظَّم جلَّ وَعَلا.

وَقَالَ عَنْ هُودٍ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وعَنْ قَوْمه في سُورَة الشُّعَراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٢٣-١٣٥].

فأَوْضَح الله -جَلَّ وَعَلا- عَلَىٰ لِسَانِ نَبيِّهِمْ هُودٍ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- كثيرًا من النِّعم الَّتي أَنْعَم بها عَلَيهم جَلَّ وَعَلا، وأَنَّه رَبُّ الجَمِيعِ، وأَنَّ الواجبَ عَلَيهم الخُضُوعُ له، وطاعةُ رَسُولِهِ، وتَصْديقُهُ، ولَكنَّهُمْ أَبَوْا وَاسْتَكْبروا، فنَزلَ بِهِمْ عذابُ الله مِنَ الرِّيح العَقِيمِ.

وقَالَ عَنْ صَالِحٍ عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ الآيات [الشعراء:١٤١-١٥٢].

فَبيَّنَ صَالحٌ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- ما يَتعلَّق بالله، وأَنَّه ربُّ العَالَمينَ، وأَنَّه أَعْطَاهم ما أَعْطَاهم من النِّعَم.

فكانَ الواجبُ عَلَيهم الرُّجُوعَ إليه، وتَصْديقَ رَسُولِهِ صالحٍ، وطَاعَتَه فِيمَا

جاءَ بِهِ، وألَّا يُطِيعُوا المُسْرفينَ المُفْسدينَ في الأَرْض، ولكنَّهمْ لَمْ يُبَالوا بهَذِهِ النَّصيحةِ، ولَمْ يُبَالوا بهَذَا التَّوجيهِ، بَل اسْتَمرُّوا في عِنَادِهِم وضَلَالهمْ وكُفْرهِمْ حتَّىٰ أَهْلكَهم اللهُ بالصَّيْحةِ والرَّجْفةِ؛ نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ.

وذَكَر ﷻ أيضًا عن خليلِهِ إبراهيمَ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- شيئًا من صفاتِهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّهُ ذَكَرها لقومِهِ ليُنيبُوا إِلَىٰ الله، وَليَعْبدُوه، ويُعظِّموه حَيْثُ قَالَ ﷻ في سُورَة الشُّعَراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء:٦٩-٧٣].

يَنْبغي الوَقْفة عِنْدَ هَذَا، فإنَّ اللهَ سُبْحانَه بهَذَا يُبيِّنُ لَهُمْ أنَّ هذِهِ الأصنامَ لا تَصْلح للعِبَادةِ؛ لأنَّها لا تَسْمَع، وَلَا تُجِيبُ الدَّاعيَ، ولَا تَنْفعُ، وَلَا تضرُّ؛ لأنَّها جمادٌ لا إِحْساسَ لَهَا بحَاجَة الدَّاعين، وسُؤَالِهِمْ، ومَا لَدَيْهم من ضَرُوراتٍ؛ فكَيْفَ تُدْعىٰ من دون الله؟! فلهَذَا قَالَ: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء:٧٢، ٧٣] مَاذَا أَجَابُوا؟ حَارُوا وَحَادُوا عن الجَوَاب؛ لأَنَّهم يَعْلمونَ أنَّ هذِهِ الآلهةَ لَيْسَ عِنْدَها نفعٌ ولا ضرٌّ، ولَيْسَتْ تَسْمع دُعَاءَ الدَّاعينَ، ولا تُجِيبُهُ.

فلهَذَا قَالُوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء:٧٤]، وَلَمْ يَقُولُوا: إِنَّهم يَسْمعونَ، أَوْ يَنْفعونَ، أو يَضرُّونَ.

بَلْ حَادُوا عَنِ الجَوَاب، وأَتَوْا بجَوَابٍ يدلُّ علىٰ الحَيْرة والشَّكِّ، بَلْ والاعترافِ بأَنَّ هذِهِ الآلهةَ لَا تَصْلح للعِبَادَة، فَقَالُوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء:٧٤] يَعْني سِرْنَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ وَسَبيلِهِمْ مِنْ غَير نَظَرٍ فِيمَا

قُلْتَ لَنَا، وهَذَا مَعْنَىٰ قولِهِ في الآيَةِ الأُخْرىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣]، هذِهِ طَرِيقَتُهُم المَلْعونةُ الخَبيثةُ الَّتي سَلكوها واحْتجُّوا بها، وسَارُوا عَلَيها، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ.

ثمَّ قالَ لَهُمُ الخليلُ عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء:٧٧]، مُرادُهُ بذَلِكَ مَعْبودَاتُهم مِنَ الأَصْنَام، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء:٧٧]، فقَوْلُهُ: إِلَّا ربَّ العَالَمين، يَدلُّنا عَلَىٰ أَنَّهُ كانَ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- يَعْلم أَنَّهُمْ يعبدون الله، ويَعْبدون مَعَه غَيْره، ولهَذَا اسْتَثْنىٰ ربَّه، فقَالَ: إِلَّا ربَّ العَالَمين، كَمَا في الآية الأُخْرىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٧]، فعُلِمَ بذَلِكَ أَنَّ المُشْركينَ يَعْبدونَ اللهَ، ويَعْبدونَ مَعَه سِوَاه، ولكنَّ النِّزاعَ بَيْنهُمْ وبَيْنَ الرُّسُل في تَخْصيصِ الله بالعِبَادَةِ، وإِفْرَاده بِهَا دُونَ كُلِّ ما سِوَاهُ جَلَّ وَعَلا.

ثمَّ قالَ بَعْد ذَلِكَ في بَيَانِ صِفَاتِ الرَّبِّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء:٨١].

هَذِهِ أَفْعالُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلا: يَشْفي المَرْضىٰ، ويُميتُ ويُحْيي، ويُطْعم ويَسْقي، ويَهْدي مَنْ يَشَاء، وهُوَ الخَلَّاقُ القادرُ علىٰ مَغْفرةِ الذُّنُوب، وسَتْر العُيُوب، فلهَذَا استحقَّ العبادةَ عَلَىٰ عِبَادِهِ جَلَّ وَعَلا، وبَطَلَتْ عبادةُ كُلِّ مَا سِوَاهُ؛ لأَنَّهم لا يَخْلقونَ، وَلَا يَرْزقونَ، وَلَا يَنْفعونَ، وَلَا يَضرُّونَ، ولا يَعْلمون المُغيَّبات، وَلَا يَسْتطيعونَ لِدَاعِيهمْ أَنْ يُقدِّموا شيئًا؛ نفعًا أو ضرًّا، كَمَا قَالَ سُبْحانَه:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٣، ١٤]، فبيَّنَ عَجزهُم، وبيَّنَ أَنَّ دَعْوتَهمْ من دُونِ الله شِرْكٌ بالله عَزَّوَجَلَّ، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤]، فبَيَّنَ سُبْحانَه عَجزَ هذِهِ الآلهة جَمِيعِها، وبيَّنَ أَنَّهمْ بهَذَا الدُّعاء قَدْ أَشْرَكوا بالله عَزَّوَجَلَّ.

وَهُنَا قَالَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٨٢]، يَعْني أَطْمَعُ أَنَّه سُبْحانَه يَغْفر لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين، فهُوَ -جَلَّ وَعَلا- يَنْفع في الدُّنيا، ويُنْجي في الآخِرَةِ، أَمَّا هذِهِ الأصنامُ فَلَا تَنْفع لا في الدُّنيا، ولا في الآخِرَةِ، بَلْ تضرُّ، ولهَذَا قالَ عَنْ خليلِه إبْراهيمَ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء:٨٢-٨٥]، هَذَا كلُّه يدلُّ علىٰ الإِيمَانِ بالآخِرَةِ، والدَّعوة إلىٰ ذَلِكَ، وتَنْبيه العِبَادِ عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ آخرةً لا بُدَّ من المَصِيرِ إِلَيْها، وهُنَاك جزاءً وَحِسَابًا، ولهَذَا قالَ بَعْده: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء:٨٥، ٨٦]، دَعَا لَهُ بالمَغْفرةِ قَبْل أَنْ يَعْلمَ حَاله، فلَمَّا عَلِمَ حَالَه، تَبرَّأَ مِنْهُ، كَمَا قالَ في سُورَة العَنْكَبوتِ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت:١٦، ١٧].

فَبيَّنَ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- أنَّ العبادةَ حقُّ الله، وَأنَّهُ يجبُ أَنْ يُتَّقىٰ ويُعْبد ﷻ، وأنَّ الَّذي فَعَلوه إفكٌ لا أساسَ لَهُ، وأَنَّ مَعْبودَاتِهِمْ لا تَمْلك لَهُم رِزْقًا أبدًا، كَمَا أنَّها لا تَنْفعُهُمْ، وَلَا تَضرُّهم، فهِيَ أيضًا لا تَمْلك لهم رِزْقًا، بَلِ اللهُ -جَلَّ وَعَلا- هُوَ الرَّزَّاقُ، ولهَذَا قالَ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت:١٧]، فهُوَ سُبْحانَه الَّذي يُعْبَد، ويُطْلب الرِّزْقُ منه -جَلَّ وَعَلا- دون كلِّ ما سِوَاهُ ﷻ، ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت:١٧]، فالمَرْجِعُ إِلَيْه، وَهُوَ سُبْحانَه المالكُ لكلِّ شيءٍ، والقادرُ علىٰ كُلِّ شيءٍ، والمُسْتحقُّ لأَنْ يُشْكَر لكَمَال إنعامِهِ وإحسانِهِ، وهو الَّذي يُطْلب منه الرِّزق جَلَّ وَعَلا، ولهَذَا قالَ في آياتٍ أُخرَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات:٥٨]، وَقَالَ ﷿: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦].

والآياتُ الدَّالَّةُ علىٰ أنَّ الله سُبْحانَه أَمَرَ الرُّسُلَ أَنْ يُوجِّهوا العبادَ إِلَيْهِ، وأَنْ يُعرِّفوهُمْ بخَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وإِلَهِهِمْ سُبْحانَه- كثيرةٌ جدًّا، موجودةٌ في كِتَابِ الله، مَنْ تَأَمَّلَ القرآنَ وَجَد ذَلِكَ واضحًا بيِّنًا.

فالرُّسُلُ أَفْصَحُ النَّاس، وأَعْرفُ النَّاس بالله عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، وأَكْمَلهم نَشَاطًا في الدَّعوة إِلَيْه، فلَيْسَ هناك مَنْ هُوَ أَصْبرُ مِنْهُمْ علىٰ الدَّعوة، ولا أَعْلَمُ مِنْهُمْ بالله، وَلَا أَحَبُّ لهِدَايَة الأُمَم مِنْهُمْ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، ولهَذَا بَلَّغوا رِسَالَاتِ الله أَكْمَلَ تَبْليغٍ وأَتمَّه، وبَيَّنوا للنَّاس صفاتِ الخَالِقِ المَعْبود، وأَسْماءَه سُبْحانَه، وأَفْعالَه، وفَصَّلوها كَيْ يعلمَ العبادُ رَبَّهُمْ، وحتَّىٰ يَعْرفوه بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وعَظِيمِ حَقِّه علىٰ عِبَادِهِ، وحتَّىٰ يُنِيبُوا إِلَيه عَنْ بَصِيرَةٍ وعِلْمٍ.

ومِنْ هَذَا مَا ذَكَره اللهُ عَنْ مُوسَىٰ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- حَيْث قَالَ: ﴿ وَإِذْ
نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم
مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٠-١٦]،
أَمَره أَنْ يُبيِّنَ له أنَّه رسولُ رَبِّ العَالَمين، لَعلَّه يَتذكَّر فَيُنِيبُ إلىٰ الحقِّ، لَكنَّه لَمْ
يَتذكَّر، بَلْ أَعْرضَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ
عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ
فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا
وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم
مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا
بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٨-٢٨].

فَانْظُرُوا كَيْفَ يُبيِّن له مُوسَىٰ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- صِفَاتِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّهُ ربُّ العَالَمين، ورَبُّ السَّماواتِ، ورَبُّ الأرضِ، وما بَيْنهما، وربُّ الخَلَائق كُلِّها، ورَبُّ المَشْرقِ والمَغْربِ، حتَّىٰ يعلم عدوُّ الله هذِهِ الصِّفات لعَلَّه يَرْجع إلىٰ الحقِّ والصَّواب، ولَكِنْ سَبَق في عِلْمِ الله أنَّهُ يَستمرُّ علىٰ طُغْيانِهِ وضلالِهِ، ويَمُوتُ عَلَىٰ كُفْره وعِنَادِهِ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ.

وبَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِهَارُونَ ومُوسَىٰ أنَّه مَعَهما يَسْمع ويَرَىٰ، وأنَّهُ حَافِظُهُما، وَنَاصِرُهُما، ومُؤيِّدهما، فلهَذَا أَقْدَما علىٰ دَعْوة هَذَا الجَبَّارِ العَنِيدِ المُتكبِّر

المُتَغطْرِس الَّذي قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:٢٤]، فَصَانَهما وَحَماهُمَا من شَرِّهِ وكَيْدِهِ.

وَلَا شكَّ أَنَّ هَذَا كلَّه من حِفْظِ الله وعنايتِهِ برُسُلِهِ وأنبيائِهِ عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام: رجلٌ مُتكبِّرٌ طاغيةٌ ملكٌ لَعِينٌ يَدَّعي أنَّه ربُّ العَالَمين، ومَعَ هَذَا أَقْدَما علىٰ دَعْوتِهِ، وبَيَان حقِّ الله عَلَيه، وأنَّ الواجبَ عَلَيه أَنْ يُنِيبَ إلىٰ الله، ولَكنَّه أَبَىٰ وَاسْتكْبَر، ثمَّ دَعَا إلىٰ ما دَعَا إليه من جَمْعِ السَّحَرة والسِّحْر إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ، حتَّىٰ أَبْطَلَ اللهُ كَيْدَه، وأَظْهَر عَجْزَه، ونَصَر مُوسَىٰ وهَارُونَ -عَلَيهما الصَّلاة والسَّلام- عَلَيه وعَلَىٰ سَحَرتِهِ، ثمَّ صَارَت العاقبةُ لَمَّا استمرَّ في الطُّغيانِ أَنْ أَغْرقَه اللهُ وجَمِيعَ جُنْدِهِ في البَحْر، وخَلَّص مُوسَىٰ وهَارُونَ ومَنْ مَعَهما من بَنِي إِسْرَائِيلَ.

هَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ البَالِغَةِ في انْتِقَامِ اللهِ مِنْ أَعْدائِهِ، ونَصْره لأوليائِهِ: رَجُلانِ لَيْس مَعَهما إِلَّا جماعةٌ مُسْتَعبدونَ لِفِرعونَ يُذَبِّح أَبْناءَهُمْ، ويَسْتحيي نِسَاءَهُمْ، ويَسُومُهم سُوءَ العَذَاب، يَقْدُمانِ علىٰ دَعْوة مَلِكٍ جَبَّارٍ، وبَيَان الحقِّ له، وإِنْكَار مَا هُوَ عَلَيه من البَاطِلِ، فيَحْمِيهِمَا اللهُ من ظُلْمِهِ وبَطْشِهِ، بَلْ ويُثبِّتهما ويُؤيِّدهما جَلَّ وَعَلا، ويُنْطِقُهُ بِمَا يُقِيمُ الحُجَّة عليه، ولهَذَا قَالَ في الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٤٩-٥٥].

وَالمَقْصودُ: أنَّ الرُّسُلَ -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- بيَّنوا الحقَّ، وأَوْضَحوه، وَبيَّنوا أَسْماءَ الرَّبِّ وصفاتِهِ الدَّالَّة عَلَىٰ قُدْرتِهِ العَظِيمَةِ، وَاسْتِحْقاقِهِ العِبَادَة، وأنَّهُ الخالقُ، المَالِكُ، الرَّازقُ، المُحْيي، المُمِيتُ، المُدبِّرُ لكلِّ شَيءٍ، جَلَّ وَعَلا، وبيَّنوا أَيْضًا عُلُوَّ الله وفَوقيَّته عَلَىٰ خَلْقه.

ولهَذَا قالَ فِرْعونُ لوَزِيره هَامَان: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦، ٣٧]، أَخْبَره أنَّ اللهَ فَوْقَ السَّمَاء جَلَّ وَعَلا، ولهَذَا أرادَ هَذَا الجَبَّار أَنْ يتطاولَ بهَذَا الكَلَام القَبِيحِ السَّاقط الَّذي لا قِيمَةَ لَهُ.

ومِنْ هَذَا ما ذَكَره اللهُ -جَلَّ وَعَلا- عَنْ عِيسَىٰ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- والحَوَاريِّينَ في سُورَة المَائِدَةِ حَيْث قَالَ سُبْحانَه: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة:١١٢-١١٥].

فَفِي هَذَا بيانُ شَيءٍ مِنْ قُدْرة الله جَلَّ وَعَلا، وأنَّه سُبْحانَه القَادِرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وأنَّهُ سُبْحانَه في العُلُوِّ، لأنَّ الإِنْزَالَ يَكُونُ من الأَعْلَىٰ إلَىٰ الأَسْفل، فإِنْزَال المَائِدَة وطَلَب إِنْزَالها، كلُّ ذَلِكَ دليلٌ عَلَىٰ أنَّ القومَ قَدْ عَرَفوا أَنَّ رَبَّهمْ في العُلُوِّ، فَهُمْ أَعْرفُ بالله، وأَعْلم به من الجَهميَّة وأَضْرَابهم مِمَّنْ أَنْكَر العُلُوَّ، فَالحَوَاريُّون طَلَبوا ذَلِكَ، وعِيسَىٰ بَيَّنَ لَهُم ذَلِكَ، واللهُ بَيَّن ذلك أيضًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا

عَلَيْكُمْ﴾، فدَلَّ ذَلِكَ على أَنَّ رَبَّنا -جَلَّ وَعَلا- يُطْلب من أَعْلىٰ، وأَنَّه في العُلُوِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْق السَّماواتِ، وفَوْق جَمِيعِ الخَلَائق، وفَوْق العَرْش، قَد اسْتَوىٰ عَلَيه اسْتِوَاءً يَلِيقُ بجَلَاله وعَظَمتِهِ، لَا يُشَابه خَلْقه في شيءٍ من صفاتِهِ جَلَّ وَعَلا.

وقَدْ دلَّ عَلَىٰ هَذَا المَعْنىٰ آياتٌ كثيراتٌ مُصرِّحةٌ بعُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقه، ومِنْ ذَلِكَ آياتُ الاسْتِوَاءِ السَّبع المَعْروفة الَّتي فِيهَا قَوْله سُبْحانَه في سُورَة الأَعْرَاف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤].

وَفِي هذِهِ الآية يُبيِّنُ عُلُوَّه، وأَنَّه الخَلَّاقُ الرَّزَّاقُ، وأَنَّه صَاحِبُ الخَلْق والأَمْر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنَّهُ الَّذي يُغْشِي اللَّيل النَّهار، وأَنَّهُ خالقُ الشَّمْسِ والقَمَرِ، وخَالِقُ النُّجُوم، ليَعْلَمَ العبادُ عَظِيمَ شَأْنِهِ، وكَمَالَ قُدْرته، وكمالَ عِلْمِهِ سُبْحانَه، وأَنَّه العَالِي فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، المُسْتحقُّ لأَنْ يُعْبدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن هَذَا الباب قَوْل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

فَانْظُرْ كَيْفَ بَيَّنَ هذِهِ الصِّفاتِ العَظِيمَةَ لله عَزَّوَجَلَّ الدَّاعية إلىٰ عبادتِهِ وَحْده، دون كلِّ ما سِوَاه، وأنَّه عَلَّامُ الغُيُوب، وأنَّهُ العزيزُ الحكيمُ، وأنَّه الرَّقيبُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، والشَّهيد عَلَيهم، وأنَّه يَعْلم ما فِي نَفْس نَبيِّه عِيسَىٰ، وعِيسَىٰ لَا يَعْلَمُ مَا في نفسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَفِي هَذَا أيضًا دلالةٌ علىٰ إِثْبَاتِ الصِّفاتِ، وأنَّ الأنبياءَ جَاؤوا بإِثْبَاتِ أَسْماءِ الله وصفاتِهِ علىٰ الوَجْه اللَّائِقِ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنَّه -جَلَّ وَعَلا- يُوصَف بأَنَّ له نفسًا تَلِيقُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تُشَابه نُفُوس المَخْلوقينَ، كَمَا أنَّه سُبْحانَه له وجهٌ، وَلَهُ يدٌ، وله قدمٌ، وله أَصَابع لا تُشَابه صِفَاتِ المَخْلوقينَ، جاءَ بَعْض هَذَا فِي الكِتَابِ العَزِيزِ، وجَاءَ في السُّنَّة المُطهَّرة ذِكْرُ الوَجْه، واليَدِ، والقَدَم، والأَصَابع، كلُّ ذَلِكَ دليلٌ عَلَىٰ أنَّه سُبْحانَه مَوصوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَال، وأنَّهُ لَا يَلْزم من ذَلِكَ مُشَابهتُهُ للخَلْق، ولهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنَفَىٰ عَنْ نفسِهِ المُمَاثلةَ، ثمَّ أَثْبتَ لنفسِهِ السَّمعَ والبَصَرَ، فدلَّ ذَلِكَ علىٰ أنَّ صفاتِهِ وأَسْماءَه لا شَبِيهَ لَهُ فيها، ولا مَثِيلَ له فيها، بَلْ هو -جَلَّ وَعَلا- الكاملُ فِي ذاتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، فهُوَ المُسْتحقُّ لِأَنْ يُعْبدَ ويُعظَّمَ جَلَّ وَعَلا.

أَمَّا المَخْلُوقونَ فَصِفَاتُهُمْ ضعيفةٌ وناقصةٌ، أمَّا هو -جَلَّ وَعَلا- فهُوَ الكاملُ فِي كُلِّ شيءٍ، فعِلْمُهُ كاملٌ، وصفاتُهُ كاملةٌ كُلُّها، ولا شكَّ أنَّ صفات المَخْلوقينَ لا تُمَاثِلِ صفاتِهِ أبدًا بوَجْهٍ من الوُجُوه، ولهَذَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [٤٦]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص] وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١].

فَأَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعة يُثْبتونَ مَا وَرَدَ في كِتَابِ الله، وما صَحَّ عَنْ رسول الله -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- مِنْ أَسْماءِ الله وصفاتِهِ علىٰ الوَجْه اللَّائق به جَلَّ وَعَلا، مِنْ غَيْر تحريفٍ، ولا تَعْطيلٍ، ولا تَكْييفٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا زيادةٍ، ولا نُقْصانٍ، بَلْ يُثْبتونها كَمَا جَاءَتْ، ويُمرُّونها كما جَاءَتْ مَعَ الإيمانِ بأنَّها حقٌّ، وأنَّها ثابتةٌ لله سُبْحانَه علىٰ الوَجْه اللَّائق بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يُشَابه فيه خَلْقه، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى:١١].

وهَذِهِ المَسَائل من مَسَائل التَّوْحيد، وَهِيَ من أَهمِّ المَسَائل، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيَّنَ في كتابِهِ العزيز أَسْماءَه وصِفَاتِهِ، وكَرَّر ذَلِكَ في مواضعَ كثيرةٍ حتَّىٰ يُعْرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعَظِيمِ أسمائِهِ، وعَظِيمِ صفاتِهِ، وعَظِيم أفعالِهِ جَلَّ وَعَلا، فأَفعالُهُ كلُّها جَميلةٌ، وأَسْماؤُهُ كلُّها حُسْنىٰ، وصفاتُهُ كلُّها عُلَا، وبذَلِكَ يَعْلم العبادُ رَبَّهُمْ وخَالِقَهمْ، فيَعْبدونَه عَلَىٰ بَصِيرةٍ، وَيُنِيبُونَ إِلَيْه عَلَىٰ عِلْمٍ، وأَنَّهُ يَسْمع دُعَاءَهمْ، ويُجِيبُ مُضطرَّهُمْ، وأَنَّهُ عَلَىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومِنْ هَذَا ما ذَكَره اللهُ -جَلَّ وَعَلا- عَنْ قَوْم مُوسَىٰ من بَنِي إِسْرَائيل لَمَّا عَبَدوا العِجْلَ أَوْضَح لهم سُبْحانَه فسادَ أَمْرهم، وبُطْلانَ ما فَعَلوه، فقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

فبَيَّنَ لنَا أنَّ الإِلَهَ المُسْتحقَّ للعِبَادَة يجبُ أَنْ يكونَ مُتكلِّمًا، وأَنْ يكونَ سميعًا

بصيرًا، وأَنْ يكونَ يَهْدي السَّبيل، وأَنْ يكونَ بَيِّنَ القُدْرة علىٰ كلِّ شيءٍ، والعِلْم لكلِّ شيءٍ، أمَّا عِجْل جَمَاد يُعْبَد من دون الله، فهَذَا من فَسَاد العُقُول: عِجْل لا يُجِيب الدَّاعي، ولا يُبيِّن كلامًا، ولا يردُّ جوابًا، ولا يَنفعُ، ولا يضرُّ، فكَيْفَ يُعْبد من دون الله.

وَفِي الآيَةِ الأَخِيرَةِ يَقُول جَلَّ وَعَلا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه:٨٩] أي: أَنَّهُ لَا يَرْجع لَهُمْ قولًا، ومَعْنىٰ «يَرْجع»: يردُّ، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٨٣]: رَدَّكَ الله، يعني أنَّ هَذَا العِجْلَ لا يردُّ قولًا لمَنْ كَلَّمه وخَاطَبه، ولا يَمْلك ضرًّا ولا نفعًا، فكَيْف تُصْرَف له العِبَادَة لَوْ كَانت العُقُولُ سليمةً؟!

وهَذَا المَعْنىٰ في كِتَابِ الله كثيرٌ جدًّا، يُبيِّنُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبادِهِ أَنَّه المُسْتحقُّ للعِبَادَة لكمالِهِ وقُدْرتِهِ العظيمة، وأَنَّهُ المالكُ لكلِّ شيءٍ والقَادِر علىٰ كلِّ شيءٍ، الَّذي يَسْمع دُعَاء الدَّاعين، ويَقْدر علىٰ قَضَاء حَاجَتهم، ويُجِيب مُضطرَّهُمْ، ويَمْلك الضُّرَّ والنَّفعَ، ويَهْدي مَنْ يشاء إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقَدْ بَعَثَ اللهُ نَبيَّنا مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَيِّدُ الخَلْق، وأَفْضَلُهمْ، وإِمَامُ المُرْسلينَ، بَعَثه بما بَعَث به المُرْسلينَ الأَوَّلينَ مِنْ تَوْحيد الله، والإِخْلَاص لَهُ، والدَّعوة إِلَىٰ ذَلِكَ، وبَيَان صفاتِهِ وأسمائِهِ، وأنَّه المُستحقُّ لأَنْ يُعْبد جَلَّ وَعَلا، فكَانَتْ دَعْوتُهُ دعوةً كاملةً، قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَأَنْزَلَ عَلَيه كتابًا عظيمًا، وَهُوَ أَشْرَف الكُتُبِ، وَأَعْظَمُها، وَأَنْفَعُها وأَعمُّها، بَيَّنَ فيه أَدلَّة التَّوحيدِ، وأَنَّهُ الرَّبُّ العظيمُ، القادرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ، المَالِكُ لكلِّ شيءٍ، النَّافعُ الضَّارُّ، وأَمَر نَبيَّه أَنْ يبلغ النَّاس ذَلِكَ في

آياتٍ كثيراتٍ، مَنْ تَدبَّر القرآنَ عَرَفها كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

فَأَمَر اللهُ نَبيَّه ﷺ أَنْ يحتجَّ عَلَيهم بِمَا أَقرُّوا بِهِ من أَفْعالِ الرَّبِّ وقُدْرتِهِ، وأنَّهُ يُحْيي ويُمِيتُ، وأنَّهُ المُدبِّرُ الرَّزَّاقُ عَلَىٰ ما جَحَدوا في تَوْحيد العِبَادَة وأَنْكَرُوهُ.

والمَعْنىٰ: إِذَا كُنْتُمْ مُقرِّين بأَنَّ هَذَا هُوَ رَبُّكُمْ الَّذي يَمْلك الضُّرَّ والنَّفعَ، ويُدبِّر الأُمُورَ، ويُحْيي ويُمِيت، ويَرْزق عِبَادَه، فكَيْف لا تَتْركون الإشراكَ بِهِ، وتَعْبدونه وَحْده دُونَ ما سِوَاهُ جَلَّ وَعَلا؟! ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ سُبْحانَه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤، ٨٥]، والآيَاتُ بَعْدَها.

فكلُّ هَذَا تَذْكيرٌ من الله لعبادِهِ عَلَىٰ يَدِ رَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ بعَظِيمِ حَقِّه، وبأَسْمائِهِ وصفاتِهِ، وأنَّهُ عَزَّوَجَلَّ المُسْتحقُّ لأَنْ يُعْبدَ لكَمَال قُدْرتِهِ، وكَمَال علمِهِ، وكَمَالِ إحسانِهِ، وأنَّه النَّافعُ الضَّارُّ، وهُوَ القادرُ عَلَىٰ كلِّ شَيءٍ، المُتفرِّد في أفعالِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ عَنِ المُشَابه والنَّظير جَلَّ وَعَلا.

ولَمَّا بَعَث اللهُ نَبيَّه مُحمَّدًا عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، بَدَأ دَعْوتَه بالتَّوْحيد، كالرُّسُل السَّابقين سَواءً، فقَالَ لقُرَيش: «يَا قَوْم، قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلحوا»[1].

(١) أخرجه أحمد (١٦٠٦٦) (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد الديلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هَكَذا بَدَأَهُمْ، ما أَمَرهم بالصَّلَاة، أو الزَّكَاة أَوَّلًا، أو تَرْك الخَمْر أو الزِّنا، أو شبه ذَلِكَ، لا، بَلْ بَدَأهم بالتَّوْحِيدِ؛ لأَنَّهُ الأساسُ، فإِذَا صَلُحَ الأساسُ، جَاءَ غيرُهُ بَعْد ذَلِكَ، فبَدَأَهُمْ بالأَسَاسِ العَظِيمِ وَهُوَ تَوْحيدُ الله، والإِخْلاصُ لَهُ، وَالإيمانُ بِهِ وبِرُسُلِهِ.

فأَسَاسُ المِلَّةِ وأَسَاسُ الدِّين في شَرِيعَةِ كلِّ رَسُولٍ: تَوْحيدُ الله، والإِخْلاصُ لَهُ، فتَوْحيدُ الله، وَالإِخْلاصُ هُوَ دِينُ جَمِيعِ المُرْسلينَ، وَهُوَ محلُّ دَعْوتهم جَمِيعًا، وزُبْدة رِسَالَتهم -عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام- كَمَا سَلَف.

ولَمَّا قالَ الرَّسُولُ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- لقومِهِ: «**قُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، اسْتَنكَروا ذَلِكَ، وَاسْتَغربُوهُ؛ لأَنَّه خلاف ما هُمْ عَلَيه وآبَاؤُهُمْ، فقَدْ سَارُوا عَلَىٰ الشِّرْك، وعِبَادَة الأَوْثانِ مِنْ دَهْرٍ طويل، بَعْدما غَيَّرَ عَلَيهم دِينَهُمْ عَمْرُو بنُ لُحَيٍّ الخُزاعيُّ الَّذي كان رئيسًا في مَكَّة، فيُقَال: إِنَّهُ سَافر إِلَىٰ الشَّام، ووَجَد النَّاسَ يَعْبدونَ الأَصْنامَ هُنَاك، فجَاءَ إِلَىٰ مَكَّة، ودَعَا النَّاسَ إلىٰ عِبَادَة الأَصْنام تَقْليدًا للكُفَّار هُنَاك، ويُقَال: إِنَّه قِيلَ لَهُ: إيت جدَّة، تجد فيها أَصْنامًا مُعدَّة، فخُذْها ولا تَهَبْ، وادْعُ العَرَبْ إلىٰ عِبَادَتها تُجَبْ[(١)].

فَاسْتَخرجها ونَشَرها بَيْنَ العَرَب، فعَبَدوها، وَهِيَ: «وَدٌّ، وسُوَاعٌ، ويَغُوثُ، ويَعُوقُ، ونَسْرٌ»، الَّتي كَانَتْ مَعْبودةً في قَوْم نوحٍ، فَاشْتهرَتْ بَيْنَ العَرَب، وعُبِدَتْ من دُونِ الله، بسَبَب عَمْرو بن لُحيٍّ المَذْكور[(٢)]، ثمَّ أَوْجَدوا أَصْنامًا وأَوْثانًا

---

(١) انظر «المنمق في أخبار قريش»، لمحمد بن حبيب البغدادي، (ص ٣٢٧).

(٢) لذلك قال النبي ﷺ عنه: «**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ بن قَمْعَةَ بن خِنْدِفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ، يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ**»، أخرجه مسلم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. والقصب: الأمعاء.

أُخرىٰ في سَائِرِ القَبَائل يَعْبدونَها مَعَ الله، يَسْألونَها قَضَاء الحَوَائج، ويَجْعلونها آلهةً مَعَ الله، ويَتقرَّبونَ إِلَيْها بأَنْوَاع القُرُباتِ؛ كالذَّبْح، وَالنَّذْر، والدَّعَوات، وَالتَّمسُّح، وغَيْر ذَلِكَ.

ومِنْ ذَلِكَ «العُزَّىٰ» لأَهْل مَكَّة، و«مَنَاة» لأَهْل المدينة ومَنْ حَوْلَهم، و«اللَّات» لأَهْل الطَّائف ومَنْ حَوْلهم، إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ من الأَوْثَانِ والأَصْنَام الكَثِيرَةِ في العَرَب، فلَمَّا دَعَاهم هذا النَّبِيُّ الكريمُ رَسُولنا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- إلىٰ تَوْحيد الله، وتَرْك آلهتهم، أَنْكَروا عَلَيه ذَلِكَ، وَقَالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥]، وَقَالَ -جَلَّ وَعَلا- عَنْهم في سُورَة الصَّافَّات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦].

فَانْظُرْ -يَا أَخِي- كَيْفَ غَلَب عَلَيهم الجَهْلُ حتَّىٰ جَعَلوا الدَّعوةَ إِلَىٰ تَوْحيد الله أمرًا عُجَابًا، وَاستَكْبروا عَنْه، وَاسْتَغْربوه، وعَادَوْا مَنْ دَعَاهم إليه حتَّىٰ قَاتَلوه، وَانْتَهىٰ الأمرُ أَنْ أَجْمَعوا رَأْيَهم علىٰ قتلِهِ، فَأَنْجَاه اللهُ مِنْ مَكْرِهِمْ، وهَاجَر مِنْ بَيْنِ أَظْهرِهِمْ إِلَىٰ المَدِينَةِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، ثمَّ حَاوَلوا قَتْله -أيضًا- يَوْم بدرٍ، فَلَمْ يُفْلحوا، وحَاوَلوا ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ بأَشدَّ مِمَّا قَبْل، فكَفَاه اللهُ مَكْرَهُمْ وكَيْدهم، ثُمَّ حَاوَلوا يَوْمَ الأَحْزاب اسْتِئْصالَ الدَّعْوة، والقَضَاءَ عَلَىٰ الرَّسُول وأَصْحابِهِ، فأَبْطل اللهُ كَيْدَهُمْ، وفَرَّق شَمْلَهم، وأَنْجَاه اللهُ من شَرِّهِمْ ومَكَائِدِهِمْ، ونَصَر دِينَهُ، وأَيَّد دَعْوتَه، وأَعَانه عَلَىٰ جِهَادِ أَعْدَائِهِ حتَّىٰ أَقرَّ اللهُ عَيْنَه قَبْل وفاتِهِ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- بِانْتِصَارِ دِينِ الله، وظُهُور الحقِّ، وَانْتِشَار التَّوْحيد في الأَرْض، والقَضَاء عَلَىٰ الأَوْثَان والأَصْنَام، بَعْدما فَتَح اللهُ عَلَيه مَكَّة في السَّنَة الثَّامنة من الهِجْرَةِ في رَمَضان، ودَخَل النَّاس بَعْد ذَلِكَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجًا بسَبَب

فَتْح الله عَلَيه مَكَّة، ودُخُول قُرَيش في الإِسْلامِ، ثمَّ تَتَابعَتِ العربُ في الدُّخُول في دِينِ الله وقَبُول ما دَعَا إليه عليه أَفْضَلُ الصَّلاة والسَّلام، مِنْ تَوْحيدِ الله والإِخْلَاص له جَلَّ وَعَلا، والتَّمسُّك بشَريعتِهِ ﷺ.

والمَقْصودُ: أَنَّ رَسُولَنا ونَبِيَّنا مُحمَّدًا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- دَعَا إِلَىٰ ما دَعَتْ إِلَيْه الرُّسُلُ قَبْله من نُوحٍ ومَنْ بَعْده، إِلىٰ تَوْحيد الله والإِخْلَاص لَهُ، وتَرْك عبادة مَا سِوَاهُ، هذِهِ أَوَّلُ دَعْوتِهِ، وهذِهِ زُبْدتها، وَهِيَ أَهَمُّ واجبٍ، وأَوَّلُ واجبٍ، وأَعْظَمُ واجبٍ، وكانَ بَنُو آدمَ عَلَىٰ التَّوحيد مِنْ عَهْد آدمَ إِلىٰ عَهْد نُوحٍ عليه السلام، عَشْرةَ قُرُونٍ، كَمَا قال ابْنُ عَبَّاسٍ[1] وجَمَاعتُهُ، فلمَّا اخْتَلفوا بسَبَب الشِّرْك الَّذي وَقَع في قَوْم نوحٍ، بَعَث اللهُ الرُّسُلَ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣].

المَعْنىٰ: كانَ النَّاس أُمَّةً واحدةً علىٰ التَّوْحيد والإِيمَانِ، فَاخْتَلفوا بَعْد ذَلِكَ، كَمَا قَالَ في آيةٍ أُخرىٰ في سُورَة يُونُس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس:١٩].

فالمَعْنىٰ: أَنَّهم كَانُوا عَلَىٰ التَّوْحيد والإِيمَانِ، هَذَا هو القَوْل الحقُّ، ثمَّ اخْتَلفوا بَعْد ذَلِكَ بَيْنهُمْ بسَبَب دَعْوة الشَّيطانِ إِلىٰ عِبَادَة وَدٍّ، وسُواعٍ، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسْرٍ.

فَلَمَّا وَقَع الشِّرْكُ في قَوْم نوحٍ بسَبَب غُلوِّهِمْ في الصَّالحينَ، وتَزْيين الشَّيطان

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه، فكانوا أُمَّة واحدة»، وصححه الألباني في «تحذير الساجد» (ص١٤٧-١٥٠).

لَهُمْ عِبَادَتَهمْ من دُونِ الله، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهم نُوحًا عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، فدَعَاهم إلىٰ تَوْحيد اللهِ، والإِخْلاصِ لَهُ، وتَرْك عِبَادَة ما سِوَاهُ جَلَّ وَعَلا.

فكَانَ نُوحٌ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَله اللهُ إلىٰ أَهْل الأَرْض بَعْدما وَقَع الشِّرْك فِيهَا.

أَمَّا آدمُ فَجَاءتْ أحاديثُ ضعيفةٌ تدلُّ علىٰ أنَّه نبيٌّ ورسولٌ مُكلَّمٌ، لكنَّها لا يُعْتَمد عَلَيها لِضَعْف أَسَانِيدِهَا.

ولا شَكَّ أنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْه بشَرْعٍ، وأنَّهُ علىٰ شَرِيعَةٍ من رَبِّه عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وكَانَتْ ذُرِّيَّتُه علىٰ شريعتِهِ، وعلىٰ تَوْحيدِ الله، والإِخْلاصِ له، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بعَشْرة قُرُونٍ، أو مَا شَاءَ اللهُ من ذَلِكَ، وَقَع الشِّرْك في قومِ نوحٍ في وَدٍّ، وسُوَاعٍ، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسْرٍ، كَمَا تَقدَّم.

وقَدْ جَاءَ في الآثَارِ المَشْهورة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وغَيْره، «أَنَّ وَدًّا، وسُواعًا، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، ونَسْرًا، كَانُوا رِجَالًا صَالِحِينَ، فلَمَّا هَلَكوا أَوْحىٰ الشَّيطانُ إِلَىٰ قَوْمهم أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالسهم أَنْصابًا، وسَمُّوها بأَسْمَائهم؛ ففَعَلوا، ولَمْ تُعْبد، حتَّىٰ إذا هَلَكَ أُولَئك، وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ من دُونِ الله عَزَّوَجَلَّ»(١).

أَيْ: لَمَّا ذَهَب العِلْمُ، وقَلَّ العُلَماءُ المُتبصِّرونَ، جَاءَ الشَّيطانُ إِلَىٰ النَّاس، فَقَال لَهُم: إِنَّ هذِهِ الأَصْنامَ إنَّما صُوِّرت لأَنَّها كانت تَنْفع، وَكَانتْ تُدْعىٰ، ويُسْتغاث بها، ويُسْتَسْقىٰ بِهَا، فوَقَع الشِّرْك في النَّاس بسَبَب ذَلِكَ.

وبِهَذَا يُعْلم أنَّ نُوحًا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- أَوَّلُ رسولٍ أَرْسَله اللهُ إلىٰ أَهْل

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

الأَرْض، بَعْد وُقُوع الشِّرْك فِيهَا، كَمَا جَاءَ في «الصَّحِيحَينِ»، وغَيْرهما من أَنَّ أَهْل المَوْقف يومَ القِيَامَة يَقُولُون: «**يَا نوحُ، أنتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَله اللهُ إلىٰ أَهْل الأَرْض، فَاشْفَع لَنَا إلىٰ رَبِّك**»، الحديث[1].

أَمَّا آدمُ فَقَد ثَبتَتْ نُبوَّتُهُ قَبْل ذلك -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- بدَلَائل أُخْرىٰ، وجاءَ في حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عِنْدَ أَبِي حَاتِم بْنِ حِبَّان وغَيْره أَنَّه سأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرُّسُل، وعَنِ الأَنْبياءِ، فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الأنبياءُ مئةٌ وأَرْبَعةٌ وعِشْرونَ أَلْفًا، والرُّسُل ثلاثُ مئةٍ وثَلَاثة عَشَر**»[2].

وَفِي رِوَايةِ أَبِي أُمَامة: «**ثَلَاث مئةٍ وخَمْسةَ عَشَرَ**»، ولكنَّهما حَدِيثَانِ ضَعِيفَانِ عِنْدَ أَهْل العِلْمِ، ولَهُما شَوَاهد، وَلكنَّها ضعيفةٌ أيضًا، كَمَا ذكرنا آنفًا، وَفِي بَعْضها أَنَّهُ قالَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «**أَلْف نبيٍّ فأَكْثر**»[3]، وفي بَعْضها: «**أَنَّ الأنبياءَ ثَلَاثة آلافٍ**»، وجميعُ الأَحَاديث في هَذَا الباب ضعيفةٌ، بَلْ عدَّ ابْنُ الجَوْزيِّ حديثَ أبي ذرٍّ من المَوْضوعاتِ.

والمَقْصود: أَنَّه لَيْسَ في عَدَد الأنبياءِ والرُّسُلِ خبرٌ يُعْتمد عَلَيه، فَلَا يَعْلم عَددَهم إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنَّهم جمٌّ غفيرٌ، قصَّ الله عَلَينا أخبارَ بَعْضهم، ولَمْ يقصَّ عَلَينا أخبارَ البَعْض الآخر، لحكمتِهِ البالغةِ جَلَّ وَعَلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٦) (٣٦١)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٦٠٩٠) وقال: «لكن عدد الرسل صحيح؛ جاء من طريق أخرىٰ عن أبي أمامة بسند صحيح، وعدد الأنبياء صحيح لغيره، وقد حققت ذلك كله في «الصحيحة» (٢٦٦٨)».

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٧)، وأحمد (٣/ ٧٩)، والبزار (٤/ ١٣٥/ ٣٣٨٠) من طريق مُجالد عن أبي الودَّاك، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٦٠٩٠).

والفَائِدَةُ العُظْمىٰ: أَنْ نَعْرفَ أَنَّهُمْ جَمِيعهم دَعَوْا إلىٰ تَوْحيد الله، والإخْلاصِ لَهُ ﷻ، وأنَّهم دَعَوا أُمَمهمْ إلىٰ ذَلِكَ، فمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ هذِهِ الدَّعوة، ومِنْهم مَنْ رَدَّها، ومِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَتَّبعه إلَّا القليلُ، ومِنْهم مَنْ لم يُجِبْهُ أحدٌ بالكُليَّة كَمَا أَخْبرَ بذلك نَبيُّنا مُحمَّدٌ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام.

ونَبيُّنا وهُوَ خَاتَمهم وأَفْضَلهم -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- قَدْ عُلِمَ ما جَرىٰ له مَعَ قَوْمه من الخُصُومة والنِّزاع في مَكَّة المُكرَّمة، وقَدْ أُوذِيَ كَثِيرًا هُوَ وأصحابُهُ حتَّىٰ أَجْمَعوا عَلَىٰ قَتْلِهِ، فأَنْجَاه اللهُ من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وفي المَدِينَةِ جَرَىٰ ما جَرَىٰ من الغَزَواتِ والجِهَادِ العَظِيمِ حتَّىٰ نَصَره اللهُ وأَيَّده عَلَيهم، عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وبذَلِكَ يَتَّضح للجَمِيعِ أَنَّ دَعْوة الرُّسُل جَمِيعِهِمْ هِيَ دَعْوةٌ إلىٰ تَوْحيد الله، والإخْلَاص له، وأنَّ الأَنْبيَاء جَمِيعًا، والمُرْسلين كُلَّهم دَعَوا إلىٰ تَوْحيد الله، والإخْلَاص له، وَالإيمَانِ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وأنَّه سُبْحانَه واحدٌ في رُبُوبيَّته، واحدٌ في أسمائِهِ وصفاتِهِ، واحدٌ في استحقاقِهِ العِبادَةَ دُون كلِّ ما سِوَاه جَلَّ وَعَلا، فلا يَسْتحقُّها غَيْره، لا نبيٌّ، ولا ملكٌ، ولا صالحٌ، ولا غَيْرهم من المَخْلوقاتِ.

فَالعِبَادَةُ حقُّ الله جَلَّ وَعَلا، ولَهَا خَلَق الخَلْقَ ﷻ، وبِهَا أَرْسَل الرُّسُلَ كَمَا قالَ ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فَلِعِبَادَة الله وتَوْحيده خُلِقَتِ الخليقةُ، وأُرْسِلَتِ الرُّسُلُ، وأُنْزِلَتِ الكُتُبُ، كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ

إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [هود:١-٢]، وَقَالَ سُبْحَانَه: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢].

وَقَدْ أبانَ اللهُ سُبْحانَهُ في كِتَابِهِ العزيز من آياتِهِ ومَخْلوقاتِهِ ما يدلُّ علىٰ قدرتِهِ العَظيمَة، وأُلُوهيَّته ورُبُوبيَّته، وأنَّهُ المُسْتحقُّ لِلعِبادَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومَنْ تَدبَّر كتابَ الله ومَخْلوقاتِهِ، وَجَد من الآياتِ المَتلوَّة والحِسِّيَّة، والأَخْبارِ المَنْقُولَة، ما يدلُّ علىٰ أنَّه سُبْحانَه المُسْتحقُّ للعِبادَةِ جَلَّ وَعَلا، وأنَّ الرُّسُلَ كُلَّهم بَلَّغوا ذَلِكَ، ودَعَوْا إليه، وأنَّ الشِّرْكَ الَّذي وَقَع في قَوْم نوحٍ لَمْ يَزَلْ في النَّاس إلىٰ يَوْمنا هَذَا، فلَمْ يَزَل في النَّاس مَنْ يَعْبد الأصنامَ والأوثانَ، ويَغْلو في الصَّالِحِينَ والأَنْبياءِ، يَعْبدهم مَعَ الله، كَمَا هو معلومٌ عند كلِّ مَنْ نَظَر في أَخْبارِ العَالَم من عَهْد نُوحٍ إلىٰ يَوْمنا هَذَا.

وبِمَا ذكرنا من كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ، ومِنْ كَلَام رسولِهِ مُحمَّدٍ، عَلَيه أَفْضل الصَّلاة، وأَزْكىٰ التَّسليم، ومِنْ وَاقِع العَالَم يَتَّضح أنَّ التَّوحيدَ أقسامٌ، وقَدْ عَرَف ذَلِكَ أَهْلُ العِلْمِ بالاسْتِقْرَاء لِكِتَابِ الله، وسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام.

فهو أقسامٌ ثلاثة:

توحيد الربوبية: وَهُو الإيمانُ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ واحدٌ في أفعالِهِ، وخَلْقه وتَدْبيره لعبادِهِ، وأنَّه المُتصرِّف في عبادِهِ كَمَا شاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بعلمِهِ وقدرتِهِ جَلَّ وَعَلا.

والثاني: تَوْحيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَوْصوفٌ بالأَسْمَاءِ الحُسْنىٰ والصِّفات العُلَىٰ، وأنَّه كاملٌ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ جَلَّ وَعَلا، وأنَّه لا شَبِيهَ له، ولا نَظِيرَ لَهُ، ولا نِدَّ له عَزَّ وَجَلَّ.

الثالث: تَوْحيدُ العِبادَةِ، وأنَّه يَستحقُّ ﷻ أنْ يُعْبد وَحْده لا شريكَ لَهُ، دون ما سِوَاهُ جَلَّ وَعَلا، وَإِنْ شِئْتَ قلتَ: تَوْحيدُ الله ﷻ: هُوَ الإيمانُ بأنَّه ربُّ الجَمِيع، وخالقُ الجَمِيع، ورازقُ الجَمِيع، وأنَّه لا شريكَ لَهُ في جَمِيع أَفْعالِهِ ﷻ، لَا شريكَ لَهُ في خَلْقِهِ ورزقِهِ للعِبادِ، لا شريكَ له في تَدْبير الأُمُور، وهُوَ المالكُ لكلِّ شيءٍ جَلَّ وَعَلا، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:١٢٠]، فهُوَ المالكُ لكلِّ شَيءٍ، والمُتصرِّف في كلِّ شيءٍ جَلَّ وَعَلا، لَهُ الأَمْر كلُّه، ولَهُ الخَلْق كلُّه، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤]، وَهُوَ المَوْصوفُ بصِفَاتِ الكَمَال، والمُسمَّىٰ بالأَسْماءِ الحُسْنىٰ، فَلَا شَبِيهَ له من خَلْقه في شيءٍ، بَلْ هُوَ الكاملُ في ذاتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وهُوَ المستحقُّ أن يُعْبدَ ويُخصَّ بالعِبادَةِ؛ من الدُّعَاءِ، والخَوْفِ، والرَّجَاءِ، والتَّوكُّل، والرَّغبَة، والرَّهبَةِ، والصَّلاةِ، والصَّوم، والذَّبح، والنَّذْر، وغَيْر ذَٰلِكَ.

هَذَا كلُّه داخلٌ في مُسمَّىٰ التَّوحيد، تَوْحيد الله ﷻ، تَوْحيد الأَنْبياءِ والمُرْسلينَ.

وهُوَ التَّوحيدُ الَّذي جاءَ بِهِ خَاتَمهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وإِمَامُهم نَبيُّنا مُحمَّدٌ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام.

ويُمْكن أَنْ نَأْتي بعبارةٍ أُخرى، فنَقُول: تَوْحيدُ الله الَّذي جَاءَتْ به الرُّسُلُ جَمِيعُهُمْ يَنْقسم إلى قِسْمَين:

تَوْحيدُ المَعْرفة والإِثْبَات، فمَعْناه: الإِيمَانُ بأَسْماءِ الله، وصفاتِهِ، وذاتِهِ جَلَّ

وَعَلا، وخَلْقه لِلعِبَادِ، ورِزْقه لَهُمْ، وتَدْبيره لِشُؤُونِهِمْ ﷻ، هَذَا هو التَّوحيدُ في المَعْرفة والإِثْباتِ: أَنْ تُؤمِنَ وتُصدِّقَ بأنَّ الله سُبْحانَه واحدٌ في رُبُوبيَّتِهِ، واحدٌ في أسمائِهِ، وصفاتِهِ، وتَدْبيره لعِبادِهِ، وهُوَ الخالقُ لَهُمْ، والرَّازقُ لَهُمْ، والمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الكَمَال، المُنزَّه عن النَّقْصِ والعَيْبِ، لا شريكَ لَهُ في ذَلِكَ، ولا شبيهَ لَهُ، ولا نِدَّ له جَلَّ وَعَلا.

والقسم الثاني: توحيد القصد والطلب: وهُوَ إفرادُ الله سُبْحانَه في قَصْدك، وطَلَبك، وصَلَاتك، وصَوْمك، وسَائِرِ عِبَادَاتِكَ، لَا تَقْصد بها إِلَّا وَجْهه جَلَّ وَعَلا، وهَكَذا صَدَقاتُك، وسَائِرُ أَعْمالِك الَّتي تَتقرَّب بها، لا تَقْصد بها إِلَّا وَجْهه جَلَّ وَعَلا، فَلَا تَدْعو إِلَّا إِيَّاه، ولا تَنْذر إِلَّا له، ولا تَتقرَّب بأَنْوَاع القُرُباتِ إِلَّا له سُبْحانَه، ولا تَطْلب شفاءَ المَرْضىٰ والنَّصرَ عَلَىٰ الأَعْداءِ إِلَّا مِنْهُ عَزَّوَجَلَّ، تُوحِّدُهُ في كلِّ ذلك.

فهذِهِ أَنْوَاعُ التَّوحيد، لَكَ أن تُعبِّر عَنْها بنَوْعينِ، ولَكَ أن تُعبِّر عَنْها بثلاثةِ أَنْوَاعٍ، ولَكَ أن تُعبِّر عَنْها بنوعٍ واحدٍ كَمَا تَقدَّم فيما ذَكَرنا آنفًا، ولا مُشاحَّة في الاصْطِلاحِ والتَّعْبير، وإنَّما المَقْصودُ أَنْ نعرفَ ما هو التَّوْحيد الَّذي بَعَثَ اللهُ به الرُّسُلَ، وأَنْزلَ به الكُتُبَ، ووَقَعتْ فيه الخُصُومةُ بَيْنَ الرُّسُل وأُمَمِهِمْ، وهُوَ تَوْحيدُ العِبادَةِ.

أمَّا كونُهُ سُبْحانَه ربَّ الجَمِيعِ، وخالقَ الخَلْق وَرَازِقَهمْ، وأنَّه كاملٌ في ذاتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وأنَّه لا شَبيهَ لَهُ، ولا ندَّ له، ولا مثيلَ له، فهَذَا لَمْ يَقَعْ فيه الخلافُ بَيْنَ الرُّسُل والأُمَم، بَلْ جَمِيعُ المُشْركينَ من قُرَيش وغَيْرهم مُقرُّون

به، وما وَقَع من إنكارِ فِرْعونَ وادِّعائِهِ الرُّبُوبيَّة فمُكَابرةٌ، يَعلَمُ في نَفسِهِ أنَّه مُبْطلٌ، كَمَا قالَ له مُوسَىٰ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وَقَالَ سُبْحانَه فِيهِ وَفِي أَمْثالِهِ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام:٣٣].

وَهَكَذا مَا ادَّعَتْهُ الثَّنَويَّة من إِلَهيَّة النُّور والظُّلْمة(١)، فمُكَابرةٌ أيضًا، وهُمْ مع ذَلِكَ لَمْ يَقُولوا: إنَّهما مُتَساويانِ، فلَيْس في العَالَم مَنْ يَقُول: إنَّ هُنَاك إِلَهَين مُتَساويين في التَّصرُّف والتَّدْبير.

وأَمَّا إنكارُ المَلَاحِدة لرَبِّ العَالَمين كُليًّا، وإِنْكَارهم للآخرة، فلَيْسَ هَذَا بمُسْتغرَبٍ من أَعْداءِ الله؛ لفَسَاد عُقُولهمْ بِسَبَب اسْتِيلَاءِ الشَّيَاطين عَلَيهم حتَّىٰ اجْتَالتهُمْ عَنْ فِطْرةِ اللهِ الَّتي فَطَر عَلَيها النَّاس.

وَهَؤُلَاءِ المَلَاحدة، وإِنْ أَنْكَروا بأَلْسِنَتِهِمْ فقُلُوبهم تقرُّ بذَلِكَ، كَمَا أقر بِذَلِكَ الجَمَاداتُ وكلُّ شيءٍ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٤]، وقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية [الحج:٧٠].

---

(١) سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يقولون بوجود إلهين اثنين للكون؛ إله للخير، وإله للشر، ويَرمزون لهما بالنُّور والظلام.

والمَقْصودُ: أَنَّ مَنْ أَنْكر ربَّ العَالَمين من الكَفَرة المُجْرمينَ، فهُوَ في الحَقِيقَةِ مُكَابرٌ لفطرتِهِ وعَقْله، فَإِنَّ الفِطْرةَ والعَقْلَ يَشْهدانِ بوُجُودِ رَبٍّ مُتصرِّفٍ في الكون، مُدبِّرٍ للعِبَادِ، لَا شبيهَ لَهُ، ولَا شريكَ لَهُ، ولا ندَّ له، سُبْحَانَه وتَعَالىٰ عمَّا يَقُول الظَّالمونَ عُلوًّا كبيرًا.

ولهَذَا قُلْنا: إنَّ المُشْركينَ قَدْ أَقرُّوا بتَوْحيد الرُّبُوبيَّة، والأَسْماءِ والصِّفات، ولَمْ يُنْكروا ذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ يَعْلمون أَنَّ الله -جَلَّ وَعَلا- خالقُ العِبَادِ، وَرَازقُهُمْ، ومُدبِّرُ أُمُورهِمْ، مُنْزل المَطَر، المُحْيي المُمِيت، الرَّزَّاقُ للعِباد، وغَيْر ذَلِكَ كما تَقدَّم بيانُهُ.

فالوَاجِبُ عَلَيك يا عَبْد الله: إذا عَرفْتَ ما تَقدَّم أَنْ تبذلَ وُسْعَك في بَيَانِ هَذَا الأَصْل الأَصِيلِ، ونَشْره بَيْنَ النَّاس، وإِيضَاحِهِ للخَلْق حتَّىٰ يَعْلمه مَن جَهِلَهُ، وحتَّىٰ يَعبُدَ اللهَ وَحْده مَنْ أَشْرَكَ به، وخَالَف أَمْرَه، وحتَّىٰ تكونَ بذَلِكَ قَدِ اتَّبعْت الرُّسُلَ، وسِرْتَ عَلَىٰ مِنْهاجِهِمْ في الدَّعوة إلىٰ الله؛ أداءً للأَمَانة الَّتي حَمَلتها، فَيكُون لَكَ مِثْلُ أُجُور مَنْ هَدَاه اللهُ عَلَىٰ يَدَيك إلىٰ يَوْم القِيَامَة، كَمَا قالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨]، وَقَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وَقَالَ النَّبيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحيح: «مَنْ دَلَّ عَلَىٰ خَيرٍ فَلَه مِثْل أَجْر



فاعلِهِ»، رَوَاه مسلمٌ في «صَحِيحِهِ»(١).

وقَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَه إلىٰ خَيْبر: «فوَاللهِ، لأَنْ يَهْدي اللهُ بِكَ رَجُلًا واحدًا خَيْرٌ لَكَ من حُمْر النَّعَمِ(٢)»؛ مُتَّفقٌ علىٰ صِحَّتِهِ(٣).

هَذَا، وأَسْأَلُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوفِّقنا جميعًا للفِقْهِ في دينِهِ، وَالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ ما يُرْضيه، وأَنْ يُعِيذَنا جميعًا مِنْ أَسْبابِ غَضَبه، ومِنْ مُضلَّات الفِتَنِ.

كَمَا أسأَلُهُ سُبْحانَه أَنْ يَنْصرَ دِينَه، ويُعْلي كَلِمَتَه، وأَنْ يُصْلحَ أَحْوالَ المُسْلمينَ، ويُولِّي عَلَيهم خِيَارَهمْ؛ إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جوادٌ كريمٌ.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمين، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم على عبدِهِ ورَسُولِهِ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ
وعَلَى آلِهِ وأصحابِهِ والتَّابِعِينَ لَهُمْ بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّين



(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، وأبو داود (٥١٢٩)، والترمذي (٢٦٧١) عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) حُمر النعم: الإبل الحمراء، وكانت أعجب الأموال، وأحبها إلىٰ العرب.
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) وجوب الاعتصام بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ والتحذير مما يخالفهما

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمين، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ عبدِهِ ورسولِهِ وأمينِهِ علىٰ وَحْيه، وصفوتِهِ من خَلْقِهِ، نَبِيِّنا وإمَامنا وسَيِّدنا مُحمَّد بن عبد الله، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ سَلَكَ سَبِيلَه، واهْتَدىٰ بهُدَاه إلىٰ يَوْم الدِّين.

أما بعد:

فإِنَّ اللهَ عز وجل بَعَث نَبيَّه ﷺ بالهُدَىٰ ودين الحقِّ، كما قالَ سُبْحانه في سُورَتي التَّوبة والصَّفِّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٣٣]، وقَالَ في سُورَة الفَتْح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح:٢٨].

قَالَ عُلَماء التَّفسير رَحِمَهم الله: الهُدَىٰ: هُوَ ما بَعَثَ اللهُ به نَبيَّه ﷺ من العُلُوم النَّافعة، والأَخْبار الصَّادقة، ودينُ الحقِّ: هو ما بَعَثه اللهُ به من الأَعْمال الصَّالحة، والأَحْكَام العادلة.

وقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانه أنَّ الإيمانَ بمَا بَعَث به نَبيَّه ﷺ من الهُدىٰ ودِين الحقِّ،

والعَمَل بذَلِكَ، هُوَ الصِّراط المُسْتقيمُ الَّذي مَنْ سَارَ عليه، واسْتقَام عَلَيه، وَصَل إلىٰ شاطِئِ السَّلَامة، وفَازَ بالجَنَّة والكَرَامة، ومَنْ حَادَ عنه، واتَّبعَ هَوَاه، باءَ بالصَّفقة الخاسرة، وسُوءِ المَصِير.

وقَدْ أَمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ جميعَ العِبَادِ باتِّباع الصِّراط المُسْتقيم، ونَهاهُمْ عن اتِّباع السُّبُل الَّتي تُفْضِي بِهِمْ إلىٰ صِرَاطِ الجَحِيمِ؛ فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة الأَنْعَام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

وأَشَارَ بقولِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾، إلىٰ ما سَبَق أَنْ أمر نَبيَّه ﷺ أَنْ يتلوه علىٰ النَّاس، ويُبيِّنه لهم، ليَعْقلوا ويَتذكَّروا، وذَلِكَ في قولِهِ سُبْحَانه: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥١، ١٥٢].

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ الآية [الأنعام:١٥٣].

فبين عَزَّوَجَلَّ بهذا: أنَّ امْتِثَالَ هذِهِ الأَوَامر والنَّوَاهي، هو الصِّراطُ المُسْتَقيمُ الَّذي أَمَر باتِّباعِهِ، وبَدَأها سُبْحانَه بالتَّحْذير من الشِّرْكِ وبَيَان تَحْريمه علىٰ الأُمَّة، وذَلِكَ لأَنَّه أَعْظمُ الذُّنُوب وأَشْهَر الجَرَائم، ولأنَّ ضدَّه -وهُوَ التَّوحيدُ- هُوَ أَعْظمُ الفَرَائض، وأَهمُّ الواجباتِ، وذَلِكَ هُوَ أَساسُ المِلَّةِ، وقَاعِدَةُ الصِّراط

المُسْتقيم، وهُوَ الَّذي بَعَث اللهُ به جميعَ الرُّسُل، وأنزلَ بِهِ جميعَ الكُتُب، وخَلَق من أجلِهِ الثَّقَلين، كَمَا قالَ سُبْحَانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقَدْ أَمَر اللهُ عِبادَه بذَلِكَ في مَوَاضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ، وعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ مُحمَّدٍ ﷺ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة:٢١]، وَقَالَ سُبْحَانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وأَرْشَد عِبادَه في سُورَة الفاتحة أَنْ يُقرُّوا بذَلِكَ لله سُبْحَانه، فقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٢-٥]، وَالآياتُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

وفي «الصَّحيحينِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لمُعَاذٍ: «**أَتَدْري ما حقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ ومَا حقُّ العِبَادِ علىٰ الله؟**»، قالَ معاذٌ: قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ، فقَالَ ﷺ: «**حقُّ اللهِ علىٰ العبادِ أَنْ يَعْبدُوه ولا يُشْركوا به شَيْئًا**»، الحديث(١).

وقَالَ ﷺ: «**مَنْ ماتَ وَهُو يَدْعو لله نِدًّا، دَخَل النَّارَ**»، خَرَّجه البخاريُّ في «صحيحِهِ»(٢)، والأحاديثُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٩٧) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهَذَا هُوَ مَعْنىٰ «لا إِلَهَ إِلَّا الله»، فإِنَّ مَعْناها: لَا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، فهِيَ تَنْفي جميعَ أَنْواعِ العِبَادَة عَنْ غير الله، وتُثْبتهَا بحقٍّ لله وَحْده، كَمَا قالَ اللهُ سُبْحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

ثمَّ ذَكَر سُبْحانه حقَّ الوَالِدَيْنِ، وهُوَ الإحسانُ إِلَيْهما، وعَدَم عُقُوقِهما، ثمَّ نَهَىٰ عن قَتْلِ الأَوْلاد من أَجْل الإِمْلاقِ، وهُوَ الفَقْر، وأَخْبر أَنَّهُ سُبْحانه هُوَ الَّذي يَرْزق الوَالِدَيْنِ والأَوْلادَ.

وكانَ من عَادَة بَعْض أَهْلِ الجَاهليَّة قَتْلُ أَوْلادِهِمْ خشيةَ الفَقْر، فنَهَىٰ عِبادَه عَنْ فِعْلِ ذلك؛ لِمَا فيه مِنَ الظُّلْم والعُدْوان وسُوءِ الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ نَهَىٰ عن قُرْبانِ الفَوَاحش؛ ظَاهِرِها وبَاطِنِها، وهِيَ المَعَاصي كُلُّها، ثمَّ خصَّ من ذَلِكَ قَتْل النَّفس بغَيْر حقٍّ لِعِظَم هذِهِ الجَريمَةِ، وسُوءِ عَاقِبَتِهَا أَكْثر من غَيْرها من المَعَاصي الَّتي دُونَ الشِّرْك، ثمَّ نَهَىٰ عن قُرْبانِ مالِ اليَتِيمِ إِلَّا بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، حتَّىٰ يَبْلغَ أَشُدَّه، وذَلِكَ حين يَبْلغ ويَرْشد، ثمَّ أَمَر بالوَفَاءِ بالكَيْلِ والميزانِ بالقِسْطِ، وهُوَ العَدْلُ، لِمَا في بَخْسِ المِكْيالِ والميزانِ مِنَ الظُّلْم والعُدْوانِ، وأَكْل المَالِ بالبَاطِلِ، ثمَّ أَمَر بالعَدْل في القَوْل بعد ما أمر بالعَدْل في الفِعْلِ؛ فقَالَ سُبْحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام:١٥٢].

والمَعْنىٰ: أَنَّ العَدْلَ في جَمِيعِ الأَقْوَال والأَفْعَال مع القَرِيبِ والبَعِيدِ، والحَبِيبِ والبَغِيضِ، طاعةٌ لله سُبْحانه، وتَنْفيذٌ لحُكْمِهِ، وضدُّه: هُوَ الظُّلْم في القَوْل والعَمَل.

ثمَّ أَمَر عِبادَه سُبْحانه بالوَفَاء بعَهْدِهِ الَّذي عَهِدَ إِلَيْهم في كتابِهِ المُبِينِ، وعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ الأَمِينِ عَلَيه من رَبِّه أَفْضَل الصَّلاة والتَّسليم، وذَلِكَ يَشْمل جميعَ ما شَرَعه لعبادِهِ من الفَرَائضِ والأَحْكَامِ والأَقْوالِ والأَعْمالِ، ومَا نَهاهُمْ عَنْه

سُبْحَانه، كما نصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَئِمَّةُ التَّفسير، ثمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ بَعْد ذَلِكَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فَعلِم بهذا: أنَّ صِرَاطَه سُبْحانه هُوَ العَمَلُ بأَوَامِرِهِ، والانْتِهَاءُ عَنْ نَوَاهيه، والإيمانُ بكلِّ ما جاءَ به رسولُهُ ﷺ من العُلُوم النَّافعة، والأَخْبَار الصَّادقة، والشَّرَائع والأَحْكَام؛ ظاهرًا وباطنًا، خِلَافًا لأَهْل النِّفاقِ.

وقَدْ أَرْشَدَ سُبْحانه عِبادَهُ في سُورَة الفاتحة إلىٰ أَنْ يَسْأَلُوهُ الهِداية إِلَىٰ هَذَا الصِّراط لِشِدَّة ضَرُورَتهمْ إِلَىٰ ذَلِكَ.

وبَيَّنَ سُبْحانَه أَنَّهُ هو طريقُ المُنْعَم عَلَيهم، المَذْكورينَ في قولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

وَقَدْ دَلَّتِ الأَحَاديثُ المَرْفوعةُ، والآثارُ عَنِ الصَّحَابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ علىٰ أَنَّ السُّبُل الَّتي نَهَىٰ اللهُ عَنِ اتِّباعِها: هي البدعُ والشُّبُهاتُ والشَّهَواتُ المُحرَّمةُ، والمَذَاهبُ والنِّحَلُ المُنْحرفةُ عن الحقِّ، وسَائِرِ الأَدْيانِ الباطلة.

ومِنْ ذَلِكَ: ما رَوَاه الإمامُ أَحْمدُ والنَّسائيُّ بإِسْنادٍ صَحِيحٍ، عَنْ عبد الله بن مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ رَسُولُ الله ﷺ خَطًّا بيدِهِ، ثمَّ قالَ: «**هَذَا سبيلُ الله مُسْتَقيمًا**»، وخطَّ خُطُوطًا عن يمينِهِ وشمالِهِ، ثمَّ قال: «**هذِهِ السُّبُلُ، ليس منها سبيلٌ إِلَّا عَلَيه شيطانٌ يَدْعو إليه**»، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣][(١)].

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٧/ ٤٣٦) (٤٤٣٧) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٦).

ومما يَحْسُن التنبيه عليه: أنَّه عَزَّوَجَلَّ ذكَر في خِتَام الآية الأُولَىٰ من الآيات الثَّلَاث المَذْكورة آنفًا: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١]، وَفِي خِتَامِ الآيَة الثَّانية: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢]، وَفِي خِتَامِ الآيَةِ الثَّالثة: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

قَالَ بَعْضُ عُلَماءِ التَّفسير: الحِكْمةُ في ذَلِكَ -واللهُ أَعْلَمُ-: أَنَّ مَنْ تَدبَّر كتابَ الله عَزَّوَجَلَّ، وأَكْثَر من تِلَاوتِهِ، حَصَل له التَّعقُّل للأَوَامر والنَّواهي، والتَّذكُّر لِمَا تَشْتمل عَلَيه من المَصَالِحِ العظيمةِ، والعَوَاقبِ الحَميدةِ في الدُّنيا والآخِرَةِ، وبذَلِكَ يَنْتقلُ إلىٰ التَّقْوىٰ، وَهِيَ فِعْلُ الأَوَامر وتَرْكُ النَّوَاهي، اتِّقاءً لغَضَب الله وعقابِهِ، ورغبةً في مَغْفرتِهِ ورحمتِهِ، والفَوْز بكَرَامتِهِ، وهَذَا مَعْنىٰ عظيمٌ، وذَلِكَ من أَسْرَار كتاب الله الَّذي لا يَأْتيهِ الباطلُ من بَيْن يَدَيه ولا من خَلْفه؛ لكونِهِ تَنْزيلًا من حكيمٍ حميدٍ، لا تَخْفىٰ عليه خافيةٌ، ولَا يُعْجزه شيءٌ، وهُوَ العالمُ بأَحْوَال عبادِهِ ومَصَالحهم، لَا إِلَهَ غَيْرُه، ولا ربَّ سِوَاه.

وقَدْ أَخْبرَ سُبْحانه أَنَّ ما أَوْحَىٰ اللهُ به إلىٰ نَبيِّه ﷺ، هو روحٌ تَحْصُلُ به الحياةُ الطَّيِّبة، ونورٌ تَحْصل به البصيرةُ والهدايةُ، كَمَا أَخْبر أَنَّ رَسُولَه الكريمَ يَهْدي إلىٰ صراطِهِ المُسْتقيم، الَّذي أَوْضَحه في الآياتِ الثَّلاث الَّتي ذَكَرنا آنفًا، وذَلِكَ في قولِهِ عَزَّوَجَلَّ في سورة الشُّورىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورىٰ:٥٢، ٥٣].

فأَوْضَحَ سُبْحانه أنَّ الوحيَ الَّذي أَوْحاهُ إلىٰ نبيِّه ﷺ من الكِتَابِ والسُّنَّة، روحٌ تَحْصل به الحياةُ الطَّيِّبة، السَّعيدة الحَميدةُ، ونورٌ تَحْصل به الهدايةُ والبصيرةُ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة الأَنْعَام: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾، الآية [الأنعام:١٢٢].

فأَخْبَر سُبْحَانه: أنَّ الكافرَ مَيِّتٌ مُنغمسٌ في الظُّلُمات، لا خُرُوجَ له مِنْها إلَّا إذا أَحْيَاه اللهُ بالإِسْلَام والعِلْمِ النَّافع.

وقَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة الأَنْفَال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٢٤].

فأَخْبَر سُبْحانه: أنَّ الاستجابةَ لله وللرَّسُولِ هي الحياةُ، وأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتجِبْ لله وللرَّسُولِ، فهُوَ مَيِّتٌ مَعَ الأَمْواتِ.

وقَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة النَّحْل: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

فَأَبانَ سُبْحانَه في هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: أَنَّ مَنْ عَمِلَ صالحًا من الذُّكُور والإناثِ، وهُوَ مؤمنٌ باللهِ ورَسُولِه، أَحْياهُ اللهُ حياةً طَيِّبةً، وهِيَ الحياةُ الَّتي فيها راحةُ القَلْب والضَّمير، مَعَ السَّعَادةِ العاجلةِ والآجلةِ؛ لاسْتِقَامَة صَاحِبِهَا عَلَىٰ شَرْع مَوْلَاه سُبْحانه، وسَيْره علىٰ ذَلِكَ إلىٰ أَنْ يَلْقَاه.

ثمَّ أَخْبَر سُبْحانه: أَنَّه يَجْزيهم في الآخرة أَجْرَهُمْ بأَحْسن ما كانوا يَعْملونَ، فجَمَع لهم سُبْحانَه بَيْنَ الحَيَاة الطَّيبة في الدُّنيا، والسَّعادةِ الكامِلَةِ في الآخِرةِ، وذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاء، واللهُ ذُو الفَضْل العَظيم.

ومَعْلومٌ: أَنَّهُ لَا يَحْصل هذا الخيرُ العظيمُ، إِلَّا لمَنْ اعْتصَمَ بكِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ قولًا وعملًا وعقيدةً، واستمرَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ حتَّىٰ يَلْقىٰ ربَّه عَزَّوَجَلَّ، كَمَا قالَ سُبْحَانه في سورة آل عمران: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٢، ١٠٣].

أَمَر الله سُبْحانه في هَاتَين الآيتين أَهْلَ الإيمان: بأَنْ يَتَّقُوا اللهَ في جَمِيعِ حَيَاتِهم، حتَّىٰ يَمُوتوا عَلَىٰ ذَٰلِكَ، وأَمَرهم: بِالاعْتِصَامِ بحبلِهِ، وهو دينُهُ الَّذي بَعَث به نَبيَّه ﷺ، وهُوَ الإِسْلامُ، وهُوَ التَّمسُّك بالقرآنِ والسُّنَّة، ونَهَىٰ عن التَّفرُّق في ذَٰلِكَ لِمَا يُفْضي إِلَيه التَّفرُّق من ضَيَاع الحقِّ، وسُوءِ العَاقِبَةِ، واخْتِلَافِ القُلُوب.

وقَالَ سُبْحَانه في سورة الحِجْر يُخَاطب نَبيَّه ﷺ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر:٩٤]، إِلَىٰ أَنْ قالَ سُبْحَانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٨، ٩٩].

فأَمَره سُبْحانه: أن يُبلِّغَ رِسَالاتِهِ، ويَصْدع بذَلِكَ، ويُعْرِض عَمَّنْ خَالَفه، ثمَّ أَمَره أن يُسبِّح بحمدِهِ، وأَنْ يكونَ من السَّاجِدِين له عَزَّوَجَلَّ، وأَنْ يَعْبدَ ربَّه حتَّىٰ يأتيه اليقينُ، وهُوَ الموتُ.

فعُلِمَ بذَلِكَ أَنَّ الواجبَ علىٰ جَمِيعِ العِبَادِ: أَنْ يَسْتقِيمُوا علىٰ شَرْع الله، وأَنْ يَعْتصِمُوا بكتابِهِ وسُنَّةِ نَبيِّه ﷺ، وأَنْ يَستمرُّوا في ذَلِكَ، ويَلْزموه ولا يُبَالوا بمَنْ خَالَفه، حتَّىٰ تنزلَ بهم آجَالُهُمْ.

وقَدْ أمرَ اللهُ سُبْحانه في مَوَاضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ العزيزِ، وَفِي أحاديثَ كثيرةٍ ممَّا صحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، باتِّباعِ كتابِهِ الكريم، والاعْتِصَامِ به، واتِّباع السُّنَّة

وتعْظيمِها، والحَذَر ممَّا خَالَفهما.

فمِنْ ذَلِكَ: قولُهُ تَعَالىٰ في سُورَة الأَعْراف: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف:٣]، وقَالَ سُبْحَانه في سُورَة الأَنْعَام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقَالَ في سُورَة الإِسْرَاءِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء:٩]، وَقَالَ في سورة (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص:٢٩]، وَالآياتُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

وقَالَ سُبْحَانه في سُورَةِ النِّسَاءِ لمَّا ذكر تَفْصيلَ المِيرَاثِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٣ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [النساء:١٣، ١٤].

وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء:٥٩].

فأَمَر سُبْحانَه في هذِهِ الآيَةِ العظيمةِ بطَاعتِهِ، وطَاعَة رَسُولِهِ ﷺ، وأُولي الأَمْر، وأَمَر عند التَّنَازُع بالرَّدِّ إليه سُبْحانه، وإِلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ.

وقَدْ بيَّنَ أَهْلُ العِلْمِ: أنَّ الرَّدَّ إليه سُبْحانَه هو الرَّدُّ إلىٰ كتابِهِ الكريم، وأنَّ الرَّدَّ إلىٰ الرَّسُولِ ﷺ هو الرَّدُّ إليه في حياتِهِ، وإلىٰ سُنَّتِهِ ﷺ بعْد وفاتِهِ.

وأَخْبَرَ عَزَّوَجَلَّ: أَنَّ هَذَا الرَّدَّ خيرٌ للعِبَادِ في دُنْياهم وأُخْرَاهم، وأَحْسن تأويلًا، أي: عاقبةً.

وبهَذَا يُعْلم أَنَّ الواجبَ علىٰ جَمِيعِ أَهْل الإِسْلامِ: أَنْ يَعْتصمُوا بكِتَابِ الله، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ في كُلِّ أُمُورِهمْ، وأَنْ يَرِدُّوا ما تَنازَعوا فِيهِ إِلَيْهما، وأَنَّ ذَلِكَ خيرٌ لهم، وأحسنُ عاقبةً في العَاجِلِ والآجِلِ، أَمَّا طاعةُ أُولِي الأَمْر فهِيَ واجبةٌ في المَعْروف، كما صَحَّتْ بذلك السُّنَّة عَنْ رَسُول الله ﷺ.

وهَذَا المَوْضع من المَوَاضع الَّتي قُيِّدَ فيها مُطْلق الكتاب بِمَا يصحُّ في السُّنَّة عن الرَّسُول ﷺ؛ لأنَّه هو المُبلِّغ عنه، والدَّالُّ علىٰ شريعتِهِ بأَمْره سُبْحانه، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة النَّحل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤]، وَقَال فِيهَا سُبْحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤]، وقَالَ سُبْحانه في سُورَة النِّساء أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠].

وبَيَّنَ سُبْحانه في سُورَة الأَعْراف أَنَّ أَنْصَاره وأَتْبَاعه هُمُ المُفْلحونَ، وبَيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ الهدايةَ مُعلَّقةٌ باتِّباعِهِ ﷺ؛ فقَالَ سُبْحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٧، ١٥٨].

وقَالَ في سُورَة الأنْفَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال:٢٠]، إلَىٰ أَنْ قالَ سُبْحَانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ الآية [الأنفال:٢٤].

وسَبَق أنَّ هذِهِ الآيَةَ العظيمةَ تدلُّ علىٰ أنَّ الحياةَ بالاسْتِجَابةِ للهِ وللرَّسُول ﷺ، وأنَّ مَنْ لَمْ يَسْتجب لله ورَسُولِهِ فهو من الأَمْواتِ، وإنْ كان حيًّا بيْن النَّاس، حياةَ البَهائم.

وقالَ ﷻ في سُورَة النُّور: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور:٥٤].

فأَبَان سُبْحَانه في هذِهِ الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الهدايةَ في طَاعتِهِ، واتِّباع ما جاءَ به، ولا شكَّ أنَّ طَاعتَه ﷺ طاعةٌ لله ﷻ، واتِّباع لكتابِهِ العظيم، كما قَالَ سُبْحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، الآية [النساء:٨٠]، وقَالَ في آخِرِ سُورَة النُّور: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣]، وهَذَا وعيدٌ شديدٌ لمَنْ حَادَ عن أَمْره ﷺ، واتَّبعَ هَوَاه.

وقَالَ في سُورَة الفَتْح: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٧﴾ [الفتح:١٧].

وقَالَ في سُورَة الحَشْر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر:٧].

والآياتُ في الأَمْر بطَاعَة الله وطَاعَة رَسُولِهِ ﷺ، واتِّباع كِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ، وَالاهْتِدَاء بِهِ كثيرةٌ جدًّا، وقَدْ ذَكَرنا منها -بحَمْد الله- ما فيه الكِفَايَة والمَقْنع لمَنْ وُفِّق لقَبُول الحقِّ.

وأَمَّا الأحاديثُ في ذَلِكَ فَهِيَ كثيرةٌ أيضًا، فنَذْكر منها ما تَيَسَّر، ومِنْ ذَلِكَ ما ثَبتَ في «الصَّحيحين» عن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: **«مَنْ أَطَاعني فقَدْ أَطَاع الله، ومَنْ عَصَاني فقَدْ عَصَىٰ الله، ومَنْ أَطَاع الأميرَ فقَدْ أَطَاعني، ومَنْ عَصَىٰ الأميرَ فقَدْ عَصَاني»**(١).

والمرادُ بطَاعَة الأَمِيرِ: طاعتُهُ في المَعْروف، كما ثَبتَ ذلك في الأَحَاديثِ الصَّحيحةِ عَنْ رَسُول الله ﷺ.

ومعلومٌ: أنَّ السُّنَّة يُقيَّد مُطْلقُها بمُقيِّدها، كما أنَّ الكتابَ العزيزَ يُفسَّر المُطْلَقُ فيه بالمُقيِّد، ويُفسَّر مُطْلَقُهُ أيضًا بمُقيِّد السُّنَّة، كَمَا سَبَق التَّنبيهُ علىٰ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ قولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، الآية [النساء:٥٩].

وفي «صَحِيحِ البخاريِّ» عَنْ أبي هُرَيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قال: **«كُلُّ أُمَّتي يَدْخلون الجنَّة إِلَّا مَنْ أبىٰ»**. قيل: يا رَسُولَ الله، ومَنْ يَأْبىٰ؟ قال: **«مَنْ أَطَاعني دَخَل الجنَّة، ومَنْ عَصَاني فقَدْ أَبَىٰ»**(٢).

وخَرَّج الإمامُ أحمدُ، وأَبُو دَاوُدَ، والحاكمُ بِإِسْنَادٍ صحيحٍ، عَنِ المِقْدام بْنِ مَعْدي كَرِب، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قال: **«أَلَا إِنِّي أُوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ مَعَه، أَلَا**

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

يُوشِكُ رجلٌ شَبْعان علىٰ أريكتِهِ[1] **يَقُولُ: عَلَيكم بهَذَا القرآنِ، فمَا وَجَدتُمْ فيه من حلالٍ فَأحلُّوه، وما وَجَدتُمْ فيه من حرامٍ فحَرِّمُوهُ»**[2].

وخَرَّج أَبُو دَاوُدَ، وابْنُ ماجه بسندٍ صحيحٍ، عَنِ ابْنِ أبي رافعٍ، عَنْ أبيه، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: **«لا أَلْفِينَّ أحدَكُمْ مُتَّكِئًا علىٰ أريكتِهِ يَأتيه الأمرُ من أَمْري ممَّا أمرتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقولُ: لا نَدرِي، ما وَجَدْنا في كتابِ الله اتَّبعْنَاه»**[3].

وعَنِ الحَسَن بن جابرٍ قالَ: سَمِعْتُ المِقْدامَ بْنَ مَعْدي كَرِبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: حَرَّمَ رسولُ ﷺ يومَ خَيْبر أشياءَ، ثمَّ قالَ: **«يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكذِّبني وهُوَ مُتَّكِئٌ يُحدِّث بِحَدِيثِي، فَيَقولُ: بَيْننا وبَيْنكُمْ كتابُ الله، فَمَا وَجَدنا فيه من حلالٍ اسْتَحْلَلْنَاه، ومَا وَجَدْنا فيه من حَرامٍ حَرَّمناه، أَلَا إِنَّ ما حَرَّم رَسُولُ الله مِثْل ما حَرَّمَ الله»** أَخْرجَه الحاكمُ، والتِّرمذيُّ، وَابْن ماجه بإسنادٍ صحيحٍ[4].

وقَدْ تَوَاترتِ الأحاديثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بأنَّهُ كان يُوصِي أَصْحابَه في خُطْبَتِهِ أَنْ يبلغ شَاهِدُهمْ غَائِبَهمْ، وَيَقُول لَهُمْ: **«رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعىٰ من سامعٍ»**[5].

---

(١) قال البغويُّ رَحِمَهُ اللهُ في «شرح السنة» (١/ ٢٠١): «أراد بهذه الصِّفَة أصحاب التَّرفُّه والدَّعة الذين لَزِمُوا البيوت، وقَعَدوا عن طلب العلم.
وفي الحديث: دليل علىٰ أنه لا حاجة بالحديث إلىٰ أن يُعرض علىٰ الكتاب، وأنه مهما ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ كان حُجَّة بنفسه».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (١٧١٩٤)، والحاكم (١/ ١٩١) (٣٧١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٩١) (٣٧١)، وأبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٧٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ومِنْ ذَلِكَ ما في «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا خطَب النَّاسَ في حَجَّةِ الوَدَاع في يَوْم عرفةَ، وَفِي يَوْم النَّحْرِ، قالَ لَهُمْ: «فَلْيُبلِّغ الشَّاهدُ الغَائِبَ، فرُبَّ مبلغٍ أَوْعَىٰ له مِمَّنْ سَمِعَهُ»[١]، فَلَوْلا أَنَّ سُنَّته حُجَّةٌ علىٰ مَنْ سَمِعَها، وعلىٰ مَنْ بَلَغته، ولَوْلا أنَّها باقيةٌ إلىٰ يوم القِيَامَة، لَمْ يَأْمرهُمْ بتَبْليغها، فعُلِمَ بذَلِكَ أَنَّ الحُجَّة بالسُّنَّة قائمةٌ علىٰ مَنْ سَمِعَها مِنْ فِيهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وعَلَىٰ مَنْ نُقِلَتْ إليه بالأَسَانيدِ الصَّحيحةِ.

وَأَسْأَلُ اللهَ سُبْحانه بأَسْمائِهِ الحُسْنىٰ، وصفاتِهِ العُلَىٰ أَنْ يُوفِّقنا وسائرَ المُسْلمينَ للتَّمسُّك بكتابِهِ، وسُنَّة رَسُولِهِ ﷺ، والعَمَل بِهِمَا، والتَّحاكُم إِلَيْهما، وَرَدِّ ما تَنازَع فيه المُسْلمونَ إِلَيْهما، وأَنْ يُوفِّق حُكَّامَ المُسْلمينَ وَقَادَتَهم لاتِّباع كِتَابِهِ وسُنَّةِ نَبيِّه ﷺ، والحُكْم بِهِمَا في جميع الشُّؤون، وأَنْ يَجْمعَ كلمةَ المُسْلمينَ علىٰ الحقِّ، ويَنْصرهُمْ علىٰ أَعْدائِهِمْ، كَمَا أَسْأَلُهُ سُبْحانه أَنْ ينصرَ دِينَهُ، ويُعْليَ كَلِمتَه، ويَخْذل أَعْداءَه، ويُوفِّق المُجَاهدينَ في سبيلِهِ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، وَيَجْمع كَلِمَتهُمْ علىٰ الحقِّ، ويُؤلِّف بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَيَنْصرهُمْ علىٰ أَعْدائِهِمْ أَعْداء الإِسْلامِ؛ إنَّهُ وليُّ ذَلِكَ، والقادرُ عَلَيه.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم عَلَى نَبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آلِهِ وأَصْحابِهِ

وأتباعِهِ بإحْسان



---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) واجب المسلمين تجاه دينهم ودنياهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله، نَحْمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونَعُوذ باللهِ مِنْ شُرُور أَنْفُسِنَا وسَيِّئاتِ أَعْمَالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلل فَلَا هَادِيَ له، وأَشْهَد أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْده لا شَرِيكَ له، وأَشْهَد أَنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فأَسْأَلُ اللهَ -جَلَّ وَعَلا- بأسمائِهِ الحُسْنىٰ، وصفاتِهِ العُلْيا أَنْ يُوفِّقنا وإيَّاكُمْ لِمَا يُرْضيه، وأَنْ يُصْلحَ قُلُوبَنا وأَعْمالَنا جميعًا، وأَشْكُرُه سُبْحانَه علىٰ ما مَنَّ بِهِ من هَذَا اللِّقاءِ في سَبِيلِ الله، وفي طاعتِهِ جَلَّ وَعَلا، وَالتَّوَاصي بالحقِّ، وأَسْأَلُهُ -

جَلَّ وَعَلا- أن يَجْعلَه لقاءً مباركًا، وأَنْ يُعِينَنا جَمِيعًا علىٰ ما فِيهِ رِضَاهُ، ويُعِيذَنا جَميعًا مِنْ شُرُور أَنْفسنا، وسَيِّئَاتِ أَعْمَالنا.

ثمَّ أَشْكُر أَخِي صاحبَ هَذَا المَسجِد (الأخ سُلَيمان الرَّاجحي) علىٰ دَعْوتِهِ لي لِهَذَا اللِّقَاءِ، وأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُبَارك فيه، وَفِي أَخِيهِ (صالح)، وَفِي ذُرِّيَّتهما، وأَنْ يُعِينَهُمْ علىٰ كُلِّ خيرٍ، وأَنْ يُبَارك في جُهُودِهِمْ، ويَجْعلنا وَإِيَّاهُمْ من الهُدَاة المُهْتدينَ، ثمَّ أَشْكر أَخِي الشَّيخ عَائِض بن عَبْد الله القَرني عَلَىٰ كلمتِهِ، وعَلَىٰ قصيدتِهِ المُبَاركة، وأَسْأَل اللهَ أَنْ يَجْزيه عَنْ ذَلِكَ خيرًا.

أَمَّا مَا ذَكَره عن الفَتَاوىٰ وَاسْتِنْباطها مِنْ كتاب الله، ومِنْ سُنَّة رَسُول الله ﷺ، فأَقُول: إنَّ هَذَا هُوَ الواجبُ عَلَىٰ أَهْل العِلْمِ، وهو الَّذي نَفْعلُهُ ونَهْدف إِلَيْهِ، ونَحْرص عَلَىٰ تَطْبيق فَتَاوانا عَلَيه، ولكنَّني لَسْتُ مَعْصومًا، فقَدْ يَقَع الخطأُ منِّي ومِنْ غَيْري من أَهْل العِلْمِ، ولكنِّي لا آلُو جَهْدًا في تَطْبيق ما يَصْدر منِّي علىٰ كتاب الله، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، ولا آلُو جَهْدًا في اسْتِنْباطِ ما دلَّ عَلَيه كتاب الله، وسُنَّة رَسُولِهِ ﷺ في كلِّ ما يَصْدر مِنِّي من قليلٍ أو كثيرٍ، هَذَا هو جَهْدي، وأَسْأَل اللهَ أَنْ يَجْعَل ذَلِكَ مُوافقًا ومُصيبًا للحقِّ.

وأَمَّا ما يَتعلَّق بسُؤال أَهْل العِلْمِ والاسْتِفْتَاء مِنْهم، فهَذَا أمرٌ مَعلومٌ قَدْ شَرَعه اللهُ لعبادِهِ، فإِنَّ الله -جَلَّ وَعَلا- أَمَر بِسُؤالِ أَهْلِ العِلْمِ -وأَسْأَل اللهَ أَنْ يَجْعَلنا وإِيَّاكم من أَهْلِ العِلْمِ النَّافع، والعَمَل الصَّالح- فَقَالَ سُبْحانَه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل:٤٣].

ورُوِيَ عَنْه ﷺ أنَّه قالَ في قَوْمٍ أَفْتَوا بغَيْر عِلْمٍ: «أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَموا، إِنَّما

شِفَاءُ العِيِّ السُّؤال»[١].

فَالْوَاجبُ عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ، وعَلَىٰ كلِّ مُسْلِمٍ أَشْكَل عَلَيه أمرٌ من أُمُور دينِهِ: أَنْ يسألَ عَنْه ذَوِي الاخْتِصَاصِ مِنْ أَهْل العِلْمِ، وأَنْ يَتبصَّر، وألَّا يُقْدِمَ علىٰ أيِّ عملٍ بجَهْلٍ يَقُودُه إلىٰ الضَّلال.

فعَلَىٰ المُسْلمينَ أَنْ يَسْألوا، وعَلَىٰ أَهْل العِلْمِ أَنْ يُبيِّنوا، فالعُلَماءُ هُمْ وَرَثةُ الأَنْبياء، وهُمْ خُلَفاءُ الرُّسُل في بَيَانِ الحَقِّ، وَالدَّعْوة إليه، والإِفْتَاء بِهِ، وعَلَىٰ جَمِيعِ المُسْلمينَ أَنْ يَسْألوا عَمَّا أُشْكِلَ عَلَيهم، وأَنْ يَسْتفتوا أَهْلَ العِلْمِ.

وأَهْلُ العِلْمِ هُمْ عُلَماءُ الكِتَابِ والسُّنَّة، وهُمُ الَّذين يَرْجعونَ في فَتَاواهم إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ العِلْمِ، ولَيْسَ أَهْلُ العِلْمِ مَنْ يُقلِّد الرِّجال، وَلَا يُبَالي بالكِتَابِ والسُّنَّةِ، إنَّما العُلَماءُ هُمُ الَّذين يُعظِّمونَ كِتَابَ الله، وسُنَّةَ رَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، ويَرْجعونَ إِلَيْهما في كلِّ شيءٍ، هَؤُلَاءِ هُمْ أَهْل العِلْمِ.

وعَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتأسَّىٰ بِهِمْ، ويَجْتهد فِي سُلُوك طَرِيقِهِمْ، وعَلَىٰ عَامَّة المُسْلمينَ أَنْ يَسْألوهُمْ عَمَّا أُشْكِلَ عَلَيهم في أَمْر دِينِهِمْ وَدُنْياهُمْ؛ لأنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلا- بَعَث الرُّسُلَ لإِصْلَاح أَمْر الدِّين والدُّنيا جميعًا، وَلَا سِيَّما خَاتَمهم وإِمَامهم وأَفْضَلهم نَبيُّنا مُحمَّدٌ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، فإِنَّ اللهَ بَعَثه للنَّاس عَامَّةً للجِنِّ والإِنْسِ، وجَعَل رِسَالَته عَامَّةً، وَفِيهَا صَلاحُ أَمْر الدُّنيا والآخرة، فِيهَا صَلاحُ العِبَادِ والبِلَادِ في كُلِّ شَيءٍ، فِيهَا خَلَاصُهُمْ مِنْ كُلِّ شرٍّ، وَفِيهَا صَلَاحُهُمْ

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٦) وابن ماجه (٥٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٦٤)، والعِيُّ: الجَهْل.

فِيمَا يَتعلَّق بدُنْياهم، وأَمْر مَعَاشهم، وَفِيهَا صَلَاحهم فِيمَا يَتعلَّق بطَاعَة رَبِّهِمْ وعبادتِهِ، وأَدَاء حَقِّه، وتَرْك ما نَهَىٰ عنه، وَفِيهَا صَلَاحُهم في كلِّ ما يُقرِّبهم من الله، ويُبَاعد من غَضَبه ﷻ، وَفِيهَا صَلَاحُهم بتَوْجيه العِبَادِ وإِرْشَادهم إلىٰ مَا يَنْفعُهُمْ وَيَهْديهِمْ إلىٰ الطَّريق السَّويِّ، ويُبْعدهم عَنْ طريقِ النَّار، وطَرِيقِ الهَلَاك والدَّمَار.

وعنوان الكلمة: «**واجبُ المُسْلمينَ تجاه دِينِهِمْ وَدُنْياهُمْ**»، فالمُسْلمونَ عَلَيهم واجباتٌ تَتعلَّق بدِينِهِمْ، وَبالاسْتِقَامَةِ عَلَيه كَمَا شَرَع اللهُ، وكَمَا أَمَرهم الله، فإنَّ اللهَ خَلَقهم ليَعْبُدُوه، وأَرْسَل الرُّسُلَ بذَلِكَ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وهذِهِ هِيَ العِبَادَةُ الَّتي أَمَرهم اللهُ بِهَا في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة:٢١]، وَفِي قَوْلِهِ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، وَفِي قَوْلِهِ ﷿: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥]، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وَفِي قَوْلِهِ ﷿: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

وَاللهُ بَعَثَ رَسُولَه مُحمَّدًا ﷺ كَمَا بَعَثَ الرُّسُل قَبْله بالدَّعْوة إلىٰ هذِهِ العِبَادَةِ، والدَّعْوة إلىٰ هَذَا الدِّين، بَعَثه إلىٰ الثَّقَلين (الجنِّ والإنسِ) رحمةً للعَالَمين، كَمَا قَالَ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧]، بَعَثه مُعلِّمًا، ومُرْشدًا، وهاديًا إلىٰ طَرِيقِ النَّجَاة، مُعلِّمًا لهم كلَّ ما فيه صَلَاحهم ونَجَاتُهم وسَعَادتهم في الدُّنيا والآخرة، وجَعَله خاتمَ الأَنْبياءِ، لَيْس بَعْده نبيٌّ وَلَا

رَسُولٌ، ومَنِ ادَّعَىٰ النُّبوَّة بَعْده فهُوَ كاذبٌ كافرٌ بإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمانِ، فمَنِ ادَّعىٰ أنَّه نبيٌّ، أو أُوحِيَ إليه بِشَيءٍ -كالقَاديانيَّة- فهُوَ كَافرٌ بالله، ضالٌّ مُضلٌّ مُرْتدٌّ عَنْ دين الإسلام إذا كان يَدَّعي الإسلامَ، فهُوَ ﷺ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسلينَ، كَمَا قالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وَقَدْ تَوَاتَرتْ عَنْه -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- الأحاديثُ الصَّحيحةُ بأنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبياءِ، لَا نبيَّ بعدَهُ، فالواجبُ عَلَىٰ جَمِيعِ الثَّقَلين اتِّباعُهُ، والاستِقامَةُ عَلَىٰ دينِهِ، وَالتَّفقُّه فِي ذَٰلِكَ، وَالسَّيْر علىٰ ذَٰلِكَ حتَّىٰ المَوْت، وهذِهِ العِبَادةُ الَّتي خُلِقُوا لَهَا لَا بُدَّ أَنْ يَتفقَّهوا فِيهَا، وَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرفوها بالأدلَّة من الكِتَابِ والسُّنَّة، فهُمْ خُلِقُوا ليَعْبدوا اللهَ، وتَفْسيرُ هذِهِ العِبَادَة يُؤخَذ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعَنْ رَسُولِهِ ﷺ.

وقَدْ فَسَّرها اللهُ فِي كتابِهِ العَظِيمِ، وفَسَّرها نَبيُّه عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، فأَصْلُها تَوْحيدُ الله، والإِخْلَاصُ له، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، هَذَا أَصْلُ هذِهِ العِبادَةِ، فأَصْلُها تَوْحيدُ الله، وتَخْصيصُهُ بالعِبادَةِ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وَبِهَذَا أُنْزِلَتِ الكُتُبُ جَمِيعُها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لبيَان هذِهِ العِبَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١، ٢]، فالكُتُبُ المُنَزَّلةُ من السَّماء -وآخِرُهَا القرآنُ- كُلُّها تَدْعو إلىٰ تَوْحيدِ الله، والإِخْلَاصِ له، وطَاعَة أَوَامره، وتَرْك نَوَاهِيه.

وَالرُّسُلُ كُلُّهمْ جَمِيعًا كذَلِكَ، يَدْعُونَ إلىٰ تَوْحيد الله، وطَاعَة أَوَامره، وتَرْك نَوَاهيه، وَاتِّباع شَريعتِهِ، والحَذَر مِمَّا نَهَىٰ عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعَلَىٰ جَمِيع المُكلَّفين من إنسٍ وجنٍّ، وعربٍ وعجمٍ، ورجالٍ ونساءٍ، عَلَيْهِمْ جميعًا أَنْ يَعْبدوا اللهَ وَحْده، وأَنْ يَنْقَادوا لِمَا جاءَ بِهِ نَبيُّه مُحمَّدٌ ﷺ قَوْلًا وعَمَلًا، فِعْلًا وتَرْكًا، فأَصْلُ الدِّين وأَساسُهُ: هو شَهَادةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله، وهَذَا هُوَ أَصْلُ هذِهِ العِبَادة وأَسَاسُها، أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْده دون كلِّ ما سِوَاهُ: بالدُّعاء، والرَّجاء، والخَوْف، وَالنَّذْر، والذَّبْح، وَسَائِرِ العِبَادَاتِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:١، ٢].

فَالعِبَادَةُ حقُّ اللهِ، لَا تَصْلح لا لمَلكٍ مُقرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرْسَلٍ، ولا لصَنَمٍ، ولا لِجنٍّ، ولا لوَثَنٍ، ولا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ هي حقُّ الله عَلَيك أَنْ تَعْبده وَحْده بدُعَائك، ورَجَائِكَ، وخَوْفِكَ، وذَبْحِكَ، ونَذْرِك، وصَلَاتِكَ، وصَوْمِكَ، وحَجِّكَ، وصَدَقَاتِكَ، وغَيْر ذَلِكَ.

لأَنَّهُ سُبْحانَه هو المَعْبودُ بالحقِّ، وما سِوَاهُ مَعْبودٌ بِالبَاطِلِ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]، وَكَانَ العربُ وغَيْرهم من الأُمَمِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ الله -وهُمْ قليلٌ- حين بَعْثة مُحمَّدٍ ﷺ كَانُوا علىٰ الشِّرْك بالله، مِنْهم مَنْ يَعْبد الملائكةَ، ومِنْهُمْ مَنْ يَعْبد الأنبياءَ، ومِنْهم مَنْ يَعْبد الأصنامَ المَنْحوتةَ عَلَىٰ صُورَة فلانٍ وفلانٍ، ومِنْهم مَنْ يَعْبد الأشجارَ والأحجارَ، ومِنْهم مَنْ يَعْبد القُبُورَ، ومِنْهم مَنْ يَعْبدُ النُّجُومَ،

ويَسْتغيثُ بها، ويَنْذِرُ لها، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ، فبَعَثَ اللهُ هَذَا النَّبِيَّ العظيمَ مُحمَّدًا ﷺ يَدْعُوهمْ إلىٰ تَوْحيدِ الله، ويُنْذرُهم من هَذَا الشِّرْك الوَخِيم، فقَامَ بذَلِكَ أَكْملَ قِيَام عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، ودَعَا إلىٰ الله، وأَرْشَد إلىٰ دينِهِ -جَلَّ وَعَلا- الَّذي رَضِيَهُ للنَّاس، وعَلَّمَ النَّاسَ تَوْحيدَ الله.

مَكَثَ ﷺ في مَكَّة ثلاثَ عَشْرةَ سنةً يَدْعو فِيهَا إلىٰ تَوْحيد الله، والإِخْلَاصِ لله، وتَرْك عِبَادَة ما سِوَاهُ جَلَّ وَعَلا، وبَعْد مُضيِّ عَشْر سِنِينَ فَرَض اللهُ عَلَيه الصَّلَواتِ الخَمْسَ قَبْل أَنْ يُهَاجرَ، أُسْرِيَ به إلىٰ بَيْت المَقْدس، ثمَّ عُرِجَ به إلىٰ السَّمَاءِ، وتَجَاوز السَّمَاواتِ السَّبع جميعًا، ورُفِع إلىٰ مُسْتوىً فَوْقَ ذَلِكَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وكَلَّمَه اللهُ جَلَّ وَعَلا، وأَوْحَىٰ إِلَيْه الصَّلواتِ الخمسَ، فَنزَل بِهَا عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلام، وعَلَّمها النَّاسَ، وقامَ بِهَا المُسْلمونَ في مَكَّةَ، ثمَّ هاجرَ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- إلىٰ المَدِينَةِ، وفَرَض اللهُ عَلَيه بَقيَّةَ أُمُور الدِّين من زكاةٍ، وصيامٍ، وحجٍّ، وغَيْر ذَلِكَ.

فالواجبُ عَلَىٰ جَمِيعِ المُكلَّفينَ من الجِنِّ وَالإِنْسِ، والعَرَبِ والعَجَمِ، والذُّكُورِ والإِنَاثِ، والحُكَّام والمَحْكُومِينَ، والأَغْنيَاء والفُقَراء، الواجبُ عَلَيهم جميعًا في وَقْتِهِ ﷺ، وبَعْد وَقْتِهِ، وفي وَقْتنا هَذَا إلىٰ يَوْم القِيَامَة، **الواجبُ عَلَىٰ الجَمِيعِ**: أَنْ يَعْبدوا اللهَ وَحْده، وأَنْ يَنْقَادوا لشَرْعِهِ، وأَنْ يَتَّبعوا ما جاءَ بِهِ نَبيُّه مُحمَّدٌ ﷺ قولًا وعملًا وعقيدةً.

هَذَا واجبُ الجَمِيعِ نَحْوَ دِينِهِمْ، يجبُ عَلَيهم أَنْ يَعْبدوا اللهَ، ويُطِيعُوا أَوَامره، ويَتركُوا نَوَاهيه، فالعِبَادَةُ هِيَ: طَاعَةُ الأَوَامر إخلاصًا لله، ومَحبَّةً له، وتَعْظيمًا له، من صلاةٍ، وزكاةٍ، وحجٍّ، وبِرٍّ بالوَالِدَيْنِ، وصِلَةٍ للرَّحم، وجهادٍ في سَبِيلِ الله بالنَّفْسِ والمالِ، وصِدْقٍ في الحديث، وغَيْر هَذَا، مَعَ تَرْك كُلِّ ما

حَرَّم الله من الشِّرْك بالله، وهو أَعْظَم الذُّنُوب، فالشِّرْك الَّذي هو صَرْفُ العِبَادَة أَوْ بَعْضها لغَيْر الله أَعْظَم الذُّنُوب، وهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبر: كدُعَاء المَلَائِكَةِ، أو الأَنْبِيَاءِ، أَو الجِنِّ، أو أَصْحابِ القُبُور، فيَسْتغيث بِهِمْ، أو يَنْذر لهم، أو يَذْبح لهم.

وهَذَا يُنَافِي قَوْلَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، فإِنَّ قَوْلَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مَعْناها: لَا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، وَهِيَ كلمةُ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ أَصْلُ الدِّين، وأَسَاسُ المِلَّةِ، فدُعَاء الأَمْواتِ والأَصْنام وغَيْرهم، والاسْتِغَاثةُ بِهِمْ، والنَّذْر لَهُمْ يَنْقُضُ هذه الكَلِمَةَ، ويُنَافيها، وهُوَ الشِّرْكُ الأكبرُ، والَّذي يَأْتِي الأَمْواتَ ويَدْعوهم، ويَسْتغيث بهم، ويَنْذر لهم، ويَسْأَلُهم النَّصرَ عَلَىٰ الأَعْداء، أو شِفَاءَ المَرْضىٰ، أَوْ يَدْعُو المَلَائكةَ أو الرُّسُلَ، أَوْ يَدْعو الجنَّ، ويَسْتغيث بِهِمْ، أو يَنْذر لَهُمْ، ويَذْبح لَهُمْ، كلُّ هَذَا من الشِّرْكِ بالله، وكلُّ هَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَ: «لا إِلَهَ إِلَّا الله»، ويُخَالف قَوْله سُبْحانَه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]، ويُنَاقض قَوْلَه سُبْحانَه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وَبِهَذَا يَعْلم كلُّ مسلم أَنَّ ما يَفْعله بَعْضُ الجُهَّال عند بَعْضِ القُبُور، فيَأْتِي إلىٰ القَبْر، ويَقُول: يَا سَيِّدي فُلان، اشْفِ مَرِيضِي، أو انْصُرْنِي عَلَىٰ عَدوِّي، أَوْ أنتَ تَعْلم ما نَحْنُ فيه، انْصُرْنَا، أو ما أَشْبَه ذَلِكَ، هَذَا من الشِّرْك الأَكْبر، وهَذَا هُوَ دينُ الجَاهليَّة، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ والعَافِيَةَ.

ولَا بُدَّ أَيْضًا مَعَ تَوْحيدِ الله، والإِخْلاصِ له، والحَذَرِ من الكُفْرِ به، لَا بُدَّ مِنَ الشَّهَادة بأَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله، هَاتَان الشَّهَادَتان هُمَا أَصْلُ الدِّين، وأَسَاسُ المِلَّةِ، فعَلَىٰ كُلِّ مُكلَّفٍ أَنْ يُؤمِنَ بأَنَّ مُحمَّدًا رَسُولُ الله، هُوَ عبدُهُ ورسولُهُ إلىٰ الثَّقَلين (الإِنْسِ والجِنِّ)، وَهُوَ مُحمَّد بن عَبْد الله بن عَبْد المُطَّلب الهاشِميُّ العربيُّ المَكِّيُّ، ثمَّ المَدنيُّ، أَرْسَله اللهُ حَقًّا إلىٰ جَمِيعِ الثَّقَلين.

يَجبُ الإيمانُ بِهِ بالقَلْبِ، واللِّسانِ، والعملِ، فيُؤْمِنُ المُكلَّف بأَنَّ مُحمَّد بْنَ عَبْد الله بن عَبْد المُطَّلب الهاشميَّ هُوَ رَسُولُ الله حقًّا إلىٰ جَمِيعِ النَّاس، وهُوَ خَاتَم الأَنْبياءِ إيمانًا صادقًا لا نِفَاقَ فيه، ويُحقِّقهُ بالعَمَل بطَاعَة الأَوَامر، وتَرْك النَّوَاهي بطَاعَة أَوَامر الله من صَلَاةٍ، وزكاةٍ، وصوم، وحجٍّ، وغَيْر ذَٰلِكَ، وتَرْكِ مَحَارم الله من الشِّرْك بالله، والزِّنَا، والسَّرقة، وشُرْب المُسْكراتِ، وعُقُوق الوَالِدَيْنِ، وقَطِيعَة الرَّحِمِ، وأَكْل الرِّبَا، وأَكْل مَالِ اليَتِيمِ... إِلَىٰ غَيْر ذَٰلِكَ مِمَّا حَرَّم اللهُ.

تُحقِّق هَاتَين الشَّهَادتينِ يا عَبْد الله بطَاعَة الأَوَامر، وتَرْك النَّوَاهي، هَـٰذَا حقُّ الله عَلَيك أيُّها العبدُ، وحقُّ الرَّسُول عَلَيك، فعَلَيْكَ أَنْ تعبدَ اللهَ وَحْده بطَاعَة الأَوَامر، وتَرْك النَّوَاهي، والإيمان بأَنَّهُ رَبُّك وإِلَهُكَ الحقُّ، وأَنَّه إِلَهُ الجَميع، وأَنَّه سُبْحانَه خالقُ الكَوْن، ومُصرِّفُ أَحْوَال الجَمِيع، وَأَنَّهُ ذُو الأَسْمَاءِ الحُسْنىٰ، والصِّفَات العُلَىٰ، كلُّ هَذَا داخلٌ في الإيمَانِ بالله وَحْده، فَهُوَ سُبْحانَه ربُّ الجَميع، وخَالِقُهُمْ، ومُصرِّف أَحْوال العِبادِ، فهُوَ سُبْحانَه الخَلَّاقُ، الرَّزَّاقُ، مُدبِّر الأُمُور، مُصرِّف الأَشْيَاء، ليس للعِبَادِ خالقٌ سِوَاهُ، ولا مُدبِّر سِوَاه، فهُوَ النَّافعُ الضَّارُّ، المَانعُ المُعْطي، الخالقُ لكلِّ شَيءٍ، القادرُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، الرَّزَّاق للعِبَادِ، بيدِهِ تَصْريف الأُمُور كُلِّها ﷻ.

وهَذَا ما يُسمَّىٰ تَوْحيد الرُّبُوبيَّة، وَهُوَ وَحْده لا يُدْخل في الإسلام، بَلْ لَا بُدَّ مع ذَٰلِكَ من الإيمانِ بأنَّه هو المُسْتحقُّ للعِبَادَة، فلَا يَسْتحقُّها سِوَاهُ، وهَذَا مَعْنىٰ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، أَيْ: لَا مَعْبودَ حقٌّ إِلَّا اللهُ، وهَذَا هُوَ تَوْحيد العِبَادَة، وهُوَ تخصيصُهُ سُبْحانَه بالعِبَادَة، وإِفْرَاده بها من دُعَاءٍ، وخوفٍ، ورجاءٍ، وتَوكُّلٍ، وصلاةٍ، وصومٍ، وغَيْر ذَلِكَ، مَعَ الإِيمَانِ بتَوْحيد الأَسْماءِ وَالصِّفاتِ، وهُوَ

الإيمانُ بأنَّهُ سُبْحانَه هُوَ الكاملُ في ذاتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، لَهُ الكمالُ المُطْلَقُ في ذاتِهِ، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، لا شريكَ لَهُ، ولا شَبِيهَ لَهُ، ولا كُفُوَ لَهُ سبحانه وتعالى.

وهَذَا هُوَ تَوْحيدُ الأَسْماءِ والصِّفاتِ كَمَا تَقدَّم؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:١-٤] وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورىٰ:١١].

فعَلَىٰ جَمِيعِ المُكلَّفين من الثَّقَلين: الإِيمَانُ بأَسْماءِ الله وصفاتِهِ الوَارِدَة في القُرْآن الكَرِيمِ؛ كالعَزِيز، والحَكِيم، والسَّميع، والبَصِير، والخَلَّاق، والرَّزَّاق، والرَّحْمَنِ الرَّحيم، إِلَىٰ غَيْر ذَلِكَ من أسمائِهِ وصفاتِهِ سبحانه وتعالى.

وعَلَىٰ الجَمِيعِ أَيْضًا: الإيمانُ بِمَا ثَبتَ في السُّنَّة (سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ) مِنْ أَسْماء الله وصفاتِهِ، ثمَّ إِمْرَارُها كَمَا جَاءَتْ من غَيْر تَحْريفٍ، ولا تَعْطيلٍ، ولا تَمْثيلٍ، ولا تَأويلٍ، ولا زِيادةٍ، ولا نُقصانٍ، بَلْ نُؤمِنُ بها، ونُقرُّها، ونُمرُّها كَمَا جَاءَتْ، لا نُحرِّفُ، ولا نُغيِّر، ولا نَزِيد، ولا نَنْقُص، ولا نُؤَوِّلُ شَيْئًا من صِفَاتِ الله، بَلْ هي حقٌّ كُلُّها، يَجِبُ إِثْبَاتُها لله عَلَىٰ الوَجْه اللَّائق بالله مَعَ الإيمان القَطْعيِّ بأنَّهُ سُبْحانَه لا يُشْبه خَلْقَه في شيءٍ من صفاتِهِ جَلَّ وَعَلا.

كَمَا أَنَّه لا يُشْبههم في ذاتِهِ، وهَذَا هُوَ قَوْل أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة من أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ، وأَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ، وهُوَ الَّذي أَجْمعَتْ عَلَيه الرُّسُلُ، وَنَزلَتْ به الكُتُبُ الَّتي أَعْظَمها وأَكْمَلُها القرآنُ الكريمُ، وهُوَ الحقُّ الَّذي لا رَيْبَ فيه، فعَلَيْك يا عَبْدَ الله أن تُؤمِنَ به، وأَنْ تَعضَّ عليه بالنَّواجذ.

ولا بُدَّ مَعَ هَذَا كُلِّه من الإِيمَانِ بالرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ، واتِّباعه مَعَ الإِيمَانِ بجَمِيعِ المُرْسلينَ، ولا بُدَّ أَنْ تُؤمِنَ بكُلِّ ما أَخْبَر اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ من المَلَائكةِ،

والكُتُبِ، وأَمْرِ الجنَّةِ والنَّارِ، والبَعْثِ والنُّشُورِ، والحِسَابِ والجَزَاءِ، وعَذَابِ القَبْر ونعيمِهِ، والإِيمَان بالقَدَر خَيْرِهِ وشَرِّه.

لا بُدَّ مِنَ الإيمَانِ بهَذَا كُلِّه من جَمِيعِ المُكلَّفين مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، والأَحْرَارِ والعَبِيدِ، والعَرَبِ والعَجَمِ، والأَغْنياءِ والفُقَراءِ، والحُكَّام والمَحْكُومينَ، والجنِّ والإنْسِ عَلَىٰ الجَمِيعِ الإيمَانُ بكلِّ ما أَخْبر اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ، هَذَا وَاجِبُهُمْ نَحو دِينِهمْ، وواجبٌ عَلَيهم جميعًا أَنْ يُؤمنُوا بكلِّ ما أَخْبر اللهُ به ورسولُهُ ممَّا كانَ في الدُّنيا من الرُّسُل الماضِين من آدمَ ومَنْ بَعْده من الرُّسُل، وما جَاؤوا بِهِ من الهُدَىٰ، وأنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلا- بَعَثهمْ لدَعْوة النَّاس إلىٰ الخَيْر، والهُدَىٰ، والتَّوحيدِ، وأَنَّهم بَلَّغوا الرِّسالَةَ، وأَدَّوُا الأَمَانةَ، عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام.

ولا بُدَّ مِنَ الإيمَانِ أيضًا بكُلِّ ما مَضَىٰ من أَخْبار المَاضِينَ مِمَّا جَرَىٰ عَلَىٰ قَوْم نوحٍ، وعادٍ، وثَمُود، وغَيْرهم مِمَّنْ قَصَّ اللهُ عَلَينا أَخْبَارَهُمْ.

فعَلَيك يا عبدَ الله: أَنْ تُؤمِنَ بكلِّ مَا أَخْبر الله به ورَسُولُهُ في كتابِهِ العزيز، وَفِيمَا جَاءَتْ به سُنَّة رَسُولِهِ ﷺ الصَّحيحةُ، لا بُدَّ من هَذَا الإيمَانِ، ومِنْ ذَلِكَ: الإِيمَانُ بعَذَاب القَبْر ونعيمِهِ كَمَا تَقدَّم، فإِنَّ القبرَ إِمَّا رَوْضةٌ من رِيَاضِ الجَنَّةِ للمُؤْمنِ، أو حُفْرةٌ من حُفَرَ النَّار للكَافِرِ(١)، أَمَّا العاصِي فهُوَ عَلَىٰ خطرٍ، وقَدْ ينالُهُ في قَبْره ما شَاءَ اللهُ مِنَ العَذَابِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ.

وقَدْ ثَبتَ في «الصَّحِيحَيْنِ» عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ مرَّ عَلَىٰ قَبْرين، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا

---

(١) يشير سماحة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ الحديث الذي أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما القبر رَوْضةٌ من رِياض الجَنَّة، أو حُفرة من حُفر النَّار**»، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٢٣١).

ليُعذَّبانِ، ومَا يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمَّ قالَ: «بَلَىٰ، أَمَّا أَحَدُهُما فكَانَ يَمْشي بالنَّميمَة، وأَمَّا الآخَرُ فكَانَ لا يَسْتترُ مِنَ البَوْل»، الحديث[1].

ومَعْنىٰ: «لايسْتَتِر مِن البَوْلِ»، أي: لَا يَتنزَّه، كَمَا جاءَ ذَلِكَ في رِوَايَةٍ أُخْرىٰ، «فعُذِّبَا في قَبْريهِمَا بِهَاتَيْنِ المَعْصيتين»، وهَذَا عذابٌ مُعجَّلٌ.

وهَذَا الحديثُ يُبيِّن لنا أَنَّ أَمْرَ المَعَاصي خطيرٌ، وأَنَّ الواجبَ عَلَىٰ المُؤْمِنِ أن يَسْتقيمَ عَلَىٰ دينِ الله قولًا، وعملًا، وعقيدةً، وأَنْ يُحافِظَ عَلَىٰ ما أَوْجَب الله عَلَيه، وأَنْ يَحْذَرَ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَأَنْ يُؤْمِنَ بكُلِّ مَا أَخْبر اللهُ به رَسُولَهُ ﷺ، ومِنْ ذَلِكَ ما يَتعلَّق بأَحْوالِ القَبْرِ، وأَحْوالِ النَّاس في قُبُورهِمْ، فالقَبْر إمَّا رَوْضةٌ من رِيَاضِ الجنَّة، وإمَّا حفرةٌ مِنْ حُفَر النَّار، والمَيِّتُ أَوَّل ما يُوضَع في قَبْره يَسْأَلُهُ مَلَكان عن ربِّه، وعن دينِهِ، وعن نَبيِّه، فالمؤمنُ يُثبِّتُهُ اللهُ فيَقُول: رَبِّي الله، والإسلامُ دِينِي، ومُحمَّدٌ ﷺ نَبيي؛ لأَنَّه كَانَ ثابتًا في الدُّنيا عَلَىٰ الحقِّ قَبْل أن يَموتَ، فكانَ بصيرًا بدينِهِ، ثابتًا عَلَيه، فلهَذَا يُثبِّتهُ اللهُ في القَبْر.

وأَمَّا الكافرُ والمُنَافقُ إِذَا سُئِلَ، فإنَّه يَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شيئًا فقلتُهُ، فيُضْرَب بمِرْزبَّةٍ من حديدٍ، فيَصِيحُ صَيْحةً يَسْمعُهُ كلُّ شيءٍ إِلَّا الإنسانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ الإنسانُ لَصُعِقَ[2]، وهَكَذا يُحَاسبهُمُ اللهُ ويُجَازيهم بأَعْمَالِهِمْ.

فالنَّاسُ يُبْعثُونَ، ويُجَازونَ بأَعْمَالِهِمْ بَعْد قِيَامِ السَّاعة، وقَدْ دلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ عَلَىٰ أَنَّ إِسْرافيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْفخ في الصُّور، فيَمُوتُ النَّاسُ المَوْجودُونَ، ثمَّ

(١) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد في «المسند» (٣٠/ ٥٧٦) (١٨٦١٤) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٨).

يَنْفخُ فيه نفخةً أُخرىٰ بَعْدَ ذَلِكَ، فيَبْعثُهُمُ اللهُ، ويَقُومون من قُبُورِهِمْ(١)، ومِنْ كلِّ مكانٍ من البِحَارِ وغَيْرِها، ويَجْمَعهم اللهُ ويُجَازيهم بأَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فخيرٌ، وإِنْ شرًّا فشَرٌّ، هَذَا حقٌّ لَا رَيْبَ فيه، فلَا بُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بهَذَا كُلِّه، والإِعْدَاد له العُدَّة الصَّالحة لتَوْحيد الله، وطاعتِهِ، واتِّباع شريعتِهِ، والحَذَر من مَعْصيتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثمَّ بَعْد هَذَا المَحْشر والقِيَامِ بَيْنَ يَدَي ربِّ العَالَمين ومُجَازاة الخَلْقِ بأَعْمَالِهِمْ جِنِّهِمْ وإِنْسِهِمْ، يَنْصبُ اللهُ المَوَازينَ، ويزنُ بِهَا أَعْمالَ العِبَادِ، فهَذَا يَرجَح مِيزَانُه، وهُوَ السَّعيد، وهَذَا يَخفُّ مِيزَانُه، وهُوَ الهالكُ، وهَذَا يُعْطىٰ كِتابَهُ بِيَمينِهِ وهُوَ السَّعيد، وهَذَا يُعْطَىٰ كِتَابَه بشِمَالِهِ، وهُوَ الشَّقيُّ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ.

فهَذَا المقامُ العظيمُ، وهَذَا الأمرُ الجللُ لا بُدَّ من أن نَسْتحضرَهُ، وأَنْ نعدَّ له عُدَّتَه، فيَوْمَ القِيَامَة يومٌ عظيمٌ، وهُوَ يَوْم الأَهْوالِ والشَّدَائد، ومِقْدارُهُ خَمْسُونَ أَلْف سنةٍ كَمَا قَالَ في كتابِهِ الكريم: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج:٤-٨].

فلا بُدَّ مِنَ الإِعْدَادِ لهَذَا اليَوْم، والإِيمَانِ بأَنَّه حقٌّ.

فعَلَيك يا عَبْدَ الله: أَنْ تُعدَّ له العُدَّة الصَّالحة بتَوْحيد الله، وطاعتِهِ، واتِّباع شَريعتِهِ، وتَعْظيم أَمْره، واجْتِنَاب نَهْيه، والتَّعَاون عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ مَعَ إِخْوانِكَ المُسْلمينَ، والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر عَلَيه، والأَمْر بالمَعْروف، والنَّهْي عن المُنْكر، وإِرْشَاد الضَّالِّ، وتَعْليم الجَاهِلِ... إلىٰ غير ذَلِكَ من وُجُوهِ الخَيْر والنُّصْح.

---

(١) كما دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر:٦٨].

فعلَيْكَ يَا عَبْدَ الله، وعلَيكِ يا أَمَةَ الله، العناية بهذا الأمْر، والإعْدَاد لَهُ، وعلَىٰ الجَمِيعِ أَنْ يَتَّقوا اللهَ، ويُطِيعُوا أَمْرَه، ويَتَوَاصوا بالحقِّ والصَّبر عليه، وأَنْ يُعلِّموا الجاهلَ، ويُرْشِدُوا الضَّالَّ، ويَنْصَحوا لله ولعبادِهِ، وأَنْ يَأْمُرُوا بالمَعْروفِ، ويَنْهوا عَنِ المُنكر؛ كَمَا قَالَ تَعالىٰ في كِتَابِهِ العَظِيم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١]، وَيَقُولُ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر]، وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة:٢].

وَالمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ القِيَامَة رؤيةً حقيقيَّةً يُكلِّمهُمْ سُبْحانَه، ويُرِيهِمْ وَجْهه الكَرِيم(١)، هذِهِ عَقِيدَةُ أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة، أَجْمَع أَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعة عَلَىٰ أَنَّ الله سُبْحانَه يَرَاه المُؤْمنونَ يَوْمَ القِيَامَة يُرِيهِمْ وَجْهَه الكريمَ جَلَّ وَعَلا، ويَحْجب عنه الكُفَّار كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين:١٥]، فالمُؤْمنونَ يَرَوْنه سُبْحانَه، والكُفَّار مَحْجُوبونَ عَنْه، هذِهِ الرُّؤية العظيمة آمَنَ بِهَا أَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعة، وَأَجْمَعوا عَلَيها، وهَكَذا فِي الجَنَّة يَرَاه

---

(١) أخرج البخاري (٤٨٥١)، ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله، قال: كنا جلوسًا ليلة مع النبي ﷺ، فنظر إلىٰ القمر ليلة أربع عشرة، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩].

المُؤْمنونَ، وذَلِكَ أَعْلَىٰ نَعِيمِهِمْ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فَالحُسْنَىٰ: الجَنَّةُ. وَالزِّيادةُ: النَّظَر إلىٰ وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ مَعَ ما يَزِيدُهُم اللهُ به من الخَيْرِ والنَّعيمِ المُقِيمِ الَّذي فَوْق ما يَخْطر بِبَالِهِمْ.

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ [الانفطار:١٣-١٥]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣].

فَالمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ اللهَ سُبْحانَه فِي القِيامَة، وَفِي الجَنَّة رؤيةً عظيمةً حقيقيَّةً، لَكِنْ من دون إِحَاطةٍ؛ لأَنَّه سُبْحانَه أجلُّ وأعظمُ مِنْ أن تُحِيطَ به الأَبْصَارُ من خَلْقه، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام:١٠٣].

وَالمَعْنَىٰ: أَنَّها لَا تُحِيطُ بِهِ؛ لأنَّ الإِدْرَاكَ أَخصُّ، والرُّؤيةَ أَعمُّ؛ كَمَا قَالَ تَعالىٰ في قِصَّةِ مُوسَىٰ وفِرْعَون: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء:٦١].

فأَوْضَح سُبْحانَه أنَّ التَّرائي غَيْر الإِدْرَاك، وَقَالَ جَمْعٌ من السَّلَف في تَفْسير الآية المَذْكورة مِنْهُمْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنَّ المُرَاد أنَّهم لا يَرَوْنه في الدُّنيا.

وعَلَىٰ كِلَا القَوْلينِ فَلَيْسَ فِيهَا حُجَّةٌ لمَنْ أَنْكَر الرُّؤيةَ من أَهْلِ البِدَعِ؛ لأنَّ الآياتِ القُرْآنيَّةَ الأُخْرىٰ الَّتي سَبَق بَيَانُها مَعَ الأَحَاديث الصَّحيحة المُتَواترة كُلُّها قَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ إِثْباتِ رُؤيَة المُؤْمِنِينَ لرَبِّهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ، وَفِي الجنَّة، وأَجْمَع عَلَىٰ ذَلِكَ الصَّحَابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وأَتْباعُهُمْ من أَهْلِ السُّنَّة، وشَذَّت الجَهميَّةُ وَالمُعْتزلةُ والإباضيَّةُ، فَأَنْكَرُوها، وقَوْلهم من أَبْطَل البَاطِلِ، ومِنْ أَضَلِّ الضَّلَال.

نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ والسَّلامةَ مِمَّا ابْتَلاهُمْ بِهِ، ونَسْأَلُ اللهَ لَنَا وللمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ الهدايةَ والرُّجُوعَ إلىٰ الحقِّ.

وصَحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «إِذَا دَخَل أَهْلُ الجنَّةِ الجنةَ، قَالَ: يَقُولُ الله تَبارك وتَعَالىٰ: تُرِيدُونَ شيئًا أَزِيدُكُمْ؟ فيَقُولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخلنا الجنَّةَ، وتُنْجنا من النَّار؟ قالَ: فيُكْشَفُ لهم الحجابُ، فَمَا أُعْطُوا شيئًا أحبَّ إِلَيْهم من النَّظَر إلىٰ رَبِّهمْ عَزَّوَجَلَّ»، رَواه مسلمٌ[1].

فيَرَوْنَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رؤيةً حقيقيَّةً، وذَلِكَ أَعْلَىٰ نَعِيمِهِمْ، وأَحبُّ شَيءٍ إِلَيْهِمْ، جَعَلنا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ، وقَدْ أَجْمعَ أَهْلُ الحقِّ من أَهْل السُّنَّة والجَماعة عَلَىٰ هذه الرُّؤيَة كَمَا تَقدَّم.

وقَدْ حَكَىٰ ذَلِكَ عَنْهم أَبُو الحَسَن الأشعريُّ في كتابِهِ: «مَقَالات الإِسْلاميِّينَ»، وحَكَىٰ ذَلِكَ شَيْخ الإِسْلَام ابن تَيميَّة رَحِمَهُ اللهُ، وذَكَر إِجْماعَ أَهْلِ السُّنَّة عَلَىٰ ذَلِكَ، وذَكَر أَنَّ جُمْهورَ أَهْلِ السُّنَّةِ يُكفِّرون مَنْ أَنْكَر هذِهِ الرُّؤية[2].

فجُمْهُور أَهْلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ يَرَوْن أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ هذِهِ الرُّؤية فَهُوَ كافرٌ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ والعافيةَ.

أَمَّا في الدُّنيا، فإنَّه سُبْحانَه لا يُرَىٰ فِيهَا، فالرُّؤيةُ نعيمٌ عظيمٌ، والدُّنيا لَيْسَتْ دارَ نَعِيمٍ، ولَكِنَّها دارُ ابْتِلَاءٍ وامتحانٍ، ودَارُ عملٍ، فلهَذَا ادَّخَر اللهُ سُبْحانَه رُؤيتَه، ادَّخَرها لعبادِهِ فِي الدَّار الآخرة، حتَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَرَ ربَّه في الدُّنيا عِنْدَ جُمْهور العُلَماء، كَمَا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فقَالَ: «رأيتُ نورًا»[3]، فلم يَرَ -عَلَيه الصَّلاة

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢) عن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٣٤٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٤٨١).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨) عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والسَّلام- رَبَّه يقَظةً[(١)].

وقَالَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «**اعْلَموا أَنَّه لَنْ يَرَىٰ أحدٌ مِنْكُمْ رَبَّه حتَّىٰ يَمُوتَ**»، أَخْرَجه مسلمٌ في «صَحِيحِهِ»[(٢)]، فلَيْسَ أحدٌ يَرَىٰ رَبَّه في الدُّنيا أبدًا، لَا الأَنْبِيَاءُ، وَلَا غَيْرهُمْ، وإِنَّمَا يُرَىٰ في الآخِرَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعَلَىٰ المُسْلم أَنْ يُؤمِنَ بهَذَا، وبكُلِّ مَا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وأَنَّ الجنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ، وأَنَّ أَهْلَ الإِيمَانِ يَدْخلون الجنَّة، ويَرَوْنَ رَبَّهمْ سُبْحانَه في القِيَامَة، وفي الجنَّة كَمَا يَشَاء سُبْحانَه، وأَنَّ الكُفَّارَ يَصِيرُونَ إلىٰ النَّار مُخلَّدين فيها، نَعُوذُ بالله من ذَلِكَ، وأَنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ، لَا يَرَوْنَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا في القِيَامَة، وَلَا في غَيْرها، بَلْ هُمْ عَن الله مَحْجُوبُونَ لِكُفْرِهِمْ وضَلَالِهِمْ، وأَمَّا العَاصِي فهُوَ عَلَىٰ خطرٍ، لَكِنْ مآلُهُ إلىٰ الجنَّة وإِنْ دَخَل النَّار بسَبَب مَعْصيتِهِ، فإِنَّه لا يُخلَّد فيها، بَلْ يَخْرج منها، فيَصِيرُ إِلَىٰ الجنَّة كَمَا تَواتَرت بذَلِكَ الأَحاديثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وأَجْمَع عَلَيه أَهْلُ السُّنَّة خِلَافًا للخَوَارج ومَنْ تَابَعَهُمْ.

وأَمَّا المُسْلمُ المُوحِّدُ العَاصِي، فهُوَ عَلَىٰ خَطَرٍ من دُخُول النَّار بمَعَاصِيهِ، ومِنْ تَعْذِيبِهِ في القَبْرِ بمَعَاصيه كَمَا تَقدَّمَ، ولَكِنَّ مَصِيرَه إلىٰ الجنَّة بَعْدَ ذَلِكَ وإِنْ دَخَل النَّار، وإِنْ جَرَىٰ عَلَيه بَعْض العَذَاب، فأَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعة مُجْمِعُونَ عَلَىٰ أَنَّ العُصَاةَ لَا يُخلَّدونَ في النَّار خلافًا للخَوَارجِ والمُعْتزلةِ ومَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجهم، فأَهْلُ السُّنَّة والجَمَاعة مُجْمِعُونَ عَلَىٰ أَنَّ العَاصِي المُوحِّد المُؤْمن لَا يُخلَّد في النَّار، بَلْ هُوَ تَحْتَ مشيئةِ اللهِ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مختصر الفتاوىٰ المصرية» (٢/ ٣٧): «ولم يَثبت بسند صحيح عن أحدٍ من الصَّحَابة أنَّه قال: رآه بِعَيْنَي رأسه، بل يقول: رآه بفؤاده، أو يقول: رآه ويُطلق».

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩) عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، فإِنْ شَاءَ اللهُ عَفَا عنه، ودَخَل مع إخوانِهِ في الجنَّة مِنْ أَوَّل وَهْلةٍ، وإنْ لَمْ يَعْفُ عنه، صَارَ إلىٰ النَّارِ، وعُذِّبَ فيها عَلَىٰ قَدْر مَعَاصيه، ثمَّ بَعْد التَّعْذيبِ والتَّطْهيرِ يَصِيرُ إلىٰ الجنَّةِ كَمَا تَوَاترتْ بذَلِكَ الأحاديثُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، هَكَذا قالَ أَهْلُ السُّنَّةِ والجَمَاعة، وَقَدْ يُعذَّب العَاصِي فِي قَبْره، وقَدْ يُعذَّب في النَّار؛ لأنَّهُ ماتَ عَلَىٰ الزِّنا، أو عَلَىٰ شُرْبِ الخَمْر، أَوْ عَلَىٰ عُقُوقِ الوَالِدَيْنِ، أَوْ عَلَىٰ الرِّبَا، أَوْ عَلَىٰ غَيْر ذَلِكَ مِنَ الكَبَائر إِنْ لَمْ يَعْفُ اللهُ عَنْه.

وَقَدْ أَخْبَر اللهُ سُبْحانَه في الآيَةِ السَّابقة أنَّ الشِّرْكَ لا يُغْفر لمَنْ ماتَ عَلَيه كما أَخْبَر اللهُ سُبْحانَه في آيةٍ أُخرىٰ أَنَّ مَنْ ماتَ عَلَيه فلَهُ النَّار -وَالعِيَاذُ باللهِ- مُخلَّدًا فيها، لا يُغْفَر له، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة:١٧].

وأَمَّا العَاصِي فهُوَ تَحتَ مَشِيئَةِ الله، إِنْ شَاءَ رَبُّنا غَفَر له وعَفَا عنه، فضلًا منه وَجُودًا وكَرَمًا بسَبَب أَعْمالِهِ الصَّالحة، أَوْ بِشَفَاعة الشُّفَعاء، أو بمُجرَّد فَضْلِهِ وإحسانِهِ بدون شَفَاعةِ أَحَدٍ، أَوْ بأَسْبابٍ أُخرىٰ من أَعْمالٍ صالحةٍ تكُونُ سَببًا لعَفْو الله... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الأَسْبَاب، هَذَا إِذَا لَمْ يَتُبْ، أَمَّا مَنْ تاب، فإنَّ اللهَ -جَلَّ وَعَلا- يُلْحقه بإخوانِهِ المُؤْمِنِينَ من أَوَّل وَهْلةٍ، فضلًا منه وإحسانًا.

ومِنْ تَمَام حَقِّ الله عَلَيك يا عَبْدَ الله في هذِهِ الدَّار أَنْ تَعْتني بصَلَاتك، وتُحَافظَ عَلَيها فِي جَمَاعةٍ مَعَ إِخْوَانك المُسْلمينَ، وأَنْ تَبْتعدَ عَنْ مُشَابهة المُنَافِقِينَ المُتكَاسِلِينَ عَنْها، الَّذين ذَمَّهم اللهُ في قَوْله تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ

وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ [النساء:١٤٢].

ومِنْ حَقِّ الله عَلَيك: أَنْ تُؤدِّي الزَّكاةَ (زَكَاةَ مَالِكَ) بكُلِّ عِنَايةٍ، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسك، وأَنْ تَصُومَ رَمَضان كَمَا أَمَرك اللهُ، وأَنْ تحجَّ البيتَ مرَّةً واحدةً في العُمُر؛ لأنَّ اللهَ سُبْحانَه أَوْجَبَ عَلَيك ذَلِكَ مَعَ الاسْتِطَاعَة، وأَنْ تُؤدِّي ما أَوْجَب اللهُ عَلَيك من برِّ وَالِدَيْكَ، وَصِلَةِ أَرْحَامك، وصِدْقِ الحَدِيثِ، وأَدَاءِ الأَمَانَة، والجِهَادِ في سَبِيلِ الله إِذَا تيَسَّر ذَلِكَ بالنَّفسِ، وبِالمَالِ، وَبِاللِّسَانِ.

وأَنْتُمُ الآنَ عِنْدكُمْ جِهَادٌ، جِهَادُ إِخْوَانِكُمْ الأَفْغَان للشِّرْك بالله، والشُّيوعيَّةِ.

هَؤُلَاءِ الإِخْوَان المُجَاهِدُونَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَيكم: أَنْ تُسَاعِدُوهُمْ بالنَّفْس، والمالِ، واللِّسانِ، فَهُمْ مُجَاهِدُونَ للشِّرْكِ والإِلْحَادِ، وَالشُّيوعيَّةِ، فَنُوصِيكُمْ جَمِيعًا بِمُسَاعَدتِهِمْ بِالنَّفْسِ، والمَالِ، واللِّسانِ، ومَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يُسَاعِد إِلَّا فلانًا مِنْهُمْ أو فلانًا؛ فَقَدْ غَلِطَ وأَخْطَأَ، بَلِ الواجبُ أَنْ يُسَاعِد الجميعَ حتَّىٰ يَفْتحَ اللهُ عَلَيهم، ويُمكِّنُهمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، ومِنْ جُمْلتِهِمْ الشَّيخ جَمِيل الرَّحْمَن وَفَّقهُمُ اللهُ جميعًا، ونَصَرهم عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ، فكُلُّهُمْ مُسْتحقُّونَ للمُسَاعدة، كُلُّهُمْ يجبُ أَنْ يُسَاعَد، وكُلُّهُمْ -بحَمْد الله- عَلَىٰ جهادٍ شرعيٍّ، وجهادٍ إسلاميٍّ، ومَا قَدْ يَقَع مِنْ بَعْضِهِمْ مِنَ الخَطَإِ وَالغَلَطِ يُعَالج بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، فكُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، فإِذَا وَقَع الخَطَأُ والغَلَطُ مِنْ بَعْض القَادَة، أَوْ غَيْرهم، يُنبَّه إِلىٰ خَطَئِه، ولَيْس أحدٌ مِنْهُمْ مَعْصومًا، بَلْ يجبُ أَنْ يُبيَّن لَهُ ما قَدْ أَخطَأ فيه، ويُوجَّه إِلىٰ الخَيْر، ويَجِبُ أَنْ يُعَان الجميعُ عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، وأَنْ يُجَاهد مَعَ الجَمِيعِ بالنَّفْسِ والمَالِ واللِّسانِ؛ لأنَّ جِهَادَهمْ جهادٌ عظيمٌ، وجهادٌ شرعيٌّ لأَكْفَر دَوْلةٍ وأَخْبَثها.

ومَكَاتِبُ هَيْئة اسْتِقْبالِ التَّبرُّعاتِ مَوْجُودةٌ في الرِّياض وغَيْرها، وهَكَذا محلُّ

الرَّاجحي، ومَحلُّ السبِيعِي، كُلُّها تَسْتقبل المُسَاعدةَ للمُجَاهدين بأَمْر خَادِمِ الحَرَمين الشَّريفين وَفَّقَه الله.

وهَكَذا إِخْوَاننا في فِلَسْطين، لَهُمْ حقٌّ عَلَىٰ جَمِيعِ الدُّول الإِسْلاميَّة، وأَغْنِيَاءِ المُسْلمينَ أَنْ يُسَاعدُوهُمْ في جِهَادِهِمْ، وَأَنْ يَقُومُوا مَعَهمْ حتَّىٰ يَتخلَّصوا مِنْ عَدُوِّ الله اليَهُودِ.

فَاليَهُودُ شَرُّهُمْ عظيمٌ، وبَلَاؤهُمْ كبيرٌ، وَقَدْ آذَوْا إِخْوَانَنا المُسْلمينَ في فِلَسْطين، فالوَاجِبُ عَلَىٰ الدُّول الإسلاميَّة، وعَلَىٰ جَمِيعِ المُسْلمينَ القَادِرينَ أَنْ يُسَاعدُوهُمْ في جِهَادِ أَعْداءِ اللهِ اليَهُودِ حتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنهم وبَيْنَ المُسْلمينَ، وهُوَ خَيْر الحَاكِمِينَ، وذَلِكَ بنَصْر الله لَهُمْ عَلَىٰ اليهود، وإِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِ المُسْلمينَ، أَو الصُّلح بَيْنهُمْ وبَيْنَ دَوْلة فِلَسطين صُلحًا يَنْفعُ المُسْلمينَ، ويَحْصل بِهِ للفِلَسْطينيِّينَ إقامةُ دَوْلتِهِمْ وقَرَارهِمْ في بِلَادِهِمْ، وَسَلَامتهم مِنَ الأَذَىٰ والظُّلْمِ، فيَجِبُ عَلَىٰ الدُّول الإسلاميَّة أَنْ تَقُومَ بهَذَا الأَمْر حَسْبَ الطَّاقة والإِمْكَانِ.

وأَمَّا بَقَاؤُهُمْ في حربٍ مَعَ اليهود، وَفِي أَذًىٰ عظيمٍ، وضررٍ كبيرٍ عَلَىٰ رِجَالِهِمْ، ونِسَائِهِمْ، وأَطْفَالِهِمْ، فهَذَا لا يَسُوغ شرعًا، بَلْ يجب عَلَىٰ الدُّول الإسلاميَّة والأَغْنيَاء وَالمَسْؤولين مِنَ المُسْلمينَ أَنْ يَبْذلُوا جُهُودَهُمْ ووُسْعَهمْ في جِهَادِ أَعْداءِ اللهِ اليَهُود، أَوْ فِيمَا يَتيسَّر من الصُّلح -إِنْ لَمْ يَتيسَّر الجهادُ- صلحًا عادلًا يَحْصل به للفِلَسطينيِّين إقامةُ دَوْلتهم عَلَىٰ أَرْضهم، وَسَلَامَتهم من الأَذَىٰ من عَدُوِّ الله اليهود مِثْلَما صالحَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ[1]، وأَهْلُ مَكَّةَ ذَلِكَ الوقتِ أَكْثرُ من اليَهُودِ؛ لأَنَّ المُشْركينَ الوَثنيِّينَ أَكْفَر من أَهْلِ الكِتَابِ، فقَدْ أَباحَ الله

(١) أي: الصلح المشهور في السيرة بـ«صلح الحُديبية».

طَعامَ أَهْلِ الكِتَابِ والمُحْصَناتِ مِنْ نِسَائِهِمْ[١]، وَلَمْ يُبِحْ طَعَامَ الكُفَّار مِنَ المُشْركينَ، وَلَا نِسَائِهِمْ، وصَالَحهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ وَضع الحَرْب عَشْرَ سنين يَأْمُنُ فيها النَّاسُ، ويكفُّ بَعْضُهم عَنْ بعضٍ، وكانَ في هذا الصُّلح خيرٌ عظيمٌ للمُسْلمينَ، وإِنْ كان فيه غَضَاضةٌ عَلَيهم بَعْض الشَّيء، لَكِنْ رَضِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ للمَصْلحة العامَّة.

فإِذَا لَمْ يَتيسَّرْ الاستيلاءُ عَلَىٰ الكَفَرة، والقَضَاء عَلَيهم، فالصُّلحُ جائزٌ لمَصْلحةِ المُسْلمينَ وأَمْنِهِمْ وإِعْطَائِهِمْ بَعْض حُقُوقِهِمْ.

وهَذَا أمرٌ مطلوبٌ، وقَدْ عُلِمَ في الأُصُولِ المُعْتبرة أَنَّ ما لا يُدْرَكُ كُلُّه، لَا يُتْرك كُلُّه، ولهَذَا صَالَحهُمْ ﷺ عَشْرَ سنين عَلَىٰ وَضع الحرب، وصَبَر عَلَىٰ بَعْض الغَضَاضة في ذَلِكَ لِمَصْلَحة المُسْلمينَ وأَمْنِهِمْ، حتَّىٰ يَتَّصلوا بالنَّبِيِّ ﷺ، وحتَّىٰ يَسْمعوا القرآنَ.

ولهَذَا كانَ صلحًا عظيمًا، وفتحًا مبينًا نَفَعَ اللهُ به، وصارَ النَّاسُ يَتَّصلونَ بالنَّبِيِّ ﷺ، وبِالصَّحابَةِ، ودَخل بِسَبَب هَذَا الصُّلح جمٌّ غفيرٌ، وأُمَمٌ كثيرةٌ في الإِسْلَام دَخلوا في دِينِ اللهِ، وتَركوا الكُفْرَ بالله عَزَّوَجَلَّ.

فعَلَىٰ جَمِيعِ المُسْلمينَ أيضًا: أَنْ يَتعاوَنوا عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، ويَتواصَوْا بالحقِّ والصَّبر عليه، ويَتعلَّموا دِينَهُمْ، وَيَتفقَّهوا فيه حتَّىٰ يَكُونُوا عَلَىٰ بصيرةٍ بجِهَادِهِمْ وسِلْمِهِمْ، وصُلْحِهِمْ وحَرْبِهِمْ.

---

(١) قال الله سُبْحَانَهُ: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ ﴾ [المائدة:٥].

هَكَذا يَجِبُ عَلَىٰ المُسْلمينَ أَنْ يَتعلَّموا، فالإِنْسانُ مَا خُلِقَ عالمًا، بَلْ خُلِقَ جاهلًا، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

فَالوَاجِبُ عَلَىٰ الجَمِيعِ من الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ: التَّعلُّم وَالتَّفقُّه في الدِّين من طَرِيقِ المُكَاتبة، ومِنْ طَرِيقِ سَمَاع المَقَالات العلميَّة في إِذَاعَة القُرْآنِ الكريم، وغَيْرِها، ومِنْ بَرْنَامج «نور عَلَىٰ الدَّرْب»، فهُوَ برنامجٌ مفيدٌ عظيمٌ، وهُوَ يُذَاع كلَّ ليلةٍ مَرَّتينِ؛ في نِدَاءِ الإِسْلَامِ، وَفِي إِذَاعَة القُرْآنِ الكَرِيمِ، وهَذَا البرنامجُ لَهُ فائدتُهُ العظيمةُ.

وَكَذَلِكَ سَمَاع المَوَاعظ والمُحَاضرات الَّتي تُذَاع في إِذَاعَةِ القرآنِ الكريمِ، وغَيْرِها.

وَكَذَا العِنَايَةُ بخُطَب الجُمُعة والاسْتِفَادة مِنْهَا، ومِنَ المُحَاضرات والنَّدَوات الَّتي يَقُومُ بِهَا العُلَماءُ، وحُضُور حَلَقَات العِلْمِ وَالاسْتِفَادَة مِنْها، وهَذَا واجبٌ عَلَىٰ الجَمِيعِ عَلَىٰ الرِّجال والنِّساء أَنْ يَتعلَّموا ويَتفقَّهوا في دِينِهِمْ؛ لِقَوْل النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحيح: «**خَيْرُكم مَنْ تَعلَّم القرآنَ وعَلَّمه**»(١).

فَخِيَارُ النَّاسِ أَهْلُ القُرْآنِ الَّذين يَتعلَّمونَهُ ويُعلِّمونَهُ النَّاس، ويَعْملُونَ به، وَقَالَ ﷺ في الحَدِيثِ الصَّحيح: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين**»(٢).

وهَذَا يدلُّ عَلَىٰ أنَّ الَّذي لا يَتفقَّه في الدِّين مَا أَرَاد اللهُ به خيرًا، نَسْأَلُ اللهَ العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

فَالوَاجِبُ: التَّعلُّم والتَّفقُّه في الدِّين عَلَىٰ الرِّجال والنِّساءِ؛ قَالَ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتمسُ فِيهِ علمًا، سَهَّل اللهُ لَهُ به طريقًا إلىٰ الجَنَّةِ»(١).

فأُوصِيكُمْ جميعًا أيُّها الأُخْوة من الرِّجَال والنِّساء، وأُوصِي جَمِيعَ مَنْ تَبْلغُهُ هذِهِ الكلمة: أن يَتَّقِي اللهَ، وَأَنْ يَتعلَّمَ ويَتفقَّه في الدِّينِ، وأَنْ يَعْتني بكتابِ اللهِ (القُرْآن الكريم)، وأَنْ يُكْثرَ من تِلَاوتِهِ، ويَحْفظ ما تَيسَّر منه، فَإنَّه كِتَابُ الله، فِيهِ الهُدَىٰ والنُّور، كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤]، ويَقولُ سُبْحانَه: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٥]، وَيَقُولُ جَلَّ وَعَلا: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩]، وَيَقُولُ سُبْحانَه: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

فَالوَصيَّة للجَمِيعِ: العنايةُ بالقُرْآنِ الكَرِيمِ، والإِكْثَارُ مِنْ تِلَاوتِهِ وتَدبُّر مَعَانيه، وَالسُّؤال عَمَّا أَشْكَلَ عَلَيك إِذَا كُنْتَ طالبَ عِلْمٍ، وهَكَذا المرأةُ إِذَا كَانَتْ طالبةَ عِلْمٍ، فعَلَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنْ يُعَالجَ ويُرَاجع كُتُبَ التَّفسير فيما أَشْكَل عَلَيه؛ كـ«تَفْسير ابْنِ كثير» و«البغوي»، وغَيْرهما من كُتُب التَّفسير المَعْروفة الَّتي تَذْكر الأَدلَّة.

فعَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ من الرِّجالِ وَالنِّساءِ: أَنْ يَتأمَّلَ، ويَتدبَّر، ويَتفقَّه ويَتعلَّم، وهَكَذا العَامَّة عَلَيهم أن يَسْألوا ويَسْمعوا خُطَبَ الجُمُعة، والمُحَاضرات، والنَّدوات، و«نور عَلَىٰ الدَّرب» الَّذي يَسَّره اللهُ في كلِّ ليلةٍ، فَفِيهِ سُؤالاتٌ وأجوبةٌ مُهِمَّةٌ تُفِيدُ مَنْ يَسْمَعها إِذَا قَصَد الفَائِدَةَ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٦٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أمَّا التَّهاونُ والإعراضُ، فهَذَا من عَمَل الكُفَّارِ، قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝ ﴾ [الأحقاف:٣]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [الكهف:٥٧]، فَالوَاجِبُ التَّعلُّم والتَّفقُّه في الدِّين، وسُؤالُ أَهْل العِلْمِ عَمَّا أَشْكَلَ.

وهَذَا كتابُ الله بَيْنَ أَيْدينا، فيه الهُدَىٰ والنُّور، وهَكَذا سُنَّة الرَّسُول ﷺ بَيْنَ أَيْدِينَا تَدلُّ عَلَىٰ الحقِّ، وتُرْشدُ إِلَيْهِ، وتُبيِّن ما قَدْ يَخْفىٰ من كِتَابِ الله عَزَّوَجَلَّ كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [النحل:٤٤]، وَالعُلَماءُ مَوْجُودُونَ -بحَمْدِ الله- نَسْأل اللهَ أَنْ يُبَارك فيهم، ويُعِينَهُمْ عَلَىٰ أداءِ الوَاجِبِ، ويُكثِّرهم، ويَمْنحهم التَّوفيقَ، ويُوفِّقهم لكلِّ خيرٍ، ويُعِينهم عَلَىٰ ما يَنْفع الأُمَّة في دِينِهَا ودُنْيَاها، إنَّهُ جوادٌ كريمٌ.

وقَدْ أَخَذ اللهُ الميثاقَ بذَلِكَ عَلَىٰ النَّاس أَنْ يَتعلَّموا، ويَتبصَّروا، ويَسْألوا، ولا يَسْتَحْيوا من طَلَب العِلْمِ، فإنَّ اللهَ لَا يَسْتحي من الحقِّ، فأُمُّ سُلَيْمٍ امرأةُ أَبِي طَلْحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ والنَّاسُ يَسْمعونَ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ اللهَ لا يَسْتحي من الحقِّ، فهَلْ عَلَىٰ المَرْأة من غُسْلٍ إِذَا هي احْتلَمَتْ؟ فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، إِذَا هِيَ رَأَتِ الماءَ**»[(١)]، يَعْني المَنِيَّ.

فإِذَا احْتلَمَ الرَّجُلُ أو المرأةُ في النَّوْم في اللَّيل أو النَّهار، فعَلَيْهما الغُسْلُ إِذَا رَأَيَا المَنِيَّ، فإِذَا لَمْ يَرَيا المَنِيَّ فَلَا غُسْلَ عَلَيهما، وهَكَذا إذا قَبَّلَ زَوْجتَه، أَوْ نَظر إليها، أو تَفكَّر وأَنْزَل المنيَّ، عَلَيه الغُسْل، وهَكَذا المرأةُ إِذَا قَبَّلَتْ زَوْجَها، أو نَظَرتْ إِلَيْه، أو تَفكَّرتْ ثمَّ أَنْزَلتْ المنيَّ، فعَلَيها الغُسْلُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠)، ومسلم (٣١٣) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَالتَّعلُّمُ والتَّفقُّهُ في الدِّين من أَهَمِّ الوَاجِبَاتِ، وَلَا سِيَّما في عَصْرنا هَذَا (عَصْر الغُرْبة، قِلَّة العِلْمِ والعُلَماء)، فالوَاجِبُ التَّعلُّم والتَّفقُّه في الدِّين؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفقِّهه في الدِّين**»؛ مُتَّفقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ[1].

وممَّا يُبشِّر بالخير أَنَّ في كلِّ مكانٍ -بحَمْد الله- يَقَظةً عظيمةً، وصحوةً ظاهرةً، ورغبةً في التَّعلُّم والتَّفقُّه في الدِّين في هذِهِ البلاد، وَفِي أُورُوبا، وَفِي أَمْريكا، وفي آسيا، وفي إفريقيا.

فَفِي كُلِّ بلدٍ -بحَمْد الله- حَرَكةٌ إسلاميَّةٌ، ونَشَاطٌ إسلاميٌّ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُسدِّد رَأْيَهُمْ، وأَنْ يُعِينَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ خيرٍ، ونَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُصْلحَ القَائِمِينَ عَلَىٰ كُلِّ نَشَاطٍ إسلاميٍّ، كَمَا نسألُهُ تَعَالىٰ أَنْ يَمْنحَهُمُ القادةَ الصَّالحينَ، والعُلَماءَ المُوفَّقينَ حتَّىٰ يَقُودُوا هذِهِ الحَرَكات الطَّيِّبة إِلَىٰ الهُدَىٰ، وإِلَىٰ الأَمَام عَلَىٰ الوَجْه الَّذي يُرْضِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وعَلَىٰ كُلٍّ مِنَّا أَنْ يَعْتنِي بهَذَا الأَمْر، وَيُسْهِمَ فِيهِ بقَدْر طَاقتِهِ في تَعْليم النَّاسِ وتَوْجِيهِهِمْ إِلَىٰ الخَيْر بالرِّفق، والحِكْمَةِ، والأُسْلوبِ الحَسَنِ، والإِخْلاصِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَلَىٰ كلٍّ منَّا أَنْ ينصحَ للهِ ولعبادِهِ؛ عَملًا بقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصيحةُ**»، قِيلَ: لمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**للهِ، ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأَئمَّةِ المُسْلمينَ وعَامَّتهِمْ**»، رَوَاه مسلمٌ في «صحيحِهِ»[2].

فكلُّ واحدٍ منَّا من الرِّجالِ والنِّساءِ عَلَيه النَّصيحةُ لله ولعبادِهِ، ومِنَ النَّصيحةِ للهِ ولِلْعِبَادِ تَعْليمُ الجَاهِلِ وإِرْشَادُ الضَّالِّ، والأَمْرُ بالمَعْروف، والنَّهْيُ عَنِ المُنْكر

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بالحِكْمَةِ والكَلَامِ الطَّيِّبِ، والأُسْلُوبِ الحَسَنِ، لَا بالعُنْفِ والشِّدَّة إِلَّا مَنْ ظَلَم، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وَالظَّالمُ المُعْتَدي له شأنٌ آخر من جهةِ وُلَاة الأُمُور، لَكِنْ أَنْتَ أَيُّها النَّاصح تَدْعو إلىٰ اللهِ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ، فتُعلِّم، وتُوجِّه، وتَأْمُرُ بالمَعْروف، وتَنْهىٰ عن المُنْكر بالحِكْمَةِ، والكَلَامِ الطَّيِّبِ، وبالأُسْلوبِ الحَسَنِ؛ عَمَلًا بالآية السَّابقة، وبِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وَقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ﴾، الآية [آل عمران:١٥٩].

وَمِنَ النَّصِيحَةِ لله ولِعِبَادِهِ: الدُّعاء لوُلَاة أُمُور المُسْلمينَ وحُكَّامهم بالتَّوْفيقِ، والهِدَايَةِ، والصَّلاح فِي النِّيَّة والعَمَل، وأَنْ يَمْنَحَهُمُ اللهُ البِطَانةَ الصَّالحةَ الَّتي تُعِينُهُمْ عَلَىٰ الخَيْر، وتُذَكِّرُهُمْ بِهِ.

وهَذَا حقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلمٍ في كلِّ مكانٍ في هذِهِ البِلَادِ، وفِي غَيْرِها: الدَّعوة لوُلَاة الأَمْر بالتَّوفيقِ والهِدَايةِ، وحُسْن الاسْتِقَامَة، وصَلَاح البِطَانَة، وأَنْ يُعِينَهُمْ اللهُ عَلَىٰ كلِّ خيرٍ، وأَنْ يُسدِّد خُطَاهم، ويَمْنَحَهُم التَّوفيقَ لِمَا فيه صلاحُ العِبَادِ والبِلَادِ.

فكُلُّ مُسْلمٍ يَدْعو اللهَ لوُلَاة أُمُور المُسْلمينَ بأَنْ يُصْلحهم الله، وأن يَردَّهم للصَّواب، وأَنْ يَهْديهم لِمَا يُرْضيه سُبْحانَه، هَكَذا يجبُ عَلَيك يا عبد الله أن تَدْعو لوُلَاة الأُمُور بأَنْ يَهْديهم الله ويَردَّهم للصَّواب، إذا كانوا عَلَىٰ غَيْر هُدًىٰ تَدْعو اللهُ لهم بالهِدَايَة والصَّلاح حتَّىٰ يَسْتقيموا عَلَىٰ أَمْر الله، وحتَّىٰ يُحكِّموا شريعةَ اللهِ، ففي تَحْكيم شَرِيعَةِ اللهِ صَلَاحٌ لِلجَميعِ في كلِّ مكانٍ، وفي تَحْكيم شَريعَةِ الله،

واتِّبَاع كِتَابِ الله، وسُنَّة رَسُولِهِ ﷺ صَلَاح الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّ اللهَ إذا عَرَفَ مِنْ عبدِهِ نِيَّةً صالحةً، وعزيمةً صادقةً، سَدَّد رَأيه، وأعَانه عَلَىٰ كلِّ عملٍ يُرْضيه في أيِّ مكانٍ؛ لأنَّ في اتِّبَاع الشَّريعة، وتَعْظيم أمْر الله ورسولِهِ، صلاحَ أمْر الدُّنيا والآخرة.

فكلُّ مسلمٍ في دولتِهِ عَلَيه أن يسألَ اللهَ لها التَّوفيقَ والهدايةَ، ويَنْصح لها، ويُعِينها عَلَىٰ الخير، ويَسْأل الله لها التَّوفيقَ والسَّدادَ، ولا يَسأم ولا يَضعُف، وعَلَيه أن يَسْتعملَ الحِكْمةَ والأُسْلوبَ الحسنَ، والكلامَ الطَّيِّبَ لعلَّ اللهَ يَجْعله مُبَاركًا في دعوتِهِ ونصيحتِهِ، فيكون سببًا لِهِدَاية مَنْ أرادَ اللهُ له الهدايةَ من أميرٍ، أو حاكمٍ، أو غَيْرهما مِمَّنْ له شأنٌ في الأُمَّة؛ لأنَّ هدايةَ المَسْؤول، وهدايةَ مَنْ له شأنٌ في الأُمَّة يَنْفع اللهُ بهما العبادَ والبلادَ، ويَقْتدي به الكَثيرُ من الأُمَّة، يقول النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ دلَّ عَلَىٰ خيرٍ، فَلَه مِثْلُ أَجْر فاعلِهِ**»[1].

وصحَّ عَنْه ﷺ أنَّه قالَ لِعَليٍّ رضي الله عنه لمَّا بَعَثه إلىٰ خَيْبر ليَدْعو اليهودَ: «**لأَنْ يَهْدي اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لَكَ من حُمْر النَّعَمْ**[2]»[3].

وهذِهِ نعمةٌ عظيمةٌ لا تتمُّ إلَّا بالصِّدقِ والإخلاصِ، والصَّبر والحَذَر من الأُسْلوب الشَّديد العنيف الَّذي يُنفِّر النَّاس من الحقِّ، ويُسبِّب الفتنَ والشُّرُورَ، بَلْ عَلَىٰ الدَّاعي إلىٰ الله، والنَّاصح لدين الله أن يَتحرَّىٰ الأَسَاليبَ المُنَاسبةَ الَّتي تُعِينُ عَلَىٰ قَبُول الحقِّ، وعَلَىٰ الرِّضا به، وتنفيذِهِ، وعَلَىٰ المُسْلم أيضًا أنْ يجتهدَ فيما يُصْلح دُنْياه كما يَجْتهد في صَلَاح دينِهِ، وصَلَاح أَهْل بيتِهِ، فأَهْل البَيْت لهم

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) حُمر النعم: الإبل الحمراء، وكانت أعجب الأموال، وأحبها إلىٰ العرب.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

حقٌّ عليك كبيرٌ، بأَنْ تجتهدَ في إِصْلَاحهم وتَوْجيههم إلىٰ الخير؛ لقَوْل اللهِ سُبْحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦].

فعَلَيك أَنْ تَجْتهدَ في إِصْلَاح أَهْل بَيْتك، وهُمْ زَوْجتك، وأَوْلَادك الذُّكُور والإِنَاث، وإِخْوَانك، فجَمِيعُ أَهْلِ البَيْت تَجْتهدُ فِي تَعْليمِهِمْ، وتَوْجِيهِهِمْ، وإِرْشَادِهِمْ، وتَحْذيرهم مِمَّا حَرَّم الله؛ لأَنَّك مسؤولٌ عَنْهم؛ لقَوْل النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكمْ مسؤولٌ عَنْ رَعيَّته، فالإمامُ راعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، والرَّجلُ راعٍ في أَهْل بَيْته ومَسْؤولٌ عَنْ رَعيَّته، والمرأَةُ رَاعيةٌ في بَيْت زَوْجها ومسؤولةٌ عَنْ رَعيَّتها، والخادمُ راعٍ في مال سَيِّده ومسؤولٌ عَنْ رَعيَّته»، ثمَّ قالَ ﷺ: «أَلَا فكُلُّكمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رَعيَّته»(١).

فعَلَينا أَنْ نَجْتهدَ في صَلَاحهم من جِهَةِ الإِخْلَاص لله في جَمِيعِ الأَعْمَال والصِّدق في مُتَابعة رَسُول الله ﷺ، والإِيمَان به، ومن جِهَةِ الصَّلَاة وغَيْرها مِمَّا أَمَر اللهُ به سُبْحانَه، ومِنْ جِهَةِ البُعْد عن مَحَارم الله، فعَلَىٰ كُلِّ واحدٍ من الرِّجالِ والنِّساءِ النُّصْح في أَدَاء ما يجبُ عَلَيه.

فالمَرْأةُ عَلَيها أَنْ تَجْتهدَ، والرَّجلُ كذَلِكَ، إِذْ صلاحُ البُيُوت من أَهمِّ الأُمُور، قالَ اللهُ لنَبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه:١٣٢]، وقَالَ سُبْحانَه عن نَبيِّه إِسْمَاعيل: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم:٥٤، ٥٥].

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فيَنْبغي التَّأسِّي بالأَنْبياءِ والأَخْيار، والعِنَايَة بأَهْل البَيْت، لَا تَغْفل عنهم يا عبد الله من زوجةٍ، أو أُمٍّ، أو أبٍ، أو جدٍّ، أو جدَّةٍ، أو إخوةٍ، أو أَوْلَادٍ، عَلَيك أن تَجْتهدَ في صَلَاحهم، وأَنْ تأمرَ بَنِيكَ وبَنَاتك بالصَّلاة لسبعٍ، وتَضْربهم عَلَيها لعَشْرٍ؛ ضربًا خفيفًا يُعِينُهُمْ عَلَىٰ طَاعَة الله، ويُعوِّدهم أَدَاء الصَّلاة في وَقْتها حتَّىٰ يَسْتقيمُوا عَلَىٰ دِينِ الله، ويَعْرفُوا الحقَّ كَمَا صَحَّتْ بذَلِكَ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، فكلُّ واحِدٍ مِنَّا عَلَيه ذَلِكَ الدَّور، وكلُّ امرأةٍ عَلَيها ذَلِكَ، فعَلَىٰ المَرْأة والرَّجُل التَّعاونُ عَلَىٰ البرِّ وَالتَّقْوىٰ في صَلَاح البُيُوت، وتَحْذير الأَوْلَاد مِمَّا يَضرُّهُمْ، فيُعَلِّمون ما أَوْجَبَ اللهُ عَلَيهم ذُكُورًا وإناثًا، ويَنْهون عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليهم؛ كالتَّخلُّف عن الصَّلَوات، وشُرْب المُسْكر، وتَعَاطي المُخَدِّرات والتَّدخين، وحَلْق اللِّحَىٰ أو تَقْصيرها، وإِسْبَال الثِّيَاب، والنَّميمَة، والغِيبَةِ، وسَمَاع الأَغَانِي والمَلَاهي، وغير ذَلِكَ من المَعَاصي، هَذَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيك نَحْو وَلَدك وأُخْتك، وغَيْرهما مِنْ أَهْل البَيْتِ.

فَالتَّعاونُ واجبٌ عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ؛ لأنَّ اللهَ يَقُول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢] ويَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]. هَؤُلَاء هُمُ الرَّابحُونَ من الرِّجال والنِّساء في سَابِقِ الزَّمَان، وَفِي الزَّمَان الحاضر، وَفِيمَا يَأْتِي من الزَّمَان، وهُمُ الَّذين آمَنُوا بالله ورَسُولِهِ إيمانًا صادقًا، ثمَّ نَفَّذوا الإِيمَانَ، وحَقَّقوه بالأَعْمَال الصَّالحة بِفِعْلِ ما أَوْجَب اللهُ، وتَرْك ما حَرَّم الله، ثمَّ تَواصَوْا بالحقِّ، فدَعَوْا إلىٰ الله، وعَلَّموا النَّاسَ وأَرْشَدُوهُمْ، وتَواصَوْا بالصَّبر.

هَؤُلَاءِ هُمُ النَّاجُون، وهُمُ الرَّابحُونَ، وهُمُ السُّعَداء في الدُّنيا والآخرة، وهَكَذا

قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، يَعْني أَنَّهُمْ أَحبَّةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لَا يَغْتاب بَعْضُهُمْ بعضًا، ولا ينمُّ بَعْضهم عَلَىٰ بعضٍ، ولا يُخوِّنه في الأمانة، ولا يُؤْذِيهِ، وَلَا يَظْلمه، وَلَا يَشْهد عَلَيه بالزُّور... إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من الأَعْمال والأَقْوَال الَّتي تُنَافِي الولايةَ والمحبَّةَ، فهُمْ إخوةٌ أحبابٌ مُتَعاونونَ عَلَىٰ كلِّ خيرٍ.

ثمَّ قالَ سُبْحانَه وبِحَمْدِهِ: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]، والمَعْنىٰ أنَّهم لا يَسْكُتُونَ عن إِنْكَار المُنْكر، وَلَا يُدَاهنونَ، بَلْ كلٌّ مِنْهم يأمُرُ أَخَاه بالمَعْروف، ويَنْهاه عَنِ المُنْكر بالكَلَام الطَّيِّبِ، والأُسْلوبِ الحَسَنِ.

ثمَّ قالَ سُبْحانَه: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة:٧١]، هَكَذا المُؤْمِنُونَ الصَّادقونَ، والمُؤمناتُ الصَّادقاتُ، هَذَا شَأْنُهُمْ، يَسْتَقيمونَ عَلَىٰ دِينِ الله، ويَتبَاعَدُون عَنْ مَحَارم الله، ويَقِفُونَ عِنْدَ حُدُود الله، ويَرْشُدُونَ النَّاسَ إلىٰ الخير، ويَنْصُحُونَهم بعباراتٍ حَسَنةٍ، وأُسْلوبٍ جَيِّدٍ، مَعَ الإِخْلَاص لله، والصَّبر والمُصَابرة.

وهَكَذا المؤمنُ يَسْعىٰ في أُمُور دُنْياه، لَا يَكُونُ كلًّا عَلَىٰ النَّاس، يَكْتَسب الكسبَ الحلالَ، ويبيعُ ويَشْتري، ويَفْعل كلَّ ما يُصْلح أَمْرَ دُنْيَاه، فيَتَّخذ المَزْرعة كَمَا كَانَ الأَنْصَارُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويَبِيعُ ويَشْتري كَمَا كانَ المُهَاجرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَا يكونُ عالةً عَلَىٰ الآخَرِينَ يَسْألهم ويشقُّ عَلَيهم، بَلْ يجتهدُ في أَنْ يُغْنيه اللهُ عن النَّاس، يَتَعاطىٰ الأسبابَ المَشْروعةَ، والكَسْبَ الحلالَ، ويَجْتهدُ في طَلَب الرِّزْق بالطُّرُق المُبَاحة والشَّرعيَّة؛ من بيعٍ، وشراءٍ، وزراعةٍ، وحرفةٍ أُخْرىٰ مُبَاحةٍ؛ كالحِدَادَة، والنِّجَارة، والخِرَازَة، وَالخِيَاطَة، أو يَشْتغل عِنْدَ النَّاس في مَزَارعهم، وَفِي بِنَائِهِمْ،

وفي غَيْر ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَال المُبَاحة، فيَسْتخدم هَذَا الجسمَ الَّذي أَنْعَمَ اللهُ عليه به في طَاعَة الله ورَسُولِهِ، وفي كَسْب الحَلَال الَّذي يُغْنيه اللهُ بِهِ عن النَّاس، ويُشْرَع لهُ أَنْ يَتعَاطىٰ الأدويةَ المُبَاحةَ الَّتي يُعِينُهُ اللهُ بها عَلَىٰ بَقَاء صِحَّتِهِ، وسَلَامة جَوَارحه.

والخلاصة: أنَّ المَشْروعَ للمُسْلم أَنْ يَفْعلَ الأسبابَ المُبَاحة الَّتي تَنْفعُهُ في دُنْياه وأُخْراه، وفي صِحَّةِ بَدَنِهِ، وفي كَسْبِ الحَلَال، وتَرْك الحَرَام، وَفِي الاسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاس؛ لقَوْل النَّبِيِّ ﷺ: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمنِ الضَّعِيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ**».

ثمَّ قالَ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَىٰ ما يَنْفعك، وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلَا تَعْجزَن، فإِنْ أَصَابك شيءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فعلتُ كَذَا لكَان كَذَا وكَذَا، ولكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وما شَاءَ فَعَل، فإنَّ لَوْ تَفْتحُ عَمَل الشَّيطان**»، رَوَاه الإمامُ مسلمٌ في «صَحِيحِهِ»[(١)].

وَقَالَ ﷺ: «**ما أَكَل أحدٌ طعامًا خيرًا من أَنْ يأكلَ من عَمَل يَدِهِ، وإِنَّ نَبيَّ الله داودَ كانَ يَأْكُلُ من عَمَل يدِهِ**»، رَوَاه البخاريُّ في «الصَّحيح»[(٢)].

وسُئِلَ ﷺ: أيُّ الكَسْب أَطْيبُ؟ قالَ: «**عَمَلُ الرَّجُل بيدِهِ، وكلُّ بيعٍ مبرورٍ**»، أَخْرجَه البَزَّارُ، وصَحَّحه الحاكمُ[(٣)].

فأنتَ يَا عَبْدَ الله؛ اجْتَهِدْ في طَلَب الرِّزق، وَاكْتَسِبِ الحَلالَ، وَاسْتَغْنِ عن الحَاجَة إِلىٰ النَّاس وسُؤَالِهِمْ، وعَلَيك بالكَسْب الحَلَالِ الطَّيِّبِ، البعيدِ عَنِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٤١٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٦) من حديث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤١) (١٧٣٠٤)، والطبراني (٤/ ٢٧٦) (٤٤١١)، والحاكم (٢/ ١٣) (٢١٦٠)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢/ ٨٣) (١٢٥٧) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٠٧).

الغِشِّ، والخيانةِ، والكذبِ، وَاكْتَسبِ المُبَاحَ بالصِّدق، وأَدَاء الأَمَانة؛ سواءٌ كان ذَلِكَ في بَيْعٍ وشراءٍ، أو تجارةٍ، أو حدادةٍ، أو خرازةٍ، أو كتابةٍ، أو بناءٍ، أو غَيْر ذَلِكَ مِنَ الأَعْمَال المُبَاحة، وقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّه قالَ: «**البَيِّعانِ بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقا، فإِنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لَهُما في بَيْعهما، وإِنْ كَتَما وكَذَبا مُحِقَتْ بركةُ بَيْعهما**»؛ مُتَّفقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ[1].

أَسْأَلُ اللهَ بأسمائِهِ الحُسْنىٰ أَنْ يُوفِّقنا وإيَّاكم وسَائِرَ المُسْلمينَ لِمَا يُرْضيه، وأَنْ يَرْزقَ الجميعَ الاسْتِقَامةَ عَلَىٰ الحقِّ، وأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، ويُعْلي كَلِمتَهُ، وأن يُصْلحَ أَحْوالَ المُسْلمينَ جميعًا في كلِّ مكانٍ، وأَنْ يُولِّي عَلَيهم خِيَارَهمْ، وأَنْ يُوفِّق وُلَاة أَمْر المُسْلمينَ لكلِّ ما فيه رِضَاه، ولكلِّ ما فِيهِ صَلَاحُ العِبَادِ والبِلَادِ، وأَنْ يُعِينَهُمْ عَلَىٰ كلِّ خيرٍ، وأَنْ يُصْلحَ لَهُمُ البطانةَ، ويَجْعلهم هُدَاةً مُهْتَدِينَ صَالِحِينَ مُصْلحينَ، وأَنْ يُوفِّقهُمْ لتَحْكيم شَريعَةِ الله في عِبَادِهِ، وإِلْزَام الشُّعُوبِ بِهَا، وأَنْ يُعِيذَهُمْ مِنْ نَزَغاتِ الشَّيْطانِ ومُضلَّاتِ الفِتَنِ؛ إِنَّه وليُّ ذَلِكَ والقَادرُ عَلَيه، وأَنْ يُوفِّق المُسْلمينَ في كلِّ مكانٍ للفِقْهِ في الدِّين، والاستقامة عَلَيه، وَالتَّعَاون عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، وأَنْ يُعِينَنَا وإِيَّاكُمْ عَلَىٰ كلِّ ما فيه رِضَاهُ.

وصَلَّى اللهُ وَسلَّم وبَارَكَ عَلَى عبدِهِ ورَسُولِهِ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحابِهِ وأتباعِهِ بإِحْسَان



(١) أخرجه البخاري (٢١١٠)، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٥) وجوب تحكيم شرع الله، ونبذ ما خالفه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمين، وأَشْهَد أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْده لا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهُ الأَوَّلينَ والآخِرِينَ، ورَبُّ النَّاس أَجْمعينَ، مالكُ المُلْك، الواحدُ الأَحَدُ الفَرْدُ الصَّمدُ، الَّذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد، وَلَمْ يَكُنْ له كُفُوًا أحدٌ، وأَشْهَد أَنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صَلَوات الله وسلامُهُ عليه، بَلَّغَ الرِّسالةَ، وأَدَّىٰ الأمانةَ، وجَاهَد في الله حقَّ جِهَادِهِ، وتَرَكَ أُمَّته علىٰ المَحجَّة البَيْضاءِ؛ لَيْلها كَنَهارها، لا يَزِيغُ عَنْها إِلَّا هالكٌ، **أَمَّا بَعْد:**

فهذِهِ رِسَالةٌ مُوجَزةٌ، ونَصِيحةٌ لَازمةٌ في وُجُوب التَّحاكُم إلىٰ شَرْع الله، والتَّحْذير من التَّحاكُم إلىٰ غَيْره، كَتَبتُها لَمَّا رأيتُ وُقُوعَ بَعْض النَّاس في هَذَا الزَّمان في تَحْكيم غَيْر شَرْعِ الله، والتَّحاكُم إلىٰ غَيْر كِتَابِ الله، وسُنَّة رَسُولِهِ، من العَرَّافينَ، والكُهَّانِ، وكِبَارِ عَشَائر البَادِيَةِ، ورِجَال القَانُونِ الوَضْعيِّ وأَشْبَاههم، جهلًا من بَعْضهم لحُكْم عَمَلهم ذَلِكَ، ومُعَاندةً ومُحادَّةً لله ورَسُولِهِ من آخرين.

وأَرْجو أَنْ تكونَ نَصِيحَتِي هذِهِ مُعلِّمةً للجَاهِلِين، ومُذكِّرةً للغَافِلِينَ، وسببًا في اسْتِقَامةِ عِبَادِ الله عَلَىٰ صِرَاطِهِ المُسْتقيمِ؛ كَمَا قالَ تَعَالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ



ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات:٥٥]، وَقَالَ سُبْحَانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وَاللهُ المَسْؤولُ سُبْحانه أَنْ ينفعَ بِهَا، ويُوفِّق المُسْلمينَ عُمُومًا لالْتِزَامِ شَريعتِهِ، وتَحْكيم كِتَابِهِ، وَاتِّباع سُنَّة نَبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ.

أيها المسلمون:

لَقَدْ خَلَق الله الجنَّ والإنسَ لعبادتِهِ؛ قالَ اللهُ سُبْحَانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، وَقَالَ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وَقَالَ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦].

وعَنْ مُعَاذ بن جبل رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حمارٍ، فَقَالَ: «**يا مُعَاذ، أَتَدْري ما حَقُّ الله علىٰ العِبَادِ؟ وما حقُّ العبادِ عَلَىٰ الله؟**». قلتُ: اللهُ ورسولُهُ أَعْلَمُ. قال: «**حَقُّ الله علىٰ العباد: أَنْ يَعْبدوه ولا يُشْركوا به شيئًا، وحقُّ العبادِ عَلَىٰ الله: أَلَّا يُعذِّبَ مَنْ لا يُشْرك به شيئًا**». قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ الله، أَفَلا أُبشِّر النَّاس؟ قال: «**لا تُبشِّرْهُمْ فَيَتَّكلُوا**»، رَوَاهُ البُخَاريُّ ومسلمٌ(١).

وقَدْ فَسَّرَ العلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- العبادةَ بمَعَانٍ مُتَقاربةٍ، مِنْ أَجْمَعِهَا ما ذَكَره شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمية رحمه الله إِذْ يَقُول: «**العِبَادةُ**: اسمٌ جامعٌ لكلِّ مَا يُحبُّه الله ويَرْضاه من الأَقْوَالِ والأَعْمَالِ الظَّاهرةِ وَالبَاطِنَةِ»(٢).

وهَذَا يدلُّ علىٰ أَنَّ العبادةَ تَقْتضي الانْقِيَادَ التَّامَّ لله تَعَالىٰ؛ أمرًا، ونهيًا،

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).
(٢) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٤٩).

واعتقادًا، وقولًا، وعملًا، وأَنْ تكونَ حَيَاةُ المَرْءِ قائمةً علىٰ شَرِيعَةِ الله، يحلُّ ما أحلَّ الله، ويُحرِّم ما حَرَّمَ اللهُ، ويَخْضع في سُلُوكِهِ وأَعْمالِهِ وتَصرُّفاتِهِ كُلِّها لشَرْعِ الله، مُتجرِّدًا من حُظُوظ نَفْسِهِ ونَوَازع هَوَاه؛ ليَسْتوي في هَذَا الفردُ والجماعةُ، والرَّجُلُ والمرأةُ، فَلَا يكونُ عابدًا لله مَنْ خَضَع لربِّه في بَعْض جَوَانب حياتِهِ، وخَضَع للمَخْلوقِينَ في جَوَانب أُخْرىٰ.

وهَذَا المَعْنىٰ يُؤكِّده قَوْلُ اللهِ تَعَالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠].

وَمَا رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحدكُمْ حَتَّىٰ يكونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئتُ بِهِ**»(١).

فَلَا يتمُّ إِيمَانُ العَبْدِ إِلَّا إذا آمَنَ باللهِ، ورَضِيَ حُكْمَه في القَلِيلِ والكَثِيرِ، وتَحَاكم إلىٰ شريعتِهِ وَحْدها في كُلِّ شَأْنٍ من شُؤونِهِ، في الأَنْفُسِ والأَمْوال والأَعْراض، وإِلَّا كانَ عابدًا لغَيْره، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فمَنْ خَضَع لله سُبْحانه، وأَطَاعه، وتَحَاكم إلىٰ وَحْيه، فهُوَ العابدُ لَهُ، ومَنْ خَضَع لغَيْره، وتَحَاكم إلىٰ غَيْر شَرْعِهِ، فقَدْ عَبَد الطَّاغوتَ، وانْقادَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (١/ ٢١٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (١٥).

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠].

والعُبُوديَّةُ لله وَحْده، والبَرَاءةُ من عِبَادَة الطَّاغُوت والتَّحاكُم إِلَيْه، من مُقْتضىٰ شَهَادة أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْده لا شريكَ لَهُ، وأَنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فاللهُ سُبْحانه هو ربُّ النَّاس وإِلَهُهُمْ، وهُوَ الَّذي خَلَقهم، وَهُو الَّذي يَأْمُرُهم ويَنْهاهُمْ، ويُحْييهِمْ ويُمِيتُهمْ، ويُحَاسبهم ويُجَازيهم، وهُوَ المُسْتحقُّ للعِبَادَة دُونَ كلِّ ما سِوَاهُ، قَالَ تَعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

فكَمَا أَنَّهُ الخالقُ وَحْده، فهُوَ الآمرُ سُبْحَانه، والواجبُ طَاعَةُ أَمْره.

وقَدْ حَكَىٰ اللهُ عن اليَهُود والنَّصَارىٰ أَنَّهُمْ اتَّخذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهمْ أَرْبابًا من دُونِ الله، لَمَّا أَطَاعُوهمْ في تَحْليلِ الحَرَامِ، وتَحْريمِ الحَلَال، قَالَ اللهُ تَعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [التوبة:٣١].

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عدي بن حاتمٍ رضي الله عنه أَنَّه ظنَّ أَنَّ عبادةَ الأَحْبار والرُّهْبان إِنَّما تكُونُ في الذَّبْح لهم، والنَّذْر لهم، والسُّجُود والرُّكُوع لهم فقط، ونحو ذَلِكَ، وذَلِكَ عِنْدَما قَدِمَ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ مُسْلمًا، وسَمِعَهُ يَقْرأ هذِهِ الآيةَ. فقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا لَسْنا نَعْبُدُهُمْ (يُرِيدُ بذَلِكَ النَّصَارىٰ حَيْثُ كانَ نَصْرانيًّا قَبْل إسلامِهِ)، قَالَ ﷺ: **«أَلَيْسَ يُحرِّمونَ ما أحلَّ الله فتُحرِّمونَه، ويُحلُّونَ ما حَرَّم فتُحلُّونَه»**؟ قَالَ: بَلَىٰ. قَالَ: **«فتِلْكَ عِبادتُهُمْ»**، رَوَاه أَحْمَدُ، وَالتِّرمذيُّ، وحَسَّنَهُ[1].

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٣).

قَالَ الحافظُ ابْنُ كثيرٍ في «تَفْسيرِهِ»: «ولهَذَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة:٣١]، أَيْ: الَّذي إِذَا حَرَّم الشَّيء فَهُوَ الحرامُ، ومَا حَلَّلهُ فهُوَ الحلالُ، وما شَرَعه اتُّبِعَ، ومَا حَكَم بِهِ نَفَذَ، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة:٣١]، أَيْ: تَعَالىٰ وتَقدَّس وتَنزَّه عن الشُّرَكاءِ، والنُّظَراءِ، والأَعْوانِ، وَالأَضْدادِ، والأَوْلادِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هو، ولا رَبَّ سِوَاهُ». [اهـ. (ص٣٤٩)، من الجزء الثاني].



فصل

إِذَا عُلِمَ أَنَّ التَّحاكُمَ إِلىٰ شَرْعِ الله من مُقْتضىٰ شَهَادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَنَّ مُحمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فإِنَّ التَّحاكُمَ إِلىٰ الطَّواغيت والرُّؤسَاء والعَرَّافينَ ونَحْوهم يُنَافي الإِيمَانَ بالله عَزَّوَجَلَّ، وهُوَ كفرٌ، وظلمٌ، وفسقٌ؛ يَقُول اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة:٤٤].

وَيقُولُ: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة:٤٥].

وَيقُولُ: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة:٤٧].

وَبَيَّنَ تَعَالىٰ أَنَّ الحُكْمَ بغَيْر ما أَنْزَل اللهُ حُكْمُ الجَاهِلِينَ، وأَنَّ الإِعْرَاضَ عَنْ حُكْم اللهِ تَعَالىٰ سببٌ لحُلُول عِقَابِهِ وبَأْسِهِ الَّذي لا يردُّ عَنِ القَوْم الظَّالِمِينَ؛ يَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٤٩، ٥٠].

وَإِنَّ القَارِئَ لِهَذِهِ الآيَةِ، وَالمُتدبِّر لَهَا يَتبيَّن لَهُ أَنَّ الأَمْرَ بالتَّحاكُمِ إلىٰ مَا أَنْزلَ اللهُ، أُكِّدَ بمُؤكِّداتٍ ثَمانيةٍ:

الأول: الأَمْر به في قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩].

الثاني: أَلَّا تَكُونَ أَهْواءُ النَّاس ورَغَباتُهُمْ مانعةً من الحُكْم به بأيِّ حالٍ من الأَحْوالِ، وذَلِكَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٨].

الثالث: التَّحْذيرُ من عَدَم تَحْكيمِ شَرْعِ الله في القَلِيلِ والكَثِيرِ، والصَّغِيرِ والكَبِيرِ، بقَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٥٠].

الرابع: أَنَّ التَّولِّي عن حُكْمِ الله، وعَدَم قَبُول شيءٍ مِنْهُ ذنبٌ عظيمٌ موجبٌ للعِقَابِ الأَلِيمِ، قَالَ تَعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة:٤٩].

الخامس: التَّحْذير من الاغْتِرَارِ بكَثْرة المُعْرِضينَ عَنْ حُكْمِ اللهِ، فَإِنَّ الشَّكُورَ من عِبَادِ الله قليلٌ، يَقُولُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة:٤٩].

السادس: وَصْفُ الحُكْمِ بغَيْر ما أَنْزَلَ اللهُ بأَنَّهُ حُكْمُ الجَاهليَّة، يَقُولُ سُبْحانَه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [المائدة:٥٠].

السابع: تَقْريرُ المَعْنىٰ العظيم بأَنَّ حُكْمَ الله أَحْسَنُ الأَحْكَامِ وأَعْدَلُها، يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة:٥٠].

الثامن: أَنَّ مُقْتَضىٰ اليَقِينِ هُوَ العِلْمُ بأَنَّ حُكْمَ الله هُوَ خَيْرُ الأَحْكَام وأَكْمَلُها، وأَتمُّها وأَعْدَلها، وأَنَّ الواجبَ الانْقِيَادُ لَهُ، مَعَ الرِّضا والتَّسليمِ، يَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

وهَـٰذِهِ المَعَانِي مَوْجودةٌ في آياتٍ كثيرةٍ في القُرْآنِ، وتَدلُّ عَلَيها أَقْوالُ الرَّسُولِ ﷺ وأفعالُهُ.

فمِنْ ذَلِكَ: قولُهُ سُبْحانَه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ الآية [النساء:٦٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وَرُوِيَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا يُؤمِنُ أَحدُكُمْ حتَّىٰ يكونَ هَوَاهُ تبعًا لِمَا جئتُ بِهِ**»(١)، قالَ النَّوويُّ: «حديثٌ صحيحٌ رُوِّيناهُ في كتاب «الحُجَّة» بإسنادٍ صحيحٍ»(٢).

---

(١) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (١/ ٢١٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (١٥).

(٢) انظر «الأربعين النووية»، الحديث الحادي والأربعون.

ورُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لعَديِّ بْنِ حاتمٍ: «**أَلَيْسُوا يُحلُّونَ ما حَرَّمَ الله فتُحلُّونَه، ويُحرِّمون ما أحلَّ اللهُ فتُحرِّمونَه؟**». قَالَ: بَلَىٰ، قال: «**فتِلْكَ عِبادتُهُمْ**»(١).

وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما لبَعْض مَنْ جَادَله في بَعْض المَسَائل: «**يُوشِكُ أَنْ تنزلَ عَلَيكم حجارةٌ من السَّمَاء، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله، وتَقُولُونَ: قَالَ أبو بكرٍ وعُمَر!**»(٢).

ومعنى هذا: أنَّ العَبْدَ يجبُ عَلَيه الانْقِيَادُ التَّامُّ لقَوْل اللهِ تَعَالىٰ، وقَوْل رَسُولِهِ، وتَقْديمهما عَلَىٰ قَوْل كُلِّ أحدٍ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ من الدِّين بالضَّرُورَةِ.

ولهَذَا كانَ مِنْ مُقْتَضىٰ رَحْمتِهِ وحكمتِهِ سبحانه وتعالى أَنْ يَكُونَ التَّحاكُمُ بَيْنَ العِبَادِ بشَرْعِهِ ووَحْيه؛ لأنَّه سُبْحانَه المُنزَّه عَمَّا يُصِيبُ البَشَر من الضَّعْفِ، والهَوَىٰ، والعَجْز، والجَهْل، فهو سُبْحانَه الحكيمُ، العليمُ، اللَّطيفُ، الخبيرُ، يَعْلم أَحْوالَ عِبَادِهِ ومَا يُصْلحهُمْ، ومَا يَصْلح لَهُمْ في حَاضِرِهمْ وَمُسْتَقبلِهِمْ، ومِنْ تَمَام رَحْمتِهِ أَنْ تَولَّىٰ الفَصْلَ بَيْنهُمْ في المُنَازعاتِ والخُصُوماتِ، وشُؤونِ الحَيَاة ليَتحقَّق لهم العدلُ، والخيرُ، والسَّعادةُ، بَلْ والرِّضا والاطْمِئْنَان النَّفسيُّ، والرَّاحةُ القَلبيَّةُ.

ذَلِكَ أنَّ العبدَ إِذَا علم أنَّ الحُكْمَ الصَّادر في قَضيَّةٍ يُخَاصم فِيهَا هُوَ حُكم اللهِ الخَالِقِ العَلِيمِ الخَبِيرِ، قَبِلَ ورَضِيَ وسَلَّمَ، وحتَّىٰ ولَوْ كانَ الحُكْمُ خلافَ ما يَهْوىٰ ويُرِيدُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا علم أنَّ الحُكْمَ صادرٌ من أُنَاسٍ بَشَرٍ مِثْله، لَهُمْ أَهْواؤُهُمْ وشَهَواتُهمْ، فإِنَّهُ لَا يَرْضَىٰ ويَسْتمرُّ في المُطَالبةِ والمُخَاصمةِ، ولذَلِكَ لَا

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٩٣).
(٢) أخرجه بنحوه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٣٧) (٣١٢١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٢٣٩).

يَنْقطعُ النِّزاعُ، ويَدُوم الخلافُ، وإنَّ اللهَ ﷻ إذْ يُوجِبُ عَلَىٰ العِبَادِ التَّحاكُمَ إلىٰ وَحْيه؛ رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، فإنَّه سُبْحانَه بَيَّنَ الطَّريقَ العامَّ لذَلِكَ أتمَّ بيانٍ، وأَوْضَحه بقَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٨، ٥٩].

وَالآيَةُ وَإِنْ كانَ فِيهَا التَّوجيهُ العامُّ للحَاكِمِ والمَحْكُوم، والرَّاعي والرَّعيَّة، فإنَّ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ تَوْجيهَ القُضَاة إِلَىٰ الحُكْمِ بالعَدْلِ، فقَدْ أَمَرهم بأَنْ يَحْكموا بالعَدْلِ، وأَمَر المُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْبَلوا ذَلِكَ الحُكْمَ الَّذي هو مُقْتَضىٰ ما شَرَعه اللهُ سُبْحانَه، وأَنْزلَه عَلَىٰ رَسُولِهِ، وأَنْ يردُّوا الأمرَ إلىٰ اللهِ ورسولِهِ فِي حالِ التَّنازُع والاخْتِلَافِ.

ومِمَّا تَقدَّم يَتبيَّن لكَ -أيُّها المُسْلمُ- أَنَّ تَحْكِيمَ شَرْعِ الله، والتَّحاكُم إِلَيْه ممَّا أَوْجَبه اللهُ ورسولُهُ، وأنَّه مُقْتَضىٰ العُبُوديَّة لله، والشَّهَادة بالرِّسَالة لنَبيِّه مُحمَّدٍ ﷺ، وأنَّ الإعراضَ عَنْ ذَلِكَ أَوْ شيءٍ منه، مُوجِبٌ لعَذَاب الله وعقابِهِ، وهَذَا الأَمْر سواءٌ بالنِّسبةِ لِمَا تُعَامل به الدَّولةُ رَعيَّتها، أو مَا يَنْبَغي أَنْ تدينَ به جَمَاعةُ المُسْلمينَ في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ.

وَفِي حَالِ الاخْتِلَافِ والتَّنازُع الخاصِّ والعامِّ، سواءٌ كانَ بَيْنَ دولةٍ وأُخْرىٰ، أو بَيْنَ جَمَاعةٍ وجَمَاعةٍ، أو بَيْنَ مُسْلمٍ وآخر، الحُكْمُ في ذلك كُلِّه سواءٌ؛ فاللهُ سُبْحانَه له الخَلْقُ والأَمْرُ، وهُوَ أَحْكمُ الحَاكِمِينَ.

وَلَا إيمانَ لمَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحكامَ النَّاس وآرَاءَهُمْ خيرٌ مِنْ حُكْم الله ورَسُولِهِ، أَوْ تُمَاثله وتُشَابهه، أَوْ أَجاز أَنْ يحلَّ مَحلَّها الأَحكامُ الوَضعيَّة، والأَنْظمةُ البَشريَّة، وإِنْ كانَ مُعْتقدًا بأَنَّ أَحكامَ الله خيرٌ، وأكملُ، وأعدلُ.

فالواجبُ عَلَىٰ عَامَّة المُسْلمينَ وأُمَرائِهِمْ وحُكَّامِهِمْ، وأَهْل الحلِّ والعَقْد فيهم: أَنْ يَتَّقوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ويُحكِّموا شَريعَتَه في بُلْدانهم وسَائِرِ شُؤونهم، وأَنْ يَقُوا أَنْفُسَهمْ ومَنْ تَحْت وِلَايَتِهِمْ عَذَابَ الله في الدُّنيا والآخرة، وأَنْ يَعْتَبروا بِمَا حلَّ في البُلْدانِ الَّتي أَعْرَضت عن حُكْمِ الله، وسَارَتْ في رِكَابِ مَنْ قلَّد الغَرْبيِّينَ، واتَّبع طَرِيقَتَهمْ، مِنْ الاختِلَافِ وَالتَّفرُّق، وضُرُوب الفِتَنِ، وقِلَّة الخَيْراتِ، وكَوْن بَعْضهِمْ يَقْتل بعضًا، ولا يَزَال الأَمْرُ عِنْدهُمْ في شِدَّةٍ، ولَنْ تَصْلح أَحْوالُهُمْ ويُرْفع تَسلُّط الأَعْداء عَلَيهم سياسيًّا وفكريًّا إِلَّا إذا عَادُوا إلىٰ الله سُبْحانَه، وسَلكوا سَبيلَهُ المُسْتقيمَ الَّذي رَضِيَهُ لعِبَادِهِ، وأَمَرهم بِهِ، ووَعَدهم به جَنَّات النَّعيم، وصَدَقَ سُبْحانَه إِذْ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وَلَا أَعْظَمَ مِنَ الضَّنْك الَّذي عاقبَ اللهُ بِهِ مَنْ عَصَاه، ولَمْ يَسْتجِبْ لأَوَامره، فاستبدلَ أَحْكامَ المَخْلوقِ الضَّعيف بأَحْكامِ الله ربِّ العَالَمين، ومَا أَسْفَهَ رَأْيَ مَنْ لَدَيه كَلَامُ اللهِ تَعَالىٰ؛ ليَنْطقَ بالحقِّ، ويَفْصلَ في الأُمُور، ويُبيِّن الطَّرِيقَ، ويَهْدي الضَّالَّ، ثمَّ يَنْبذه ليأخذ بدلًا منه أَقْوالَ رَجُلٍ من النَّاس، أو نظامَ دَوْلةٍ من الدُّوَل، أَلَمْ يَعْلم هَؤُلَاءِ أَنَّهم خَسِرُوا الدُّنيا والآخرةَ؟! فلَمْ يُحصِّلوا الفلاحَ والسَّعادةَ في الدُّنيا، ولَمْ يَسْلَموا من عِقَابِ الله وعذابِهِ يومَ القِيَامةِ، لِكَوْنِهِمْ اسْتَحلُّوا ما

حَرَّم الله عَلَيهم، وتَركُوا ما أَوْجبَ عَلَيهم.

أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعلَ كَلِمَتِي هذِهِ مُذكِّرةً للقَوْم، ومُنبِّهةً لهم للتَّفكُّر في أَحْوالِهِمْ، والنَّظَر فِيمَا فَعَلوه بأَنْفُسِهِمْ وشُعُوبِهِمْ، فيَعُودوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ، ويَلْزموا كتابَ الله، وسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ؛ لِيَكُونُوا من أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ حقًّا، وَليُرفع ذِكْرُهم بَيْنَ شُعُوبِ الأَرْض، كَمَا ارْتفَع بِهِ ذِكْرُ السَّلَف الصَّالح، والقُرُون المُفضَّلة من هذِهِ الأُمَّة، حتَّىٰ مَلَكوا الأَرْضَ، وَسَادُوا الدُّنيا، ودَانَتْ لَهُمُ العبادُ، كلُّ ذَلِكَ بنَصْر الله الَّذي يَنْصر عِبَادَه المُؤْمنينَ الَّذين اسْتَجَابوا لَهُ ولِرَسُولِهِ، أَلَا لَيْتَهُمْ يَعْلمون أَيَّ كنزٍ أَضَاعوا، وأَيَّ جُرْمٍ ارْتَكَبوا، وما جَرُّوه علىٰ أُمَمِهِمْ من البَلَاء والمَصَائب؛ قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزخرف:٤٤].

وجَاءَ في الحَدِيثِ عَنْه ﷺ ما مَعْناه: «**أَنَّ القُرآنَ يُرْفع من الصُّدُور والمَصَاحف في آخِرِ الزَّمَانِ، حين يَزْهَدُ فيه أهلُهُ، ويُعْرِضونَ عَنْه تلاوةً وتَحْكيمًا**»(١).

فالحَذَرَ الحَذَرَ أَنْ يُصَابَ المُسْلمونَ بِهَذِهِ المُصِيبَةِ، أَوْ تُصَاب بِهَا أَجْيَالُهُم المُقْبلة بسَبَب صَنِيعِهمْ، فإِنَّا لله وإِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ.

وأُوجِّه نَصِيحَتِي أَيْضًا إِلَىٰ أَقْوام من المُسْلمينَ يَعِيشُونَ بَيْنهُمْ، وقَدْ عَلِمُوا الدِّينَ، وشَرْعَ رَبِّ العَالَمين، ومَعَ ذَلِكَ لَا زَالُوا يَتحَاكَمُونَ عِنْدَ النِّزاعِ إِلَىٰ رِجَالٍ يَحْكمونَ بَيْنهم بعَادَاتٍ وأَعْرافٍ، ويَفْصلون بَيْنهم بعِبَاراتٍ وسجعاتٍ، مُشَابِهِينَ في ذَلِكَ صنيعَ أَهْلِ الجَاهليَّة الأُولَىٰ.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٧).

وأَرْجو مِمَّنْ بَلَغته مَوْعظتي هذِهِ أَنْ يتوبَ إلىٰ الله، وأَنْ يكفَّ عن تِلْكَ الأَفْعال المُحرَّمة، ويَسْتغفرَ الله، ويَنْدمَ عَلَىٰ ما فاتَ، وأَنْ يَتَواصىٰ مع إخوانِهِ ومَنْ حَوْلَه علىٰ إِبْطَالِ كُلِّ عادةٍ جاهليَّةٍ، أو عُرْفٍ مخالفٍ لشَرْع الله، فإنَّ التَّوبةَ تَجُبُّ ما قَبْلها، والتَّائبَ من الذَّنبِ كمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ، وعَلَىٰ وُلَاةِ أُمُور أُولَئِكَ النَّاس وأَمْثَالهم أَنْ يَحْرصُوا عَلَىٰ تَذْكيرِهِمْ ومَوْعظتِهِمْ بِالحَقِّ، وبَيَانه لَهُمْ، وإِيجَاد الحُكَّام الصَّالحين بَيْنهم؛ ليَحْصلَ الخيرُ بإِذْنِ الله، ويَكفُّوا عبادَ الله عن مُحَادَّتِهِ، وَارْتِكَابِ مَعَاصيه، فَمَا أَحْوجَ المُسْلمينَ اليَوْمَ إلىٰ رَحْمة رَبِّهِمْ الَّتي يُغيِّر اللهُ بها حَالَهمْ، ويَرْفعهم من حَيَاة الذُّلِّ والهَوَان إلىٰ حياةِ العِزِّ والشَّرَف.

وأَسْأَلُ اللهَ بأَسْمائِهِ الحُسْنىٰ، وصفاتِهِ العُلَىٰ أن يَفْتحَ قُلُوبَ المُسْلمينَ لِتَفهُّمِ كَلَامِهِ، والإِقْبَالِ عَلَيه سُبْحانَه، والعَمَلِ بشَرْعِهِ، والإِعْرَاضِ عَمَّا يُخَالِفُهُ، والالْتِزَام بحُكْمِهِ؛ عملًا بقولِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف:٤٠].

وصَلَّى الله وَسلَّم على نَبيِّنا مُحمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبه وأتباعِهِ بإحسانٍ

إلى يَوْم الدِّين



(٦) نصيحة واجبة لتحكيم شرع الله المطهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ رَسُولِ الله.

أَمَّا بَعْد:

فقَدْ قالَ النَّبِيُّ ﷺ في الحَدِيثِ الصَّحيح: «**الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النَّصيحةُ**». قيل: لمَنْ يا رَسُولَ الله؟ قال: «**للهِ، ولكتابِهِ، ولِرَسولِهِ، ولأَئِمَّةِ المُسْلمينَ وعامَّتِهِمْ**»(١).

وَقِيامًا بهَذا الواجِبِ فإِنِّي أُعِيدُ التَّذكيرَ بِمَا سَبَق أَنْ كتبتُ وتحدَّثتُ عنه مرارًا، مِنْ بَيانِ وُجُوبِ التَّحاكُمِ إلىٰ شَرْعِ الله، ونَبْذِ ما خالَفه.

لقَدْ دَلَّتِ الأَدلَّةُ الشَّرعيَّة الصَّريحة من الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ أَنَّه يجبُ عَلَىٰ المُسْلمينَ جَمِيعًا؛ أَفرادًا، أَوْ جَمَاعاتٍ، أو حُكُوماتٍ ودُوَلًا التَّحاكُمُ فِيمَا شَجَر بَيْنهم من خُصُوماتٍ وَنِزَاعاتٍ إِلَىٰ شَرْعِ اللهِ سُبْحانَه، والرُّضُوخُ له، والتَّسْليمُ بِهِ.

ومِنْ هَذِهِ الأَدلَّة الصَّريحة: قَوْلُهُ تَعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]، وقَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠]، وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩]، وَقَوْلُهُ سُبْحانَه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والآياتُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

ومِنْهَا يُعْلم أَنَّهُ لَا يَجُوزُ للمُسْلم التَّحاكُمُ إلىٰ القَوَانين الوَضعيَّة، أو الأَعْرَاف القَبليَّة المُخَالفة للشَّرْع.

كَمَا أُوجِّه نَصِيحَتِي الخَالِصَةِ في هذِهِ الكَلِمَةِ إلىٰ حُكَّام الدُّوَل الإِسْلاميَّة جميعًا بسَبَب ما وَقَعَ ويَقَعُ بَيْنهم من النِّزاعَات المُتعدِّدة بأَنَّ الطَّريقَ الوحيدَ الَّذي يجبُ اللُّجوءُ إِلَيْهِ لحلِّ النِّزاعاتِ بَيْنَ دُوَلهم في المُمْتلكاتِ، والحُقُوق، والحُدُود السِّياسيَّة وغَيْرها هُوَ تَحْكيمُ شَرْع الله، وذَلِكَ بتَشْكيلِ لَجْنةٍ أو مَحْكمةٍ شَرعيَّةٍ، أَعْضَاؤها من عُلَماء الشَّرْع المُطهَّر مِمَّنْ هُمْ محلُّ رِضَا الجَمِيع عِلْمًا، وفَهْمًا، وعدلًا، ووَرَعًا، تَنْظر في مَحلِّ النِّزاع، ثمَّ تحكم بما تَقْتضيه الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ، وليَعْلموا أَنَّ ما يَقَع من بَعْضهم من التَّحاكُم إلىٰ مَحْكمةِ العَدْل الدُّوليَّة وأَمْثَالها مِنَ الهَيْئاتِ غَيْر الإِسْلاميَّة هُوَ تَحَاكمٌ إِلَىٰ غَيْر شَرْع الله، ولا يَجُوز التَّقَاضي إِلَيْها، أو تَحْكيمها بَيْنَ المُسْلمينَ، فَلْيَحْذروا ذَلِكَ، وَلْيَتَّقوا اللهَ، ويَخْشوا عِقَابَه الَّذي توعَّد به مَنْ يُعْرِض عَنْ شَرْعِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا

فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، وَقَالَ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٤٩، ٥٠]، وَالآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ كثيرةٌ، كُلُّها تُؤكِّد أَنَّ طاعةَ الله ورَسُولِهِ سببٌ لسَعَادة الدُّنيا، ونَعِيم الآخِرَةِ، وأَنَّ مَعْصيةَ اللهِ وَرَسُولِهِ، والإِعْرَاضَ عَنْ ذِكْرِ الله، والتَّولِّي عن حُكْمِهِ سببٌ لضَنْك العَيْش، وشَقَاء الحَيَاة، والعَذَاب في الآخِرَةِ.

واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَهْدي الجميعَ إلىٰ الحقِّ، ويَرْزقَهم الاسْتِقَامةَ، ويُصْلح أَحْوَالَهم، ويُعِينَهُمْ عَلَىٰ كلِّ مَا فِيهِ صَلَاح أَمْر دِينِهمْ ودُنْيَاهُمْ، وأَنْ يمنحَ الجميعَ الرِّضا بحُكْمِ الله ورَسُولِهِ؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

وصلَّى اللهُ وَسَلَّم عَلَى نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وآلِهِ وصحبِهِ أجْمَعينَ

رئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء

وإدارة البحوث العلمية والإفتاء

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

(٧) حُكْمُ الاحتكامِ إلى القوانين الوَضْعِيَّةِ مع وجودِ القرآنِ الكريمِ

السؤال: ما رأيكم في المسلمين الَّذين يحتكمون إلى القوانين الوضعية، مع وجود القرآن الكريم والسُّنَّةِ المطهَّرةِ بين أظهرهم؟

الجواب: رأيي في هَذَا الصِّنْفِ من النَّاس الَّذين يُسَمُّون أنفسهم بالمسلمين، في الوقت الَّذي يتحاكمون فيه إلىٰ غير ما أنزل الله، ويرون شريعةَ الله غير كافية ولا صالحة للحكم في هَذَا العصر- هو ما قَالَ الله ﷻ في شَأْنِهم، حيث يَقُول ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥]، ويَقُول ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧].

إذًا، فالَّذين يتحاكمون إلىٰ شريعةٍ غيرِ شريعةِ الله، ويرون أن ذلك جائزٌ لهم، أو أنَّ ذلك أولىٰ من التحاكم إلىٰ شريعةِ الله، لا شَكَّ أَنَّهم يَخْرُجونَ بذلك عن دائرةِ الإسلامِ، ويكونون بذلك كفارًا ظالمين فاسقين، كَمَا جاء في الآيات السابقة وغيرها، وقوله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠]، والله الموفق.



(٨) وجوبُ العملِ بِسُنةِ الرسول ﷺ وَكُفْرُ من أنكرها(١)

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمين، والعاقبةُ للمُتَّقين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ عَبْدِهِ ورَسُوله، نَبِيِّنا مُحمَّدٍ المُرْسَلِ رحمةً للعَالَمين، وَحُجَّةً علىٰ العِبَادِ أَجْمَعين، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ، الَّذين حَمَلُوا كتابَ رَبِّهم سُبْحَانه، وسُنَّةَ نَبِيِّهِمْ ﷺ إلىٰ مَنْ بَعْدهم بغَايَة الأمانة والإتْقَان، والحفظ التَّامِّ للمَعَاني والألْفَاظ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَنا مِنْ أتباعهم بِإِحْسَانٍ، **أمَّا بعد:**

فقَدْ أَجْمَعَ العُلَماءُ قديمًا وحديثًا علىٰ أنَّ الأُصُولَ المُعْتَبرَةَ في إثْبَات الأَحْكَام، وبَيَانِ الحَلَال والحَرَام في كِتَابِ الله العزيز، الَّذي لا يَأْتيه الباطلُ من بَيْن يَدَيه، ولا من خَلْفِهِ، ثُمَّ سُنَّةِ رَسُول الله عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، الَّذي لا يَنْطِقُ عن الهَوَىٰ، إنْ هو إلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، ثمَّ إجماعِ عُلَماء الأُمَّة.

وَاخْتَلف العُلَماءُ في أُصُولٍ أُخرىٰ أهمُّها القياسُ، وجُمْهور أَهْل العِلْمِ عَلَىٰ أنَّه حُجَّةٌ إذا اسْتَوفىٰ شُرُوطَه المُعْتبرة، والأدلَّة عَلَىٰ هذِهِ الأُصُول أَكْثر من أَنْ تُحْصَرَ، وأَشْهَرُ من أن تُذْكَرَ:

أمَّا الأَصْل الأَوَّلُ: فهُوَ كتابُ الله العزيز، وقَدْ دلَّ كَلَامُ ربِّنا عَزَّوَجَلَّ في مَوَاضعَ من كتابِهِ علىٰ وُجُوب اتِّباعِ هَذَا الكِتَابِ، والتَّمَسُّكِ به، والوُقُوف عند حُدُودِهِ،

(١) نُشِرَتْ بمجلة «البحوث الإسلامية»، العدد الخامس، الصادر من محرم إلىٰ جمادىٰ الثانية، عام ١٤٠٠هـ، وَصَدَرَتْ في نشرة صغيرة من الرئاسة العامة عام ١٤٠٠هـ شركة الطباعة العربية السعودية.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف:٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥]، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت:٤١]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت:٤٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]. وَالآياتُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ.

وقَدْ جَاءَت الأحاديثُ الصِّحاحُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ آمرةً بالتَّمسُّكِ بالقُرْآن، وَالاعْتِصَامِ بِهِ، دَالَّةً علىٰ أَنَّ مَنْ تمسَّكَ به كَانَ علىٰ الهُدَىٰ، ومَنْ تَركه كَانَ عَلَىٰ الضَّلال، ومِنْ ذلك ما ثَبَتَ عنه ﷺ أنَّه قَالَ في خطبتِهِ في حَجَّةِ الوَدَاع: «**إنِّي تَاركٌ فِيكُم مَا لَنْ تَضِلُّوا إن اعْتَصَمْتم به: كِتَابَ اللهِ**»، رَوَاهُ مسلمٌ في «صحيحِهِ»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» أيضًا عَنْ زَيْد بن أرقم رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**إنِّي تَارِكٌ فِيكُم ثَقَلَيْن؛ أَوَّلُهمَا: كِتَابُ اللهِ فِيه الهُدَىٰ والنُّور، فخُذُوا بكِتَابِ اللهِ، وتمَسَّكُوا بِهِ**»، فَحَثَّ علىٰ كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثمَّ قَالَ: «**وأَهْل بَيْتِي، أُذكِّرُكُم اللهَ في أَهْل بَيْتِي، أذكِّرُكُم اللهَ في أَهْلِ بَيْتِي**»[(٢)]. وفي لَفْظٍ قَالَ في القُرْآن: «**هُوَ حَبلُ**

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

اللهِ، مَنْ تَمَسَّكَ به كَانَ علَىٰ الهُدَىٰ، ومَنْ تركَهُ كَانَ علَىٰ الضَّلَال»(١).

وَالأَحَاديثُ في هَذَا المَعْنىٰ كثيرةٌ، وفي إِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ والإِيمَانِ من الصَّحَابة، ومَنْ بَعْدهم، عَلَىٰ وُجُوبِ التَّمَسُّكِ بكِتَابِ اللهِ، وَالحُكْمِ بِهِ، والتَّحاكم إِلَيْه مَعَ سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، ما يَكْفِي وَيَشْفِي عن الإِطَالَة في ذِكْرِ الأَدلَّة الواردة في هَذَا الشَّأن.

أَمَّا الأَصْلُ الثَّاني من الأُصُول الثَّلاثة المُجمع عَلَيها، فهو: ما صَحَّ عن رَسُولِ الله ﷺ، وأَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْ بَعْدهم من أَهْلِ العِلْم والإِيمَانِ، يُؤمِنُونَ بِهَذَا الأَصْل الأَصِيل، وَيَحْتَجُّون بِهِ، ويُعلِّمونه الأُمَّة، وقَدْ أَلَّفُوا في ذَلِكَ المُؤلَّفاتِ الكثيرةَ، وأَوْضَحُوا ذَلِكَ في كُتُبِ أُصُولِ الفِقْهِ والمُصْطَلح.

وَالأدلَّة عَلَىٰ ذَلِكَ لا تُحْصَىٰ كَثْرَةً، فمِنْ ذَلِكَ ما جَاءَ في كِتَابِ الله العَزيز، من الأَمْر بِاتِّباعِهِ وطاعتِهِ، وذَلِكَ مُوَجَّهٌ إِلىٰ أَهْل عَصْره وَمَنْ بَعْدهُمْ؛ لأَنَّه رَسُولُ الله إِلَىٰ الجَمِيعِ، وَلأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ باتِّباعِهِ وطاعتِهِ حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعة، ولأَنَّه -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- هو المُفَسِّرُ لِكِتَابِ اللهِ، والمُبَيِّنُ لِمَا أُجْمل فيه بأَقْوَالِهِ، وأَفْعالِهِ وتَقْريره.

ولَوْلَا السُّنَّةُ لَمْ يَعْرِفِ المُسْلمونَ عَدَدَ ركعاتِ الصَّلواتِ، وصِفَاتِها، وما يَجِبُ فِيهَا، ولَمْ يَعْرِفُوا تَفْصيلَ أَحْكَامِ الصِّيَام، والزَّكاةِ، والحَجِّ، والجِهَادِ، والأَمْرِ بالمَعْروفِ، والنَّهي عن المُنْكر، ولَمْ يَعْرفوا تَفَاصيلَ أَحْكَامِ المُعَاملاتِ، والمُحَرَّمات، ومَا أَوْجَبَ اللهُ بِهَا من حُدُودٍ وعُقُوباتٍ.

ومِمَّا وَرَد في ذَلِكَ من الآيات قولُهُ تَعالىٰ في سُورَة آل عمران: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).

وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢]، وقولُهُ تَعالىٰ في سُورَة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩]، وَقَالَ تَعَالىٰ في سُورَة النِّساء أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠].

وكَيْف تُمْكِنُ طاعتُهُ وَرَدُّ ما تَنَازع فيه النَّاس إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رَسُولِهِ إذا كانت سُنَّتُهُ لا يُحْتَجُّ بها، أو كَانَتْ كُلُّها غيرَ مَحْفوظةٍ؟ وعَلَىٰ هَذَا القول يَكُون اللهُ قَدْ أَحالَ عِبَادَه إلىٰ شَيءٍ لا وُجُودَ له، وهَذَا مِنْ أَبْطَلِ الباطل، ومِنْ أَعْظَم الكُفْر بالله، وسُوء الظَّنِّ بِهِ.

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة النَّحْل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤]، وَقَالَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤]؛ فكَيْفَ يَكِلُ اللهُ سُبْحانَه إلىٰ رَسُولِهِ ﷺ تَبيينَ المُنَزَّلِ إِلَيْهِم، وَسُنَّتُهُ لا وُجُودَ لَهَا، أَوْ لَا حُجَّةَ فيها؟

وَمِثْلُ ذَلِكَ قولُهُ تَعالىٰ في سورة النُّور: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور:٥٤]، وَقَالَ تَعالىٰ في السُّورةِ نَفْسِهَا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور:٥٦]، وَقَالَ في سُورَة الأَعْرَاف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ

وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨].

وَفِي هَذِهِ الآياتِ الدِّلالةُ الوَاضحةُ علىٰ أنَّ الهدايةَ والرَّحمةَ في اتِّباعِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وكَيْف يُمْكن ذَلِكَ مَعَ عَدَم العَمَل بِسُنَّتِهِ، أو القَوْل بأنَّه لا صِحَّةَ لَهَا، أو لا يُعْتَمَدُ عَلَيها؟ وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة النُّور: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]، وَقَالَ في سُورَة الحَشْرِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وَالآياتُ فِي هَذَا المَعْنَىٰ كثيرةٌ، وَكُلُّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ طاعتِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، واتِّباعِ ما جاءَ به، كَمَا سَبقَتِ الأَدلَّةُ علىٰ وُجُوبِ اتِّباع كتاب الله، والتَّمَسُّك به، وطَاعَة أَوَامره ونَوَاهيه، وهُمَا أَصْلَان مُتَلازِمَانِ، مَنْ جَحَدَ واحدًا مِنهما فقَدْ جَحَدَ الآخَرَ، وَكَذَّبَ بِهِ، وذَلِكَ كُفْرٌ وضَلَالٌ، وخُرُوجٌ عن دَائِرَةِ الإِسْلَامِ، بِإِجْمَاعِ أَهْلِ العِلْمِ والإيمانِ.

وقَدْ تَوَاتَرَتِ الأحاديثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ في وُجُوبِ طاعتِهِ، واتِّباعِ ما جَاءَ بِهِ، وتَحْرِيمِ مَعْصِيَتِهِ، وذلك في حقِّ مَنْ كَانَ في عَصْره، وفي حَقِّ مَنْ يأتي بَعْدَه إلىٰ يوم القِيَامةِ. ومن ذَلِكَ ما ثَبَتَ عنه في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ الله**»(١).

وفي «صحيح البخاريِّ» عَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**». قِيلَ: يَا رسُولَ الله، ومَنْ يَأْبَىٰ؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

وأَخْرَج أَحْمدُ، وأَبُو دَاوُدَ، والحاكمُ بإسنادٍ صحيحٍ عن المِقْدَامِ بن معدي كرب، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنّه قَالَ: «ألَا إنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ ومِثْلَه مَعَه، ألَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ، يَقُول: عَلَيْكُمْ بهَذَا القُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيه مِنْ حَلَالٍ فأَحِلُّوه، ومَا وجَدْتُم فِيه مِنْ حَرَامٍ فَحرِّمُوه»(١).

وأَخْرَج أَبُو داود، وَابْنُ ماجه بِسَنَدٍ صحيحٍ عن ابْنِ أبي رافعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا أَلْفِيَنَّ أحَدكُم متَّكِئًا علَىٰ أرِيكَتِهِ يَأتِيه الأَمْرُ مِنْ أمْرِي مِمَّا أمرتُ بِهِ، أو نَهيْتُ عَنْه، فيقُولُ: لا نَدْرِي، مَا وجَدْنَا في كِتَاب اللهِ اتَّبعْنَاه» (٢).

وعَنْ الحَسَن بن جابرٍ قَالَ: سمعتُ المِقْدَامَ بنَ مَعْدي كَرِب رضي الله عنه يَقُول: حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يومَ خَيْبَر أشياءَ، ثمَّ قَالَ: «يُوشِكُ أحَدُكُم أنْ يُكذِّبَنِي وَهُو مُتَّكِئٌ يُحدِّثُ بِحَدِيثِي، فيَقُول: بَيْننَا وبَيْنكُم كِتَابُ اللهِ، فمَا وجَدْنَا فِيه مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْناه، ومَا وجَدْنَا فِيه مِنْ حَرَامٍ حرَّمْنَاه، ألَا إنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ»، أَخْرَجَه الحاكمُ، والتِّرمذيُّ، وابْنُ ماجه بإسنادٍ صحيحٍ(٣).

وقَدْ تَوَاترت الأحاديثُ عَنْ رَسُول الله ﷺ بأنَّه كَانَ يُوصي أَصْحَابه في خطبتِهِ أن يُبَلِّغَ شَاهِدُهم غَائبَهم، ويَقُولُ لَهُمْ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِن سَامِعٍ»(٤).

ومِنْ ذَلِكَ ما في «الصَّحِيحَيْنِ» أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا خَطَب النَّاسَ في حَجَّةِ الوَدَاعِ، في يَوْم عَرَفة، وفِي يَوْم النَّحْرِ، قَالَ لَهُمْ: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مَنْ

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠) (١٧٢١٣)، وأبو داود (٤٦٠٤)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، وابن ماجه (١٣)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (١٦٢).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٧١)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٣٢) (١٧٢٣٣)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٧٤١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

يُبلِّغُهُ أوْعَىٰ لَهُ مِمَّنْ سَمِعَهُ»(١).

فلَوْلَا أَنَّ سُنَّتَهُ حُجَّةٌ عَلَىٰ مَنْ سَمِعَهَا، وَعَلَىٰ مَنْ بَلَغَتْهُ، ولَوْلَا أَنَّها باقيةٌ إلىٰ يَوْمِ القِيَامةِ، لَمْ يَأْمُرْهُم بِتَبْليغِها، فَعُلِمَ بذَلِكَ أَنَّ الحُجَّةَ بالسُّنَّةِ قائمةٌ عَلَىٰ مَنْ سَمِعَهَا مِنْ فِيهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وعلىٰ مَنْ نُقِلَتْ إليه بالأَسَانيد الصَّحيحةِ.

وقَدْ حفظَ أَصْحابُ رَسُولِ الله ﷺ سُنَّتَهُ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- القوليةَ والفعليةَ، وَبَلَّغُوها مَنْ بَعْدَهم مِن التَّابِعين، ثمَّ بَلَّغَها التَّابِعُون مَنْ بَعْدَهُم، وَهَكذا نَقَلها العُلماءُ الثِّقَاتُ جِيلًا بعد جيلٍ، وَقَرْنًا بعد قرنٍ، وَجَمَعوها في كُتُبهم، وأوضَحوا صَحيحَها من سَقِيمِها، وَوَضَعُوا لِمَعرِفةِ ذلك قَوانِينَ وضَوابِطَ مَعلومةً بَينهم، يُعْلَمُ بها صحيحُ السُّنَّةِ مِنْ ضَعيفها.

وقد تَدَاوَلَ أهلُ العِلْمِ كُتُبَ السُّنَّةِ من «الصَّحيحين» وغَيْرهما، وحَفِظُوهَا حفظًا تامًّا، كَمَا حفظ اللهُ كتابَهُ العزيزَ من عَبَثِ العابِثِين، وإلحادِ المُلْحِدِين، وتحريفِ المُبْطِلِين؛ تحقيقًا لما دَلَّ عليه قولُه سُبْحَانَه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر:٩].

ولا شَكَّ أَنَّ سُنَّةَ رَسُولِ الله ﷺ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ؛ فقد حَفِظَها اللهُ كَمَا حَفِظ كِتابَه، وَقَيَّضَ اللهُ لها علماءَ نُقَّادًا، يَنْفُونَ عنها تحريفَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْويلَ الجاهلين، وَيَذُبُّونَ عنها كُلَّ مَا أَلْصَقَه بها الجَاهِلُون، والكَذَّابون، والمُلْحِدُون؛ لأن اللهَ سُبْحَانَه جَعَلَهَا تفسيرًا لكتابه الكريمِ، وبيانًا لما أُجْمِلَ فيه مِنَ الأَحْكَامِ، وَضَمَّنَهَا أحكامًا أُخرىٰ لم يَنُصَّ عليها الكتابُ العزيزُ، كتفصيل أحكامِ الرَّضَاعِ، وبعضِ أحكامِ المَواريث، وتحريمِ الجمعِ بين المرأةِ وَعَمَّتِها، وبين المرأةِ

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٨)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وخالتِها، إلىٰ غير ذلك من الأحكام الَّتي جاءت بها السُّنَّةُ الصَّحيحةُ، ولم تُذْكَرْ في كتابِ اللهِ العزيزِ.

ذكر بعض ما ورد من الصَّحابةِ والتَّابعين ومَنْ بعدهم من أهلِ العلم في تعظيمِ السُّنَّةِ ووجوبِ العملِ بها في «الصَّحيحين»:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: «لمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وارتدَّ مَنِ ارتدَّ مِنَ العربِ قَالَ أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: واللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَقَالَ له عُمَرُ رضي الله عنه: كيف تُقَاتِلُهم وقد قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَه إِلَّا الله، فَإِنْ قَالُوهَا عصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلَّا بحقِّهَا**»؟ فقَالَ أبو بكر الصِّدِّيق: أليست الزَّكاةُ من حَقِّهَا؟! واللهِ لَو مَنَعُوني عنَاقًا كانوا يُؤَدُّونَها إلىٰ رَسُول الله ﷺ لقاتلتُهم علىٰ مَنْعِهَا، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: فما هو إلَّا أن عَرَفْتُ أنَّ اللهَ قد شَرَح صدرَ أبي بَكْر للقِتالِ فَعَرَفتُ أنَّه الحقُّ»[(١)].

وقد تابَعَهُ الصَّحابةُ رضي الله عنهم علىٰ ذلك، فقاتلوا أهلَ الرِّدَّةِ حتَّىٰ رَدُّوهم إلىٰ الإسلامِ، وَقَتَلُوا مَنْ أَصَرَّ علىٰ رِدَّتِه، وفي هَذِهِ القِصَّة أوضحُ دليلٍ علىٰ تعظيمِ السُّنَّةِ، ووجوبِ العملِ بها.

وجاءت الجَدَّةُ إلىٰ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه تسأله عن مِيراثِها، فَقَالَ لها: ليس لكِ في كتابِ اللهِ شيءٌ، ولا أعلم أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قضىٰ لك بشيء، وسأسأل النَّاسَ، ثمَّ سأل رضي الله عنه الصَّحابةَ: فَشَهد عِندَه بعضُهُم بأن النبيَّ ﷺ أعطىٰ الجَدَّةَ السُّدُسَ، فقَضَىٰ لها بذلك[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبَّان في «صحيحه» (٦٠٣١)، وضَعَّفه الألبانيُّ في «التعليقات الحسان» (٥٩٩٩).

وكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصِي عمَّالَه أن يَقْضُوا بَيْنَ النَّاس بكتاب الله، فإن لم يَجِدُوا القضيةَ في كتاب الله، فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

ولمَّا أشكل عليه حكمُ إمْلَاصِ المرأةِ، وهو إسقاطُها جَنِينًا مَيِّتًا بِسَبَبِ تَعَدِّي أحدٍ عليها، سأل الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن ذلك، فشهد عنده محمدُ بن مَسْلَمَةَ والمغيرةُ بنُ شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قضىٰ في ذلك بِغُرَّةٍ عَبْدٍ أو أَمَةٍ، فَقَضَىٰ بذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

ولمَّا أشكل علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُكْمُ اعتدادِ المرأة في بيتها بعد وفاة زوجها، وأخبرته فريعةُ بنت مالك بنِ سنان أختُ أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَها بعد وفاةِ زوجها أن تَمْكُثَ في بيته حتَّىٰ يَبْلُغَ الكتابُ أَجَلَه قَضَىٰ بذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وهكذا قَضَىٰ بالسُّنَّةِ في إقامة حَدِّ الشُّرْبِ علىٰ الوليدِ بنِ عُقْبَة[3].

ولمَّا بَلَغَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْهَىٰ عن متعة الحج، أَهَلَّ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحَجِّ والعمرةِ جميعًا، وَقَالَ: لا أَدَعُ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِقَوْلِ أحدٍ من النَّاس[4].

ولمَّا احتجَّ بعضُ النَّاس علىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في متعة الحج بقول أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تَحْبِيذِ، إفرادِ الحَجِّ قَالَ ابْنُ عبَّاس: «يُوشِكُ أن تَنْزِلَ عليكم حجارةٌ من السَّماء!! أقول: قَالَ رَسُول الله ﷺ، وتَقُولُون: قَالَ أبو بكر وعمر؟!»[5]. فإذا كَانَ مَنْ خالف السُّنَّةَ لقَوْل أبي بكر وعمر تُخْشَىٰ عليه

(١) أخرجه البخاري (٦٩٠٧)، ومسلم (١٦٨٩).
(٢) أخرجه الترمذي (١٢٠٤)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «التعليقات الحسان» (٤٢٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٧٠٧).
(٤) أخرجه البخاري (١٥٦٣).
(٥) أخرجه بنحوه: أحمد (٣١٢١) (١/ ٣٣٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٥).

العقوبةُ فكيف بحال مَنْ خالفهما لقول مَنْ دونهما، أو لمجرد رأيه واجتهاده؟!

وَلَمَّا نازَعَ بَعضُ النَّاس عَبدَ اللهِ بنَ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في بَعضِ السُّنَّةِ قَالَ له عبدُ الله: هَل نَحنُ مَأمُورونَ باتِّباعِ عُمرَ أو باتِّباع السُّنَّةِ؟!

وَلَمَّا قَالَ رجلٌ لعمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: حَدِّثْنا عن كتاب الله، (وهو يُحَدِّثُهم عن السُّنَّةِ) غَضِبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَالَ: إنَّ السُّنَّةَ هي تفسير كتاب الله، ولَوْلَا السُّنَّة لَمْ نَعْرف أن الظُّهْرَ أربعٌ، والمغربَ ثلاثٌ، والفجرَ ركعتان، ولم نعرف تفصيل أحكام الزكاة[1] إلىٰ غير ذلك مما جاءت به السُّنَّةُ من تفصيل الأحكام.
والآثارُ عن الصَّحَابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في تعظيم السُّنَّةِ ووجوبِ العمل بها والتحذير من مخالفتها كثيرةٌ جِدًّا.

ومن ذلك أيضًا أنَّ عبدَ الله بنَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَمَّا حدَّثَ بقوله ﷺ: «**لا تَمْنَعُوا إمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ الله**»، قَالَ بعض أبنائه: والله لَنَمْنَعهُنَّ، فَغَضِبَ عليه عبدُ الله، وَسَبَّه سَبًّا شديدًا، وَقَالَ: أقول: قَالَ رَسُول الله وتَقُول: والله لنمنعهن[2]؟!

«وَلَمَّا رأىٰ عبدُ الله بنُ المغفل المُزَنِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وهو من أصحاب رَسُول الله ﷺ- بعضَ أقاربه يخذف، نهاه عن ذلك، وقَالَ له: إنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَىٰ عن الخَذْف، وقَالَ: «**إنَّهُ لا يَصِيدُ صَيْدًا، وَلا يَنْكَأُ عَدُوًّا، وَلَكِنَّهُ يَكْسِرُ السِّنَّ، وَيَفْقَأُ العَيْنَ**»، ثمَّ رَآه بعد ذلك يخذف فَقَالَ: والله لا كَلَّمْتُكَ أبدًا، أُخْبِرُكَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَنْهَىٰ عن الخذف ثمَّ تَعُودُ» [3]؟!

---

(١) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (ح٦٦) (ص٢٣٤، ٢٣٥)، والآجري في «الشريعة» (١/ ٤١٧).
(٢) أخرجه مسلم (٤٤٢).
(٣) أخرجه البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤).

وأخرج البيهقيُّ، عن أيوب السختيانيِّ التابعيِّ الجليلِ أنَّه قَالَ: إذا حدَّثْتَ الرجلَ بِسُنَّةٍ، فَقَالَ: «دَعْنَا من هذا، وَأَنْبِئْنَا عن القرآن»، فاعلم أنَّه ضالٌّ(١).

وَقَالَ الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: السُّنَّةُ قاضيةٌ علىٰ الكتابِ(٢). أي: تُقَيِّدُ ما أَطْلَقَهُ. أو: بأحكامٍ لم تُذْكَرْ في الكتابِ، كَمَا في قولِ اللهِ سُبْحَانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل:٤٤]، وَسَبَقَ قَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ ومِثْلَه مَعَهُ»(٣).

وأخرج البيهقيُّ، عن عامر الشعبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه قَالَ لبعض النَّاس: إنَّما هَلَكْتُم في حين تركتم الآثار(٤). يعني بذلك الأحاديثَ الصَّحيحة.

وأخرج البيهقيُّ أيضًا عن الأوزاعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه قَالَ لبعض أصحابه: إذا بَلَغَكَ عن رَسُولِ الله حديثٌ، فإياك أن تَقُولَ بغَيْره، فإنَّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ مُبلِّغًا عن الله تعالىٰ(٥).

وأخرج البيهقيُّ، عن الإمام الجليلِ سفيان بن سعيد الثوريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه قَالَ: إنَّمَا العِلْم كُلُّه العلمُ بالآثارِ(٦).

وقَالَ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: ما مِنَّا إلَّا رادٌّ ومردودٌ عليه، إلَّا صاحب هَذَا القَبْر(٧). وأشار إلىٰ قَبْرِ رَسُولِ الله ﷺ.

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد (٧/ ١٨٤).

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٨٨).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠) (١٧٢١٣)، وأبو داود (٤٦٠٤)، وصَحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (١٦٣).

(٤) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٦٠٣).

(٥) انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبيِّ (١/ ١٣٥).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٧).

(٧) انظر: «الموطأ» (١/ ٢٥١).

وقَالَ أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا جاء الحديثُ عن رَسُولِ الله ﷺ، فعلىٰ الرأس والعين(١).

وَقَالَ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: متىٰ رويتُ عن رَسُول الله ﷺ حديثًا صحيحًا فلم آخُذْ به، فأُشهدكم أنَّ عقلي قد ذهب(٢).

وَقَالَ أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا قُلْتُ قولًا، وجاء الحديث عن رَسُول الله ﷺ بخلافه، فاضربوا بقولي الحائط(٣).

وَقَالَ الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ لبعض أصحابه: لا تُقَلِّدْني، ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعي، وَخُذْ من حيث أخذنا(٤).

وَقَالَ أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته عن رَسُول الله ﷺ، يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله سُبْحَانه يَقُول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]. ثمَّ قَالَ: أتدري ما الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لعله إذا رَدَّ بعض قوله عَلَيه الصَّلاة والسَّلام أن يَقَعَ في قلبه شيءٌ من الزَّيْغِ فيهلك(٥).

وأخرج البيهقيُّ عن مجاهد بن جبر التابعي الجليل، أنَّه قَالَ في قولِهِ سُبْحَانَه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] قَالَ: الرَّدُّ إلىٰ اللهِ الرَّدُّ إلىٰ كتابه، والرَّدُّ إلىٰ الرَّسُولِ الرَّدُّ إلىٰ السُّنَّةِ(٦).

---

(١) أورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٤٠١).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٠٦).
(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٥).
(٤) أورده ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٠١).
(٥) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٩٧).
(٦) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٥٠٥).

وأخرج البيهقيُّ، عن الزهريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه قَالَ: كَانَ من مضىٰ من علمائنا يَقُولُون: الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ(١).

وَقَالَ مُوَفَّقُ الدِّين ابن قُدَامة رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابه «رَوْضَةِ النَّاظِرِ» في بيان أصول الأحكام، ما نَصُّه: والأصل الثاني من الأدلة سُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَقَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُجَّةٌ؛ لدلالةِ المعجزةِ علىٰ صِدْقِهِ، وَلِأَمْرِ اللهِ بِطَاعَتِهِ، وَتَحْذِيره مِنْ مخالفةِ أَمْرِهِ. انتهىٰ المقصود(٢).

وَقَالَ الحافظُ ابنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِ قولِه تعالىٰ: «﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣] أي: عن أمر رَسُول الله ﷺ، وهو سَبِيلُهُ، وَمِنْهَاجُهُ، وَطَرِيقتُه، وَسُنَّتُهُ، وَشَرِيعتُه، فَتُوزَن الأقوالُ والأعمالُ بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مردودٌ علىٰ قائله وفاعله كائنًا مَنْ كان.

كَمَا ثبت في «الصَّحيحين» وغيرهما، عن رَسُول الله ﷺ، أنَّه قَالَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**»(٣). أي: فَلْيَخْشَ وَلْيَحْذَرْ مَنْ خالفَ شريعةَ الرَّسُولِ باطنًا وظاهرًا: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] أي: في قلوبهم، مِنْ كُفْرٍ، أو نِفَاقٍ أو بِدْعَةٍ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور:٦٣] أي: في الدنيا، بِقَتْلٍ أو حَدٍّ، أو حَبْسٍ أو نحو ذلك.

كَمَا روىٰ الإمام أحمد، حَدَّثنا عبد الرزاق، حَدَّثنا معمر، عن همام بن منبه، قَالَ: هَذَا ما حَدَّثنا أبو هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُم كَمَثَلِ**

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٩٧).

(٢) «روضة الناظر» لابن قدامة (ص٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّائِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا». قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُم عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»، أخرجاه من حديث عبد الرزاق[1]»[2].

وَقَالَ السيوطيُّ رَحِمَهُ اللهُ في رسالته المُسَمَّاةِ: «مفتاحُ الجَنَّةِ في الاحْتِجَاجِ بِالسُّنَّةِ» ما نَصُّهُ: اعلموا رحمكم الله، أنَّ من أنكر أنَّ كَوْنَ حديثِ النَّبيِّ ﷺ، قولًا كَانَ أو فعلًا، بِشَرْطِهِ المعروفِ في الأصولِ، حُجَّةً- كَفَرَ، وَخَرَجَ عن دائرةِ الإسلام، وحُشِرَ مع اليهودِ والنَّصارَىٰ، أو مع من شاء الله من فِرَقِ الكَفَرَةِ. انتهىٰ المقصود.

والآثارُ عن الصَّحَابة، والتَّابعين، ومَنْ بعدهم من أهل العلم، في تعظيم السُّنَّةِ، ووجوبِ العمل بها، والتحذير من مخالفتها، كثيرةٌ جدًّا، وأرجو أن يكون في ما ذكرنا من الآيات والأحاديث والآثار كِفَايَةٌ، ومقْنعٌ لطالب الحق، ونسأل الله لنا ولجميع المسلمين التوفيق لما يرضيه، والسلامة من أسباب غَضَبِهِ، وأن يَهْدِيَنا جميعًا صراطَه المستقيمَ، إنَّه سميعٌ قريبٌ.

وصَلَّى اللهُ وَسلَّم على عبدِهِ ورَسُولِهِ، نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلى آلهِ، وأصحابِهِ، وأتباعِهِ بإحْسانٍ



---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، وليس هو عنده من طريق عبد الرزاق، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٦/ ٨٩).

(٩) أسباب ضعف المسلمين أمام عدوهم، ووسائل العلاج لذلك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمينَ، والعاقبةُ للمُتَّقينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ عَبْدِهِ، ورَسُولِهِ، وأمينِهِ عَلَىٰ وَحْيه، وخيرته من خَلْقِهِ، نَبيِّنا وإِمَامِنَا وسَيِّدنا مُحمَّد بن عَبْد الله بن عَبْد المُطَّلب وعَلَىٰ آلِهِ وأصحابِهِ ومَنْ سَلَك سَبِيلَهُ، واهْتَدَىٰ بهُدَاه إلىٰ يَوْم الدِّينِ، **أَمَّا بَعْد:**

فلَقَد اهْتَمَّ أَرْبَابُ الفِكْرِ الإسْلاميِّ وأَصْحابُ الغَيْرَةِ الإسْلاميَّة، وأَصْحابُ التَّفْكير الكثير بحَالِ المُسْلمينَ، ومَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرهُمْ.

لقَدْ شَغَلَهم هَذَا الأَمْر كثيرًا، وفكَّروا كثيرًا فِي أَسْبَاب ضَعْفِ المُسْلمينَ، وَفِي أَسْبَاب تَأَخُّرِهِمْ أَمَامَ عَدُوِّهِمْ، وَفِي أَسْباب تَفرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ، وَفِي أَسْبَابِ تَسْليطِ العَدُوِّ عَلَيهم حتَّىٰ أَخذ بَعْض بِلَادِهِمْ.

ثُمَّ بَعْدَ أَنْ عَرَفوا الأَسْبابَ -وَهِيَ واضحةٌ- اهْتمُّوا أَيْضًا بأَنْ يَعْرفوا العلاجَ لهَذِهِ الأَسْبابِ الَّتي أَوْجَبت التَّأَخُّرَ والضَّعفَ، وَهِيَ مَعْلومةٌ أيضًا، ولَكِنْ يَجِبُ أن تُنْشَرَ، وأَنْ تُبيَّنَ، فإِنَّ وَصْفَ الدَّاء، ثُمَّ الدَّوَاء مِنْ أَعْظم أَسْبابِ الشِّفَاء والعافية، فَإِنَّ المَرِيضَ مَتَىٰ عَرَفَ دَاءَهُ، وَعَرَف دَوَاءَه، فَهُوَ جديرٌ بأَنْ يُبَادر إلىٰ أَخْذ الدَّوَاءِ، ثُمَّ يضعُهُ عَلَىٰ الدَّاء.

هذِهِ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ العاقِلِ الَّذي يحبُّ الحياةَ، ويحبُّ الخَلَاصَ مِنَ

الأَمْراض، يَهمُّه أَنْ يعرفَ الدَّاءَ، وأَنْ يعرفَ الدَّواءَ، ولَكِنَّ بَعْضَ النَّاس قَدْ يَغْلب عَلَيه الدَّاءُ، ويَسْتولي عَلَيه حتَّىٰ يَرْضىٰ به، ويَسْتلذّ، وحتَّىٰ يموتَ شُعُورُهُ، فَلَا يُبَالي بمَنْ يصفُ لَهُ الدَّواءَ؛ لأَنَّ الدَّاءَ صَارَ سَجيَّةً وطبيعةً لَهُ، يَرْتاح له، ويَقْنَعُ بالبَقَاء مَعَه لانْحِرَافِ مِزَاجِهِ، وضَعْف بَصِيرَتِهِ، وغَلَبة الهَوَىٰ عَلَيه، وعَلَىٰ عقلِهِ، وقلبِهِ، وتَصرُّفاتِهِ، كَمَا هُوَ الواقعُ في أَكْثَر النَّاسِ بالنِّسبة للأَدْوَاء الدِّينيَّة وعِلَاجِهَا.

فقَدِ اسْتَلذَّ الأكثرُ، وطَابَ لَهُ البقاءُ عَلَىٰ أَمْراضِهِ وسَيِّئَاتِهِ الَّتي أَضْعَفَتْهُ، وعَطَّلَتْ حَرَكاتِهِ، وجَعَلته لا يُحِسُّ بالدَّاءِ في الحَقِيقَةِ، وَلَا يُحِسُّ بِنَتَائِجِهِ، وَلَا بِمَا يَترتَّبُ عَلَيه في العَاجِلِ والآجِلِ، وَلَا يَنْشد الدَّواءَ، وَلَا يَحْرص عَلَيه ولَوْ وُصِفَ لَهُ، وبُيِّنَ لَهُ، ولَوْ كانَ قريبًا منه؛ لأَنَّهُ لا يهمُّ ذَلِكَ، وما ذَاكَ إِلَّا لاسْتِحْكامِ الدَّاء، وَارْتِيَاحِ النَّفس لَهُ، وخَفَاءِ ضَرَره عَلَيه، وعَدَم الهِمَّة العَالية لتَحْصيل المَطَالب العالية.

وقَدْ بَيَّنَ العُلَماءُ، وأَصْحابُ الفِكْرِ النَّيِّر، وأَرْبَاب البَصِيرَةِ النَّافذة والخبرة بأَحْوَال الأُمَم في هَذَا العَصْر وقَبْله بعُصُور أَسْبَاب ضَعْف المُسْلمينَ وتَأَخُّرهم، كَمَا بَيَّنوا وَسَائِلَ العِلَاج النَّاجع، وَنَتَائجه، وعَاقِبتَه إِذَا أُحْسِنَ اسْتِعْمَالُ الدَّواءِ.

وتَرْجعُ أَسْبابُ الضَّعفِ وَالتَّأَخُّر، وتَسْليط الأَعْدَاء إلىٰ سَبَبٍ نَشَأَتْ عَنه أَسْبابٌ كثيرةٌ، وعاملٍ واحدٍ نَشَأَتْ عنه عَوَاملُ كثيرةٌ، وهَذَا السَّببُ الواحدُ، والعاملُ الواحدُ، هُوَ: الجَهْلُ؛ الجَهْلُ بالله، وبدينِهِ، وبالعَوَاقِبِ الَّتي اسْتَوْلَتْ عَلَىٰ الأَكْثريَّة، فصَارَ العِلْمُ قَليلًا، والجَهْلُ غَالبًا.

وعَنْ هَذَا الجَهْل نَشَأَتْ أَسْبابٌ وعواملُ، مِنْهَا: حُبُّ الدُّنيا، وكَرَاهيةُ المَوْت، ومِنْهَا إِضَاعَةُ الصَّلَوات، وَاتِّبَاعُ الشَّهَوات، ومِنْهَا عَدَم الإِعْدَاد للعَدُوِّ،

والرِّضَا بأَخْذ حَاجَاتهم من عَدُوِّهِمْ، وعَدَم الهِمَّة العَالِيَةِ في إِنْتَاجِ حَاجَاتِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ وثَرَواتهم، ونَشَأ عَنْ ذَلِكَ أيضًا التَّفرُّق وَالاخْتِلَافُ، وَعَدَم جَمْع الكَلِمَةِ، وعَدَم الاتِّحَاد، وعَدَم التَّعَاون.

فعَنْ هذِهِ الأَسْبَاب الخطيرة، وثَمَراتها، ومُوجِبَاتها، حَصَل ما حَصَل من الضَّعْفِ أَمامَ العَدُوِّ، وَالتَّأَخُّر في كُلِّ شيءٍ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، والإِقْبَال عَلَىٰ الشَّهَوات المُحرَّمة، والشُّغل بِمَا يصدُّ عَنْ سَبِيلِ الله، وعَنِ الهُدَىٰ، وعَدَم الإِعْدَاد للعَدُوِّ لَا مِنْ جِهَةِ الصِّناعَة، وَلَا مِنْ جِهَةِ السِّلَاح الكافي الَّذي يُخِيفُ العَدُوَّ، ويُعِينُ عَلَىٰ قتالِهِ وجهادِهِ، وأَخْذِ الحَقِّ منه، وعَدَم إِعْدَاد الأَبْدَان للجِهَادِ، وعَدَم صَرْف الأَمْوَال فِيمَا يَنْبَغي لإِعْدَاد العُدَّة للعَدُوِّ، وَالتَّحرُّز من شَرِّهِ، والدِّفَاع عن الدِّينِ والوَطَن.

ونَشأ عَنْ ذَلِكَ المَرَضِ: الحِرْصُ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الدُّنيا بكُلِّ وَسِيلَةٍ، وعَلَىٰ جَمْعها بكُلِّ سَبَبٍ، وأَصْبَح كُلُّ إِنْسَانٍ لَا يَهمُّه إِلَّا نفسُهُ، وما يَتعلَّق بِبِلَادِهِ، وإِنْ ذَهَب في ذَلِكَ دينُهُ، أو أَكْثرُهُ. هَذَا هُوَ حَالُ الأَكْثريَّة، وهَذَا هو الغَالِبُ عَلَىٰ الدُّول المُنْتسبةِ للإِسْلَامِ اليَوْم، بَلْ يصحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذَا هُوَ الواقعُ إِلَّا ما شَاءَ اللهُ -جَلَّ وَعَلا- مِنْ بَعْض الإِعْدَاد، وبَعْض التَّحرُّز عَلَىٰ وَجْهٍ لَيْسَ بالأَكْمَل، ولَيْسَ بالمَطْلوب من كُلِّ الوُجُوه.

ويَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَعْظَمَ الأَسْبَاب هُوَ الجَهْلُ بالله، وبدينِهِ، وبالحَقَائق الَّتي يجبُ التَّمسُّك والأَخذ بِهَا - قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحيح: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفقِّهه في الدِّينِ**»، رَوَاه الشَّيخانِ البُخاريُّ ومسلمٌ في «الصَّحيحين»[(١)]، مَعَ آياتٍ في المَعْنىٰ، وأَحَاديث، كُلُّها تدلُّ عَلَىٰ خُبْثِ الجَهْل، وخُبْثِ عَوَاقبِهِ

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ونِهَايتِهِ، ومَا يَترتَّب عَلَيه، بَل القُرْآنُ الكريمُ مَمْلوءٌ بالتَّنديدِ بالجَهْل وأَهْلِهِ، وَالتَّحْذير مِنْهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام:١١١]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة:١٠٣] إِلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ الآيَاتِ الَّتي تَدُلُّ عَلَىٰ ذَمِّ الجَهْل بالله، والجَهْل بدينِهِ، والجَهْل بالعَدُوِّ، وَبِمَا يجبُ إِعْدادُهُ من الأُهْبَةِ، وَالاتِّحادِ، وَالتَّعَاون.

وعَنِ الجَهْلِ نَشَأَتْ هذِهِ الأشياءُ الَّتي سَبقَتْ من فُرْقةٍ، وَاخْتِلافٍ، وإِقْبَالٍ عَلَىٰ الشَّهوات، وإِضَاعةٍ لِمَا أَوْجَب اللهُ، وعَدَم إيثار الآخِرَةِ، وعَدَم الانْتِسَابِ إِلَيْها بصدقٍ، بَلْ لَا يَهمُّ الأَكْثريَّة إِلَّا هذِهِ العاجلة كَمَا جاءَ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ مِنْ كِتَابِ اللهِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة:٢٠، ٢١]، وَكَمَا فِي قولِهِ جَلَّ وَعَلا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، إلخ.

وعَنِ الجَهْل أَيْضًا نَشَأَتْ هذِهِ الكوارثُ، وهذِهِ العَوَاقِبُ الرَّديئةُ الَّتي هِيَ حُبُّ الدُّنيا، وكَرَاهيةُ المَوْتِ، والإِقْبَالُ عَلَىٰ الشَّهواتِ، وإِضَاعَةُ الوَاجِبَاتِ والصَّلَوات، وإِضَاعَة الإِعْدَاد للعَدُوِّ من كُلِّ الوُجُوه إِلَّا ما شَاءَ اللهُ من ذَٰلِكَ.

ومِنْ ذَٰلِكَ التَّفرُّق، والاخْتِلَافُ، وعَدَم الاتِّحادِ والتَّعَاونِ إِلَىٰ غَير ذَٰلِكَ، فقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين»، يدلُّ عَلَىٰ أَنَّ مِنْ عَلَامات الخَيْر والسَّعَادة للفَرْد والشَّعْب والدَّولة أَنْ يَتفقَّهوا في الدِّين، فإنَّ الإقبالَ عَلَىٰ التَّفقُّه في الدِّين، والتَّعلُّم، والتَّبصُّر بِمَا يجبُ عَلَيهم في العَاجِلِ والآجِلِ مِنْ أَوْجَبِ الوَاجِبَاتِ، وَفِي ذَٰلِكَ عَلَامةٌ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَرَادَ بِهِمْ خيرًا.

ومِنْ ذَٰلِكَ -مَعَ إِعْدَادِ للعَدُوِّ- تَأْديةُ فَرَائض الله، وَالانْتِهَاءُ عَنْ مَحَارم اللهِ، والوُقُوفُ عِنْدَ حُدُود الله.

ومِنْ ذَلِكَ أيضًا أَنْ يُوجَد في بِلَادِ المُسْلمينَ من الصِّنَاعةِ، والإِعْدَادِ، والقُوَّةِ مَا يَسْتطيعُ كلُّ فردٍ بكُلِّ وسيلةٍ، حتَّىٰ لا تكونَ حَاجاتُهُ عِنْدَ عَدُوِّه، وحتَّىٰ يعلمَ عَدوُّهُ ما لَدَيه من الإِعْدَاد والاسْتِعْدادِ فيُرْهبَه، ويُنْصِفَه، ويُعْطيه حُقُوقَه، وَيَقِفَ عِنْدَ حَدِّه، وحتَّىٰ يَحْصل إِعْدَاد الأَبْدَان، وعَدَم الرَّفَاهية الَّتي تُضْعِفُ القُوَىٰ والقُلُوبَ عَنْ مُقَاتلةِ العَدُوِّ، وحتَّىٰ تَقْوىٰ عَلَىٰ الجِهَادِ.

والتَّفقُّه في الدِّين أيضًا يُعْطي المَعْلوماتِ الكَافِيَةَ عَنِ الآخِرَةِ، وعَنِ الجنَّة ونَعِيمِهَا، وقُصُورها، ومَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ، وعَنِ النَّارِ وعَذَابِهَا، وأَنْكَالِهَا، وأَنْوَاع ما فِيهَا مِنَ العَذَاب، فيُكْسبُ القُلُوب نشاطًا في طَلَب الآخرة، وزُهْدًا في الدُّنيا، وإعدادًا لِلأَعْدَاء، وحِرْصًا عَلَىٰ الجِهَادِ في سَبِيلِ الله، وَالاسْتِشْهَاد في سبيلِهِ ﷻ.

كَمَا أَنَّ التَّفقُّه في الدِّين يُعْطي الشَّعْبَ والوَالِي النَّشَاطَ الكاملَ في كُلِّ ما يُحبُّهُ الله ويَرْضَاه، وَفِي البُعْدِ عَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ ﷻ، ويُعْطِي القُلُوبَ الرَّغبةَ الكاملةَ في الاتِّحَاد مَعَ بَقيَّة المُسْلمينَ، والتَّعاون مَعَهم ضدَّ العَدُوِّ، وفي إِقَامَة أَمْر الله، وتَحْكيم شريعتِهِ، والوُقُوف عِنْدَ حُدُودِهِ، ويَحْصل بذَلِكَ أيضًا التَّعاونُ عَلَىٰ كُلِّ ما يَجِبُ لله ولعبادِهِ، فإِنَّ العِلْمَ النَّافع يَدْعو إِلىٰ العَمَل، والتَّكَاتُف، والتَّناصح، وَالتَّعَاون عَلَىٰ الخَيْر، ويُعْطيهم أيضًا الحِرْصَ الكَامِلَ عَلَىٰ أَدَاء الفَرَائِضِ، والبُعْد عن المَحَارم، وَالشَّوْق إلىٰ الآخِرَةِ، وعَدَم كَرَاهِيَةِ المَوْتِ في سَبِيلِ الحَقِّ، وَفِي الجِهَادِ في سَبِيلِ الله، وفي قِتَالِ العَدُوِّ، وأَخْذ الحُقُوق منه.

وبالعِلْمِ تكُونُ النُّفُوسُ والأموالُ رَخيصةً في جَلْب رِضَا الله، وفي سَبِيلِ إِعْلَاء كَلِمَةِ الله، وَفِي سَبِيلِ إِنْقَاذ المُسْلمينَ مِنْ سَيْطرَة عَدُوِّهمْ وتَخْلِيصِهمْ مِمَّا أَصَابهم من أَنْوَاع البَلَاء، وَفِي سَبِيلِ اسْتِنْقَاذِ المُسْتَضعفينَ مِنْ أَيْدِي أَعْدائِهِمْ، وَفِي سَبِيلِ حِفْظِ كِيَانِ المُسْلمينَ وحَوْزتهم، وأَلَّا تُنْتقصَ بِلَادُهُمْ وحُقُوقُهُمْ، فإِذَا

كَانَ الجَهْلُ فَقَدْتَ هذِهِ الأَشْيَاءَ، وهذِهِ الحُقُوقَ، وهذِهِ الخَيْراتِ، وهذِهِ المَعْلوماتِ، وهَذَا الإِيثَارَ، وَهَذَا الإِرْخَاصَ للنُّفُوسِ والأَمْوالِ في سَبِيلِ الحقِّ، وقَدْ قَالَ الشَّاعرُ:

مَا يَبْلُغُ الأعداءُ مِنْ جَاهِلٍ   مَا يَبْلغ الجاهلُ مِنْ نَفْسِهِ(١)

فالجَهْلُ داءٌ عُضَالٌ يُمِيتُ القُلُوبَ والشُّعُورَ، ويُضْعف الأبدانَ والقُوَىٰ، ويَجْعل أَهْلَه أَشْبَهَ بالأَنْعام، لَا يهمُّهُمْ إِلَّا شَهَواتُ الفُرُوج والبُطُون، ومَا زَادَ عَلَىٰ ذَلِكَ فهُوَ تابعٌ لذَلِكَ من شَهَواتِ المَسَاكن والمَلَابس، فالجَاهِلُ قَدْ ضَعُفَ قلبُهُ، وضَعُفَ شُعورُهُ، وقَلَّتْ بَصِيرتُهُ، فلَيْسَ وَرَاء شَهْوتِهِ الحَاضِرَة، وحَاجَتِهِ العَاجِلَةِ شيءٌ يَطْمَحُ إِلَيْهِ ويُرِيدُ أَنْ ينظرَ إِلَيْه.

وقَدْ جاءَ في الحَدِيثِ الَّذي رَوَاه أَحْمدُ وغيرُهُ بإِسْنَادٍ حسنٍ عَنْ ثَوْبانَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُوشِكَ أَنْ تَدَاعىٰ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَمَا تَدَاعىٰ الأَكَلَةُ عَلَىٰ قَصْعتِهَا»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ المَهَابةُ من قُلُوبِ عَدُوِّكم مِنْكم، ويُوضَع في قُلُوبِكُمُ الوَهْنُ(٢)»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وما الوَهْنُ؟ قَالَ: «حبُّ الدُّنيا، وكَرَاهية المَوْتِ»(٣).

وهَذَا الوَهْنُ الَّذي وَرَد في الحَدِيثِ إِنَّمَا نَشَأَ عَنِ الجَهْلِ الَّذي صَارُوا بِهِ غُثَاءً كغُثَاءِ السَّيْل، مَا عِنْدَهُمْ بصيرةٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيهم بسَبَب هَذَا الجَهْل الَّذي صَارُوا بِهِ بِهَذِهِ المَثَابة، فقَدْ سَيْطر الوَهْنُ عَلَيهم، وَاسْتَقَرَّ في قُلُوبهم، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس. انظر «لباب الآداب» لأبي منصور الثعالبي (ص١٦٠).

(٢) أي: الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يُوجبه، ولذلك فَسَّره بحب الدنيا، وكراهة الموت. انظر «عون المعبود» (١١/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٣٩٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٨).

الحِرَاكَ إِلىٰ المَقَامَاتِ العالية، والجِهَاد في سَبِيلِ الله، وإِعْلَاء كَلِمَتِهِ؛ لأنَّ حُبَّهُم للدُّنيا وشَهَواتها من مَآكِلَ، ومَشَاربَ، ومَلَابسَ، ومَسَاكنَ، وغَيْر ذَلِكَ أَقْعَدهُم عن طَلَب المَعَالي، وعَنِ الجِهَادِ في سَبِيلِ الله، فيَخْشَوْنَ أَنْ تَفُوتَهُمْ هذِهِ الأشياءُ.

وَكَذَلِكَ أَوْجَبَ لَهُمُ البُخْلَ حتَّىٰ لا تُصْرفَ الأَمْوالُ إِلَّا في هذِهِ الشَّهَواتِ، وأَفْقَدهم هَذَا الجَهْلُ القيادةَ الصَّالحةَ المُؤثِّرةَ العظيمةَ الَّتي لا يَهمُّها إِلَّا إِعْلَاءُ كَلِمَةِ الله، والجِهَادُ في سَبِيلِ الله، وَسِيَادَة المُسْلمينَ، وحِفْظِ كِيَانِهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وإِعْدَاد العُدَّة بكُلِّ طريقٍ، وبِكُلِّ وَسِيلَةٍ لحِفْظِ دِينِ المُسْلمينَ، وصيانتِهِ، وإعلائِهِ، وحِفْظِ بِلَادِ المُسْلمينَ ونُفُوسهم، وذُرِّيَّاتهم عن عَدُوِّهِمْ.

فالجَهْلُ أضرارُهُ عظيمةٌ، وعواقبُهُ وخيمةٌ، ومِنْ ذَلِكَ ما بَيَّنهُ النَّبيُّ ﷺ مِنْ ذُلِّ المُسْلمينَ أمامَ عَدُوِّهِمْ، ووَصَفهم بأنَّهم غُثَاءٌ كغُثَاء السَّيْل، وأَنَّ أَسْبابَ ذَلِكَ نَزْع المَهَابة من قُلُوب أَعْدَائِهِمْ مِنهم؛ أَيْ: أَنَّ أَعْدَاءهُمْ لَا يَهَابُونَهُمْ، وَلَا يُقدِّرُونَهمْ لِمَا عَرَفوا مِنْ جَهْلِهِمْ، وتكَالُبهم عَلَىٰ الدُّنيا، والرُّكُون إِلَيْهَا، فالعَدُوُّ إِنَّما يُعظِّمُ القوَّةَ، والنَّشاطَ، والهِمَّةَ العاليةَ، والتَّضحيةَ العَظِيمَةَ في سَبِيلِ مَبْدئِهِ، فإِذَا رَأَىٰ العَدُوُّ أنَّ هَذَا الخَصْمَ المُقَابل لَهُ لَيْسَ له هذِهِ الهِمَّة، وإِنَّمَا هُوَ يهتمُّ لشَهَواتِهِ وحَظِّهِ العاجل، أَعْطَاه من ذَلِكَ حتَّىٰ يُوهِنَ قُوَّته أَمَامه، ويَصْرفه عن التَّفْكِيرِ في قتالِهِ لانْشِغَالِهِ بحُبِّ الدُّنيا، وَالانْكِبَابِ عَلَىٰ الشَّهَوات.

فالوَهْنُ أَصَابَ القُلُوبَ إِلَّا ما شَاءَ الله، وَاسْتَحْكَمَ عَلَيها إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَمَا أَقَلَّهُمْ! فهُمْ في الغَالِبِ قَدْ ضَعُفُوا أَمامَ عَدُوِّهِمْ، ونُزِعَتِ المَهَابةُ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ مِنْهُمْ، وَصَارَ أَعْدَاؤُهُمْ لَا يَهْتمُّونَ بِهِمْ، وَلَا يُبَالُونَ بِهِمْ، وَلَا يُنْصِفُونَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ عَرَفوا حَالَهم، وعَرَفوا أَنَّهم لا قُوَّةَ، وَلَا غَيْرةَ عِنْدَهُمْ، وَلَا صَبْرَ لَهُمْ عَلَىٰ القِتَالِ، وَلَا قُوَّةَ أَيْضًا تُعِينُهُمْ عَلَىٰ القِتَالِ، وَلَمْ يَعدُّوا لهَذَا المَقَام عُدَّتَهُ؛ فلِذَلِكَ

احْتَقرهُمُ العَدُوُّ، ولَمْ يُبَالِ بِشَأْنِهِمْ، وَعَامَلهم مُعَامَلةَ السَّيِّدِ للمَسُودِ، والرَّئيس للمَرْؤُوسِ، وهُمْ سَادِرُونَ في حُبِّ الدُّنيا، والبُعْد عن أَسْبَاب المَوْتِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، حَرِيصُونَ عَلَىٰ تَحْصِيلِ الشَّهَواتِ المَطْلوبة بكُلِّ وَسيلةٍ، حَذِرُونَ مِنَ المَوْت، حَرِيصُونَ عَلَىٰ العِلَاجِ والدَّوَاء عن كُلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ مِنَ الأَدْوَاء خَوْفَ المَوْتِ، وحَرِيصُونَ أَيْضًا أَلَّا يَتَعاطَوا أَمْرًا يُسبِّبُ المَوْتَ والانْقِطَاعَ عن هذِهِ الشَّهَوات.

وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ، وأَرَادَ إِعْلاءَ كَلِمَةِ الله، والجِهَادَ في سَبِيلِ الله، لَا تَكُونُ حالُهُ هَكَذا، وفِيمَا جَرَىٰ لَسَلفنا الصَّالح في عَهْد نَبِيِّنا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- وعَهْد صَحَابَتِهِ المَرْضِيِّينَ، ومَنْ سَارَ عَلَىٰ طَرِيقِهِمْ بَعْد ذَلِكَ فِيمَا فَعَلوا من الجِهَادِ، وَفِيمَا أَعدُّوا من العُدَّة، وفِيمَا صَبَروا عَلَيه مِنَ التَّعَب والأَذَىٰ قُدْوةٌ لَنَا، وذِكْرىٰ لَنَا لِإعْلاءِ كَلِمَةِ الله، والجِهَادِ في سبيلِهِ، وإِنْقَاذِ بِلَادِنَا وقَوْمنا من أَيْدي أَعْدَائنا صبرًا وتَحمُّلًا وجهادًا، وإِيثارًا لِلآخِرَةِ، وبذلًا للمَال والنَّفْسِ للجِهَادِ في سَبِيلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وتَدرُّبًا عَلَىٰ الجِهَادِ والقِتَالِ، وحِرْصًا عَلَىٰ الخُشُونَةِ، والصَّبر، والتَّحَمُّل، وذِكْرًا لِلآخِرَةِ دائمًا، وعنايةً بكُلِّ ما يُعِينُ عَلَىٰ جِهَادِ الأَعْداءِ، وصبرًا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَتَعاوُنًا وجمعًا للكَلِمَةِ، واتِّحادًا للصَّفِّ حتَّىٰ يَحْصل المرادُ من إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الله، وإِنْقَاذ المُسْلمينَ مِنْ كَيْد عَدُوِّهِمْ.

وإذا عَلِمْنَا الدَّاءَ، وهُوَ بَيِّنٌ وواضحٌ، وَهُوَ كَمَا عَلِمْنَا غَلَبَةُ الجَهْل، وعَدَمُ التَّعلُّم والتَّفقُّه في الدِّين، والإِعْرَاض عَنِ العِلْمِ الشَّرعيِّ، وَرِضَا بالعُلُوم الدُّنيويَّة الَّتي تُؤهِّل للوَظَائف فَقَطْ غَيْر العُلُوم الَّتي تُوجِبُ الاسْتِغْنَاءَ عَنِ الأَعْدَاءِ، والقِيَامَ بأَمْر الله، والبُعْد عَنْ مَسَاخطِهِ سُبْحانَه، وإِنَّمَا هِيَ عُلُومٌ قاصرةٌ ضعيفةٌ قُصَارَاها أَنْ تُؤهِّلَ لعَمَلٍ عاجلٍ دُنيويٍّ في بِلَادِ الفَرْد ودَوْلتِهِ- إِذَا عُلِمَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الواجبَ

عِلَاجُهُ بالعِلْمِ الشَّرعيِّ، إِذْ قَلَّ مَنْ يُعْنَىٰ بالعِلْمِ النَّافع الَّذي جَاءَ بِهِ المُصْطَفَىٰ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وقَلَّ مَنْ يُعْنَىٰ بالإِعْدَاد للأَعْدَاء حتَّىٰ يَتمكَّنَ ذَلِكَ الشَّعْبُ، وتِلْكَ الدَّولة من إِيجَادِ مَا يُغْني عن الأَعْدَاءِ.

فالدَّاءُ واضحٌ وَبَيِّنٌ، وهُوَ مُكَوَّنٌ من عِدَّة أَدْوَاءٍ نَشَأَتْ عن الجَهْل، والإِعْرَاض، والغَفْلة حتَّىٰ صَارَ الموتُ مَرْهوبًا، والدُّنيا مُؤْثَرةً، ومَرْغوبًا فِيهَا، وحتَّىٰ صَارَ الجهادُ شَبَحًا مُخِيفًا لا يَقْبله إِلَّا القليلُ مِنَ النَّاس، وصَارَ الهدفُ لَيْسَ لإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الله، بَلْ إِمَّا لقَومِيَّةٍ، وإِمَّا لِوَطنيَّةٍ، وإِمَّا لأَشْيَاء أُخْرىٰ غَيْر إِعْلَاء كَلِمَةِ اللهِ، وإِظْهَارِ دينِهِ، والقَضَاءِ عَلَىٰ ما خَالَفَ ذَلِكَ.

فالإِعْدَادُ ضعيفٌ، أَوْ مَعْدُومٌ، والأَهْدَافُ مُنْحرفةٌ إِلَّا ما شَاءَ اللهُ، فَطَرِيقُ النَّجَاح، وطَرِيقُ التَّقدُّم ضدَّ الأَعْداء، وعَدَم الضَّعْف أَمَامَهُمْ، وَطَرِيقُ الفَلَاح، والنَّجَاح، والحُصُول عَلَىٰ المَقَاماتِ العَالِيَةِ، والمَطَالب الرَّفيعَةِ، والنَّصْر عَلَىٰ الأَعْدَاء، طريقُ كُلِّ ذَلِكَ هُوَ في الإِقْبَالِ عَلَىٰ العِلْمِ النَّافع، وَالتَّفقُّه في الدِّين، وَإِيثَار مَرْضَاةِ الله عَلَىٰ مَسَاخطِهِ، والعِنَايَة بِمَا أَوْجَبَ اللهُ، وتَرْك مَا حَرَّمَ اللهُ، والتَّوبة إِلىٰ الله مِمَّا وَقَع من سَالِفِ الذُّنُوب، ومِنَ التَّقْصير تَوْبةً صَادقةً، والتَّعاون الكامل بَيْنَ الدَّولةِ والشَّعْبِ عَلَىٰ ما يجبُ من طَاعَة الله ورَسُولِهِ، والكَفُّ عَنْ مَحَارم اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعَلَىٰ ما يَجِبُ أَيْضًا من إِعْدادِ العُدَّةِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، إلخ.

فَلا بُدَّ مِنْ إِعْدَاد العُدَّة البَدنيَّة والمَادِّيَّة، وَسَائر أَنْوَاع العُدَّة مِنْ جَمِيعِ الوُجُوه حتَّىٰ نَسْتَغني بِمَا أَعطَانا اللهُ سُبْحانَه عَمَّا عِنْدَ أَعْدَائنا، فإِنَّ قِتَالَ أَعْدَائنا بِمَا في أَيْدِيهِمْ مِنَ الصَّعب جدًّا الحُصُول عَلَيه، فإِذَا مَنَع العَدُوُّ عَنْك السِّلاحَ فَبِأَيِّ شَيءٍ تُقَاتل؟ مَعَ ضَعْف البَصِيرَةِ، وقِلَّةِ العِلْمِ.

فَلَا بُدَّ مِنْ إِعْدَاد المُسْتَطاع، وَيَكْفِي المُسْتطاع مَا دَامَ المُسْلمونَ قَاصِدِينَ الاسْتِغْناءَ عَنْ عَدُوِّهِمْ، وجِهَادَ عَدُوِّهِمْ، وَاسْتِنْقَاذَ بِلَادِهِمْ، قَاصِدِينَ إِقَامةَ أَمْر اللهِ في بِلَادِ الله، قَاصِدِينَ الآخرةَ مَا اسْتَطَاعوا لكُلِّ ذَلِكَ، فإنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠]، إلخ، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مِثْلَ قُوَّتهم؛ لأنَّ هَذَا قَدْ لَا يُسْتَطاع.

فَإِذَا صَدَق المُسْلمونَ، وتكَاتَفوا، وَأَعَدُّوا لِعَدُوِّهِمْ مَا اسْتَطَاعوا مِنَ العُدَّةِ، وَنَصَرُوا دِينَ الله، فَاللهُ يُعِينُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ ﷻ، وَيَجْعَلُهُمْ أَمَامَ العَدُوِّ، وفَوْقَ العَدُوِّ لَا تَحتَ العَدُوِّ، يَقُولُ اللهُ وَهُوَ الصَّادقُ في قَوْلِهِ ووَعْدِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

وَاللهُ لَيْسَ بِعَاجِزٍ، وَلَا فِي حَاجَةٍ إِلىٰ النَّاسِ، ولَكنَّه يَبْتَلي عِبادَه الأَخْيارَ بالأَشْرَار؛ ليَعْلمَ صِدْقَ الصَّادِقِينَ، وكَذِبَ الكَاذِبِينَ، وليَعْلم المُجَاهد مِنْ غَيْرِهِ، وليَعْلم الرَّاغبَ في النَّجَاة مِنْ غَيْره، وإِلَّا فَهُوَ القادرُ عَلَىٰ نَصْر أَوْليائِهِ وإِهْلَاكِ أَعْدائِهِ مِنْ دُونِ حَرْبٍ، ومِنْ دُونِ حَاجَةٍ إِلىٰ جِهَادٍ وعُدَّةٍ، وغَيْر ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ [محمد:٤].

وَقَالَ سُبْحانَه في سُورَة الأَنْفَال في قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران:١٢٦]، يَعْنِي إِمْدَادَهُمْ بالمَدَد من المَلَائكة.

وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٦].

وَفي آيَةِ آل عِمْرانَ كَذَلِكَ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٦].

فَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِهِ جَلَّ وَعَلا، ولَكنَّه سُبْحانَه جَعَل المَدَدَ بالمَلَائِكَةِ، ومَا يُعْطِي من السِّلَاحِ، والمَالِ، وكَثْرة الجُنْد، كُلُّ ذَلِكَ من أَسْبَاب النَّصْرِ، والتَّبْشِيرِ، والطُّمَأْنِينَةِ، ولَيْسَ النَّصْرُ مُعلَّقًا بِذَلِكَ؛ قَالَ سُبْحانَه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

وَكَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ ثَلاثَ مئةٍ وبِضْعةَ عَشَر، والسِّلاحُ قليلٌ، والمَرْكوبُ قليلٌ، والمَشْهورُ أنَّ الإبلَ كَانَتْ سَبْعينَ، وَكَانُوا يَتعَاقَبُونَها، وكانَ السِّلاحُ قَلِيلًا، ولَيْس مَعَهم من الخَيْل في المَشْهُورِ سِوَىٰ فَرَسَيْنِ، وكَانَ جَيْش الكُفَّار حَوَالي الأَلْف، وعِنْدَهُم القُوَّة العَظِيمَة، والسِّلاح الكَثِير.

ولَمَّا أَرَادَ اللهُ هَزِيمَتَهم، هَزَمَهم، ولَمْ تَنْفعهُمْ قُوَّتُهمْ، وَلَا جُنُودُهُمْ، وهَزَم اللهُ الأَلفَ ومَا عِنْدَهُمْ من القُوَّة العظيمةِ بالثَّلاثِ مئة، وبِضْعَةَ عَشَر، ومَا عِنْدَهُمْ من القُوَّة الضَّعيفَةِ، ولَكِنْ بتَيْسِيرِ اللهِ، ونَصْرِهِ، وتَأْيِيدِهِ غَلَبوا ونُصِرُوا، وأَسَرُوا من الكُفَّار سَبْعينَ، وقَتَلوا سَبْعينَ، وهُزِمَ البَاقُونَ لَا يَلْوي أحدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وكلُّ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ونَصْره.

وَفِي يَوْم الأَحْزابِ غَزَا الكُفَّار المدينةَ بِعَشْرَة آلافِ مُقَاتلٍ مِنْ أَصْنَافِ العَرَبِ من قُرَيش وغَيْرهم، وحَاصَروا المَدِينَةَ، واتَّخذ النَّبِيُّ ﷺ الخَنْدقَ، وذَلِكَ من أَسْبَاب النَّصر الحِسِّيِّ، ومَكَثوا مُدَّةً وهُمْ يُحَاصرون المَدِينَةَ، ثُمَّ أَزَالَهُمُ اللهُ بغَيْرِ قِتَالٍ، فأَنْزَلَ في قُلُوبِهم الرُّعْبَ، وسَلَّطَ عَلَيهم الرِّياحَ وجُنُودًا مِنْ عِنْدِهِ حتَّىٰ لَمْ يقرَّ لَهُمْ قرارٌ، وَانْصَرَفوا خَائِبِينَ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ، وكُلُّ هَذَا مِنْ نَصْره وتَأْيِيدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ خُذِلُوا، فَلَمْ يَغْزُوا النَّبِيَّ ﷺ بالمَدِينَةِ، بَلْ غَزَاهُمْ هُوَ يَوْمَ الحُدَيبية، وجَرَىٰ الصُّلْحُ المَعْروفُ، ثُمَّ غَزاهُمْ في السَّنَة الثَّامنة في رَمَضَان، وَفَتَح اللهُ عَلَيه مَكَّةَ، ثُمَّ دَخَل النَّاسُ أَفْواجًا في دِينِ اللهِ بَعْدَ ذَلِكَ.



فالمَقْصُودُ: أنَّ النَّصْرَ بِيَدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهُوَ النَّاصرُ لِعِبَادِهِ، ولَكنَّه سُبْحانَه أَمَر بالأَسْبَابِ، وأَعْظَمُ الأَسْبابِ طَاعَةُ الله ورَسُولِهِ ﷺ، ومِنْ طَاعَة الله ورَسُولِهِ التَّعلُّمُ والتَّفقُّهُ في الدِّين حتَّىٰ تَعْرفَ حُكْمَ الله وشَرِيعَتَه لنَفْسِكَ، وَفِي نَفْسِكَ، وَفِي غَيْرك، وَفِي جِهَادِ عَدُوِّك، وَحتَّىٰ تَعُدَّ العُدَّة لعَدُوِّك، وحتَّىٰ تكفَّ عَنْ مَحَارم الله، وَحتَّىٰ تُؤدِّي فَرَائضَ الله، وَحتَّىٰ تَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ الله، وَحتَّىٰ تَتعَاوَنَ مَعَ إِخْوَانِكَ المُسْلمينَ، وَحَتَّىٰ تُقدِّمَ الغَالِيَ والنَّفيسَ مِنْ نَفْسِكَ ومَالِكَ في سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي سَبِيلِ نَصْر دِينِ الله، وإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، لَا في سَبِيلِ الوَطَن الفُلانيِّ، وَلَا القَوميَّة الفُلانيَّة.

فهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ، وهَذَا هُوَ السَّبيلُ للنَّصْر عَلَىٰ الأَعْدَاء بالتَّعْلِيم الشَّرعيِّ، وَالتَّفقُّه في دِينِ الله مِنَ الوُلَاةِ والرَّعَايَا، والكَبِيرِ والصَّغير، ثُمَّ العَمَل بمُقْتَضىٰ ذَلِكَ، وتَرْك مَا نَحْنُ عَلَيه مِمَّا حَرَّمَ اللهُ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فمَنْ أَرَادَ مِنَ الله النَّصْرَ والتَّأْيِيدَ، وإِعْلَاءَ الكَلِمَةِ، فَعَليه بتَغْيِيرِ مَا هُوَ عَلَيه من المَعَاصِي والسَّيِّئاتِ المُخَالفة لأَمْرِ الله، وربُّكَ يَقُولُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور:٥٥]، مَا قَالَ اللهُ: وَعَدَ اللهُ الَّذينَ يَنْتسبُونَ إِلَىٰ قُرَيش، أَوْ العَرَب، أو الَّذين يَبْنُونَ القُصُورَ، ويَسْتَخرجونَ البِتْرُولَ... إلخ، بَلْ عَلَّقَ الحُكْمَ بالإِيمَانِ الصَّادق، والعَمَل الصَّالح؛ سواءٌ كَانُوا عربًا أو عجمًا.

هذِهِ هِيَ أَسْبَابُ النَّصر والاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْض، لَا العُرُوبَة، وَلَا غَير

العُرُوبَة، ولَكنَّه إيمانٌ صادقٌ باللهِ ورَسُولِهِ، وعملٌ صالحٌ.

هَذَا هُوَ السَّببُ، وهَذَا هُوَ الشَّرْطُ، وهَذَا هُوَ المِحْورُ الَّذي عَلَيه المَدَار، فمَنِ اسْتقَامَ عَلَيه فَلَهُ التَّمْكِينُ والاسْتِخْلَافُ في الأَرْض، والنَّصر عَلَىٰ الأَعْدَاء، ومَنْ تَخلَّفَ عَنْ ذَلِكَ لَمْ يُضْمَنْ لَهُ النَّصْرُ، وَلَا السَّلامَةُ، وَلَا العِزُّ، بَلْ قَدْ يُنْصَرُ كافرٌ عَلَىٰ كافرٍ، وقَدْ يُنْصَرُ مجرمٌ عَلَىٰ مُجْرِمٍ، وقَدْ يُعَانُ مُنَافقٌ عَلَىٰ مُنَافقٍ، ولَكِنَّ النَّصْرَ المَضْمونَ الَّذي وَعَد اللهُ به عِبَادَه المُؤْمِنِينَ لَهُمْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ إنَّما يَحْصُلُ بالشُّرُوط الَّتي بَيَّنَهَا سُبْحانَه، وبالصِّفَاتِ الَّتي أَوْضَحها جَلَّ وَعَلا، وَهُوَ الإِيمَانُ الصَّادقُ، والعملُ الصَّالحُ.

وَمِنْ ذَلِكَ نَصْرُ دِينِ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤٠، ٤١].

هَذَا هُوَ نَصْرُ دِينِ الله، فمَنْ أَمَرَ بالمَعْرُوفِ، ونَهَىٰ عن المُنْكَر، فقَدْ نَصَر دينَ الله؛ لأنَّ مَنْ ضِمْنِ ذَلِكَ أَدَاءُ فَرَائِضِ الله، وتَرْكُ مَحَارم الله، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران:١١٠].

وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

فَأَهْلُ الفَلَاحِ، والنَّصْرِ، والعَاقِبَةِ الحَمِيدَة هُمُ الَّذين عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وأَمَروا بالمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَر، وأَقَامُوا الصَّلاةَ، وَآتَوا الزَّكَاةَ، وَنَصَروا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهُمُ المَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فَالدَّواءُ وَاضحٌ، والعِلَاجُ بَيِّنٌ، لَكِنْ أَيْنَ مَنْ يُرِيدُ الدَّواءَ؟ وأَيْنَ مَنْ يُرِيدُ العلاجَ؟ وأَيْنَ مَنْ يَسْتعملُهُ؟! هَذَا واجبُ وُلَاةِ الأُمُور، والعُلَماءِ، والأَعْيَانِ في كُلِّ مكانٍ، وَفِي جَمِيعِ الدُّوَلِ الإِسْلاميَّة إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ في الدَّعْوة إِلىٰ الإِسْلَامِ؛ وَذَلِكَ بِإِقَام الصَّلاة، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة، والحِفَاظِ عَلَىٰ ذَلِكَ، والأَمْرِ بالمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَر، وَالتَّفقُّهِ في الدِّين، وإِصْلَاح المَنَاهج في المَدَارس فِي جَمِيعِ المَرَاحل، والتَّعَاون أيضًا في التَّكَاتُفِ ضِدَّ الأَعْدَاء، والاتِّحاد مَعَ الإِخْلَاصِ للهِ في العَمَل، وَالصِّدْق فِيهِ، وَنِيَّة الآخِرَةِ، وَبِذَلِكَ يَسْتحقُّونَ النَّصْرَ من الله، وَالتَّأْيِيدَ مِنْهُ سُبْحانَه، كَمَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ عِنْدَ سَلَفنا الصَّالح مِمَّا لا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَهْل العِلْمِ.

وبالأَمْسِ القَرِيبِ الإِمَامُ المُجدِّدُ لمَعَالم الإِسْلَامِ في القَرْن الثَّاني عَشَر لمَّا رَأَىٰ مَا رَأَىٰ من الجَهْلِ العَظِيمِ، وتَعْطِيلِ أَحْكَام الشَّريعةِ، وكَثْرَة الجَهْلِ في الجَزِيرَةِ وغَيْرِهَا، وقِلَّةِ الدُّعَاة إِلىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَانْقِسَام أَهْل هذِهِ الجَزِيرَةِ إِلَىٰ دُوَيْلاتٍ صَغِيرةٍ عَلَىٰ غَيْر هُدَىٰ، وعَلَىٰ غَيْر عِلْمٍ، رَأَىٰ أَنَّ مِنَ الوَاجِبِ عَلَيه أن يَقُومَ بالدَّعوة إِلىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأَنْ يُنبِّههُمْ إِلَىٰ ما وَقَعوا فِيهِ من الخَطَر، وأَنْ يَسْعَىٰ عَلَىٰ جَمْع كَلِمتِهمْ عَلَىٰ الحقِّ، وعَلَىٰ رئيسٍ واحدٍ يُقِيمُ فِيهِمْ أَمْرَ اللهِ، ويُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله، فجَدَّ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذَلِكَ، ودَعَا إِلىٰ اللهِ، وَاتَّصل بالأُمَرَاء، وكَتَب الرَّسائلَ في أَمْر التَّوْحيدِ وتَحْكيم شَرِيعَةِ الله، وتَرْك الشِّرْك بِهِ.

ولَمْ يَزَلْ صَابرًا عَلَىٰ ذَلِكَ، مُحْتسبًا بَعْد ما دَرَسَ وتَفقَّه في الدِّين عَلَىٰ مَشَايخ البِلَادِ وغَيْرِهِمْ، ثمَّ جَدَّ في الدَّعْوة إِلىٰ اللهِ، والجِهَادِ في سَبِيلِهِ، وجَمْع الكَلِمَةِ في حُرَيملاء أَوَّلًا، ثُمَّ في العُيَيْنة، ثمَّ انْتقَل بَعْد أُمُورٍ وشُؤونٍ إِلَىٰ الدِّرعيَّة، وبَايَعَه مُحمَّد بن سعودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ الجِهَادِ في سَبِيلِ الله، وَإِقَامَة أَمْرِ الله، فصَدَقُوا جميعًا

في ذَلِكَ، وتكَاتَفوا في ذَلِكَ، وجَاهَدُوا عَلَىٰ ضَعْفِهِمْ حتَّىٰ نَصَرهُمُ اللهُ، وأَيَّدهُمْ، وأَعْلَنوا التَّوحيدَ، ودَعَوا النَّاسَ إلىٰ الحقِّ والهُدَىٰ، وحَكَّموا شَرِيعةَ الله في عِبَادِ الله، وبِسَبَب الصِّدْقِ والاسْتِعَانَةِ باللهِ، وحُسْن المَقْصِدِ أَيَّدهُمُ اللهُ، وأَعَانَهُمْ، وأَخْبارُهُمْ لَا تَخْفىٰ عَلَىٰ كثيرٍ مِمَّنْ له أَدْنَىٰ بصيرةٍ.

ثمَّ جاءَ بَعْد ما جَرَىٰ من الفُتُور والانْقِسَامِ، جاءَ المَلِكُ عَبْد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، وَجدَّ في هَذَا الأَمْر، وحَرَصَ فِيهِ، وَاسْتعَانَ بالله سُبْحانَه، ثمَّ بأَهْلِ العِلْمِ، وَالإِيمَانِ، والبَصِيرَةِ، وأَعَانَه اللهُ وأَيَّدهُ، وجَمَع له اللهُ كلمةَ المُسْلمينَ في هذِهِ الجَزِيرَةِ عَلَىٰ كلمةٍ واحدةٍ، وعَلَىٰ تَحْكيم شَرِيعَةِ الله، وعَلَىٰ الجِهَادِ في سَبِيلِ الله حتَّىٰ اسْتَقامَ أمرُهُ، وتَوحَّدتْ هذِهِ الجزيرةُ (مِنْ شَمَالِهَا إلىٰ جَنُوبِهَا وشَرْقِهَا وغَرْبِهَا) عَلَىٰ الحقِّ والهُدَىٰ بأَسْبَاب الصِّدْقِ والجِهَادِ، وإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَالمَقْصُودُ: أنَّ الأَمْثِلَةَ كثيرةٌ فِي ذَلِكَ، وهَكَذا صَلاحُ الدِّين الأَيُّوبيُّ قِصَّتُهُ معروفةٌ، ومَحْمود زَنْكِي كَذَلِكَ.

فالمَقْصودُ: أَنَّ سَلَفنا الصَّالحَ الأَوَائل لَمَّا صَدَقوا في جِهَادِهِمْ فِي وَقْت نَبيِّهِمْ وبَعْدَه، أَعزَّهم اللهُ، وأَعْلَىٰ شَأنَهُمْ، وَاسْتَوْلوا عَلَىٰ المَمْلَكَتَينِ العَظِيمَتَينِ (مَمْلكة الأَكَاسرة ومَمْلكة الرُّوم في الشَّام وما حَوْلها)، ثمَّ مَنْ بَعْدَهم مِمَّنْ صَدَق في دِينِ الله، نَصَرهُمُ اللهُ لِمَا عِنْدهُمْ من الصِّدْقِ، والتَّكَاتُفِ في إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الله.

ثمَّ في أَوْقاتٍ مُتعدِّدةٍ مُتَغايرةٍ يَأْتي أُنَاسٌ لَهُمْ من الصِّدْقِ والإِخْلَاصِ مَا لَهُمْ، فيُؤَيَّدُونَ ويُنْصَرونَ عَلَىٰ عَدُوِّهمْ عَلَىٰ قَدْر إِخْلَاصِهِمْ، وَاجْتِهَادِهِمْ، وبَذْلِهِمْ.

وَالَّذي نَصَر الأَوَّلِينَ، ونَصَرَ الآخِرِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وهُوَ نَاصِرٌ مَنْ نَصَره، وخاذلٌ مَنْ خَذَله، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة:٢٤٩].

ولكِنَّ المُصِيبةَ فِي أَنْفُسِنا؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠]، فَالمُصِيبَةُ جَاءَتْ مِنْ ضَعْفِ المُسْلمينَ، وتكَاسُلِهِمْ، وجَهْلِهِمْ، وَإِيثَارِهِمْ العَاجِلَةَ، وحُبِّهم الدُّنيا، وكَرَاهة المَوْت، وتَخلُّفهم عمَّا أَوْجَبَ اللهُ، وتَرْك الصَّلَوات، واتِّبَاع الشَّهَوات، وإِيثَار العَاجِلَةِ، والعُكُوف عَلَىٰ المَحَارم والأَغَاني الخَلِيعَةِ، والفَسَاد للقُلُوبِ والأَخْلاقِ... إلخ.

فمِنْ هَذَا وأَشْبَاهِهِ سَلَّطَ اللهُ عَلَىٰ المُسْلمينَ عَدُوَّهُمْ؛ كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء:١٦].

نَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَمُنَّ عَلَينا وعَلَىٰ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ ووُلَاةِ أَمْرِهِمْ بِالتَّوبةِ إِلَيْهِ، وَالاسْتِقَامةِ عَلَىٰ أَمْره، والتَّعَاون عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ وعَلَىٰ إِعْدَادِ العُدَّة لأَعْدَائِنَا، وَالتَّفقُّه في الدِّينِ، وَالصَّبر عَلَىٰ مَرَاضِيهِ، وَالبُعْد عَنْ مَسَاخِطِهِ سُبْحانَه، كَمَا نَسْأَلُهُ سُبْحانَه أَنْ يُعِيذَنَا جَمِيعًا مِنْ مُضلَّاتِ الفِتَنِ، ومِنْ أَسْبَابِ النِّقَمِ، وأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ، ويُعْلي كَلِمَتَهُ، ويَخْذل أَعْدَاءَهُ، وأَنْ يَجْمعَ كَلِمَةَ المُسْلِمِينَ عَلَىٰ الحقِّ والهُدَىٰ، وأَنْ يُصْلحَ وُلَاة أَمْرِهِمْ، وأَنْ يَرْزقَهُمُ البصيرةَ؛ إِنَّهُ سميعٌ قريبٌ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ



(١٠) أسباب نصر الله للمؤمنين علَى أعدائهم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ، والصَّلاة والسَّلام عَلَىٰ عبدِهِ ورَسُولِهِ وخيرتِهِ من خَلْقه وأمينِهِ عَلَىٰ وَحْيه نَبيِّنا وَإِمَامنا وسَيِّدنا مُحمَّد بن عَبْد الله وعَلَىٰ آلِهِ وأَصْحابِهِ ومَنْ سَلَكَ سبيلِهِ واهْتَدىٰ بِهُدَاه إلىٰ يَوْم الدِّين.

أَمَّا بَعْد: فإِنَّني أَشْكُرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ ما مَنَّ بِهِ من هَذَا اللِّقاء بإِخْوةٍ في الله في أَشْرف بُقْعةٍ من بِقَاعِ الدُّنيا، وَهِيَ: مَكَّةُ المُكَرَّمة للتَّواصي بالحقِّ، وَالتَّعَاون عَلَىٰ البرِّ وَالتَّقْوىٰ، وبَيَان أَسْبَاب انْتِصَارِ المُسْلمينَ عَلَىٰ أَعْدَائهِمْ، وبَيَان ضدَّ ذَلِكَ، وأَسْأَلُ اللهَ -جَلَّ وَعَلا- أَنْ يَجْعَله لقاءً مُبَارَكًا، وأَنْ يُصْلح قُلُوبَنا وأَعْمالَنا جميعًا، وأَنْ يَنْصرَ دِينَهُ ويُعْلي كَلِمَتَه، وأَنْ يُصْلحَ وُلَاة أَمْر المُسْلمينَ جميعًا، ويَمْنحهم الفِقْهَ في الدِّين، وأَنْ يُوفِّقهمْ لتَحْكيم شريعتِهِ بَيْنَ عبادِهِ، كَمَا أَسأَلُهُ سُبْحانَه أن يُوفِّق وُلَاة أَمْرنا في هذِهِ البِلَادِ لكلِّ خيرٍ، وأَنْ يُعينَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ ما فِيهِ صَلَاحُ العِبَادِ والبِلَادِ، وَأَنْ يُصْلح لَهُم البِطانَةَ، وأَنْ يَنْصرَ بِهِم الحقَّ، ويَخْذلَ بهم الباطلَ، ويَجْعلهم من الهُدَاة المُهْتدينَ، إِنَّه خيرُ مسؤولٍ، ثمَّ إِنِّي أَشْكُرُ إِخْواني القَائِمِينَ عَلَىٰ هَذَا النَّادي، وعَلَىٰ رَأْسِهم مَعَالي الأخ الدُّكتور/ راشد بن راجح مدير جامعة أُمِّ القُرَىٰ، ورئيس النَّادي عَلَىٰ دَعْوتِهِمْ لي لهَذَا اللِّقاء، وأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُبَارك في الجميع، وأَنْ يُصْلحَ أَحْوَالنا جميعًا، ويَجْعلنا من دُعَاة الهُدَىٰ، وأَنْصَار الحقِّ؛ إِنَّه سميعٌ قريبٌ.

أيُّها الإخْوة في الله، ذَكَر مَعَالي الدُّكتور راشد -حفظه الله- في المُقدِّمة أنَّني رئيس هَيْئة كِبَارِ العُلَماء، وأحبُّ التَّصحيحَ، فَإنَّ الرِّئاسة للهَيْئة مَحْصورةٌ في خَمْسةٍ من كِبَارِ السِّنِّ من الأَعْضَاء، تَدُورُ بَيْنهم الرِّئاسةُ كلَّ واحدٍ في السَّنَة الخامسة يَأْتيه الدَّوْرُ، وأنا واحدٌ مِنْهُمْ، ولَسْتُ رَئِيسَ الهَيئَةِ، ولَكنِّي واحدٌ من رُؤَسَاء الهَيْئة، أمَّا ما يَتعلَّق بمَوْضوع المُحَاضرة، وهي: «**أَسْباب نَصْر الله للمُؤْمِنِينَ**».

فاللهُ -جَلَّ وَعَلا- جَعَل للنَّصر أسبابًا، وجَعَل للخِذْلان أسبابًا، فالواجبُ عَلَىٰ أَهْلِ الإِيمَان في جِهَادِهِمْ، وفي سَائِرِ شُؤونِهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بأَسْباب النَّصْرِ، ويَسْتَمْسكوا بها في كلِّ مكانٍ في المَسْجِدِ، وفي البيت، وفِي الطَّريق، وفي لِقَاءِ الأَعْداءِ، وفي جَمِيعِ الأَحْوالِ، فعَلَىٰ المُؤْمنينَ أَنْ يَلْتزمُوا بأَمْر اللهِ، وأَنْ يَنْصحوا للهِ ولعبادِهِ، وأَنْ يَحْذَروا المَعَاصيَ الَّتي هِيَ من أَسْبابِ الخِذْلانِ، ومِنَ المَعَاصي التَّفريط في أَسْباب النَّصْر (الأَسْباب الحِسِّيَّة) الَّتي جَعَلها اللهُ أَسْبابًا لا بُدَّ منها، كما أَنَّه لا بُدَّ من الأَسْباب الدِّينيَّة، فالتَّفريطُ في هَذَا أو هَذَا سببُ الخِذْلان، واللهُ -جَلَّ وَعَلا- يَقُولُ في كتابِهِ العظيم، وَهُوَ أَصْدقُ القَائِلِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

هذِهِ الآيةُ العظيمةُ خطابٌ لجَمِيعِ المُؤْمِنِينَ، أَوْضحَ فيها سُبْحانَه أَنَّهم إِذَا نَصَروا اللهَ، نَصَرهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونَصْرُ الله من المُؤْمنينَ هُوَ: اتِّبَاعُ شريعتِهِ، ونَصْرُ دينِهِ، والقيام بحَقِّه، ولَيْسَ هو سُبْحانَه في حاجةٍ إلىٰ عِبادِهِ، بَلْ هُمُ المُحْتاجونَ إِلَيْه كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾.

فالنَّاسُ كُلُّهم؛ جِنُّهُمْ وإِنْسُهُمْ، مُلُوكُهُمْ وعَامَّتُهُمْ، كُلُّهم في حَاجةٍ إلىٰ رَبِّهِمْ،

وكُلُّهم فُقَراءُ إلىٰ اللهِ، واللهُ سُبْحانَه هُوَ الغنيُّ الحَميدُ، فنَصْرُهُ سُبْحانَه هو نَصْر شريعتِهِ، وهُوَ نَصْر دينِهِ، هَذَا هُوَ نَصْرُهُ، نَصْر ما بَعَثَ به رَسُولَه، وأَنْزلَ به كِتَابَه الكَرِيمَ، فإِذَا قَامَ المُسْلمونَ بنَصْر دينِهِ، والقيام بحَقِّه، ونَصْر أوليائِهِ، نَصَرهم اللهُ عَلَىٰ عَدوِّهم، ويَسَّر أُمُورَهم، وجَعَل لَهُمُ العاقبةَ الحَميدةَ، كَمَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩] وَقَالَ سُبْحانَه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَالصَّبرُ والتَّقوىٰ يَكُونَانِ: بنَصْر الله، والقِيَامِ بدينِهِ سُبْحانَه، والتَّواصي بذَلِكَ في السِّرِّ والجَهْر، في الشِّدَّة والرَّخَاء، في حَالِ الجِهَادِ، ومَا قَبْله، ومَا بَعْده، وَفِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ.

ولَمَّا حَذَّرَ سُبْحانَه من اتِّخاذِ البِطَانَةَ من دُونِ المُؤْمِنِينَ في قولِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران:١١٨].

بيَّنَ سُبْحانَه في آخِرِ الآيَاتِ أَنَّهم إذا صَبَروا وَاتَّقَوْا لَمْ يَضرَّهم أَعْدَاؤُهُمْ، فقَالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَفِي الآيَة الأُخْرىٰ يَقُولُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦].

وَفِي الأُخْرىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠].

وَيَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

فنَصْرُ الله -جَلَّ وَعَلا- باتِّبَاع شريعتِهِ، والصَّبْر عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد:٧].

وهَذَا مِثْلُ قولِهِ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ: «**احْفَظِ اللهَ يَحْفظك، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَك**»(١).

فمَنْ حَفِظَ اللهَ بحِفْظِ دينِهِ، وَالاسْتِقَامَةِ عَلَيه، وَالتَّوَاصي بحَقِّه، وَالصَّبر عَلَيه- نَصَره اللهُ، وأَيَّده عَلَىٰ عَدوِّه، وحِفَظَه من مَكَائِدِهِ.

وقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم:٤٧].

وَ**المُؤْمِنُونَ**: هُمُ الَّذين اسْتَقَامُوا عَلَىٰ دين الله، وَحَافَظُوا عَلَىٰ حَقِّهِ، وَابْتَعَدوا عن مَنَاهِيهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس:٦٣].

فَالْمُؤْمِنُونَ هُمُ المُتَّقونَ، وهُمْ أَوْلياءُ الله، وهُمْ أَنْصَارُ دين الله، يَنْصرهم اللهُ ويَحْمِيهم من كَيْد أَعْدَائِهِمْ، ويَجْعل لَهُمُ العاقبةَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَقُولُ سُبْحانَه في كتابِهِ الكريم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [الحج:٤٠، ٤١].

هَؤُلَاءِ هُمُ المَنْصُورونَ، وهُمُ المَوْعُودُونَ بالعَاقِبَةِ الحميدةِ، ثُمَّ أَوْضَح سُبْحانَه صِفَاتِ النَّاصِرينَ لَهُ، فَقَال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: أَقْدَرنَاهُمْ ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يَعْني: حَافِظُوا عَلَىٰ هذِهِ وهذِهِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٠٢).

كَمَا أَمَر اللهُ، فأَقَاموا الصَّلاة كَمَا أَمَر الله بأَرْكَانها ووَاجِبَاتِهَا، وغَيْر ذَلِكَ من شُؤُونِهَا، وأَدَّوْا الزَّكاةَ طيبةً بِهَا نُفُوسُهمْ كَمَا شَرَع اللهُ، وأَمَروا بالمَعْروفِ، ونَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ، وهَذَا يَعمُّ جميعَ الأَوَامر والنَّوَاهي، فيَدْخل في المَعْروفِ: الصِّيامُ، والحجُّ، والجهادُ، وبرُّ الوَالِدَيْنِ، وغَيْر ذَلِكَ مِمَّا أَمَر اللهُ بِهِ ورَسُولُهُ، ويَدْخل في المُنْكَر كلُّ ما نَهَىٰ اللهُ عنه مِنْ أَنْوَاع الشِّرْكِ، وَسَائِرِ المَعَاصِي.

فَالمُؤْمِنُونَ يُوحِّدونَ الله، ويُؤْمِنُونَ بِهِ إِيمانًا صادقًا، ويَلْتَزمونَ بتَوْحيدِهِ والإِخْلاصِ لَهُ، وتَصْديق أَخْبارِهِ وأَخْبارِ رَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وبالقِيَامِ بحَقِّهِ كَمَا أَمَر، ومَعَ ذَلِكَ يَحْذرون ما نَهَىٰ عنه، ويَبْتعدونَ عَمَّا حَرَّمه عليهم رغبةً فِيمَا عِنْدَهُ، وطلبًا لمَرْضاتِهِ جَلَّ وَعَلا، وحَذرًا من عِقابِهِ ﷻ، فهَؤُلَاءِ هُمُ المُؤْمنونَ حَقًّا، وهُمُ المُتَّقونَ المَذْكُورونَ في قَوْله تَعَالىٰ في سُورَة الأَنْفَالِ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال:٣٤].

فرَبُّنا يُنوِّع العِبَاراتِ في صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ، وتَرْجع إِلىٰ شيءٍ واحدٍ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٢٠]، فيَدْخل في هَذَا: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والأَمْرُ بالمَعْروف، والنَّهْيُ عن المُنْكر، وَسَائِرُ مَا أَمَر اللهُ به ورسولُهُ، كَمَا يَدْخل في ذَلِكَ من باب أَوْلىٰ: تَوْحيدُ الله، والإِيمَانُ به، والإِيمَانُ بِرَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وتَصْديقُ أَخْبَار الله ورَسُولِهِ، كُلُّها داخلةٌ في قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، كَمَا أَنَّها داخلةٌ في قَوْلِهِ تَعَالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج:٤١]، فَالصَّبْر والتَّقْوىٰ يَشْتملُ عَلَىٰ فِعْلِ جَمِيعِ الأَوَامر، وتَرْك النَّوَاهي.

وَهَكَذَا قَوْلُهُ سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧]، يَشْمل فِعْلَ الأَوَامر، وتَرْكَ النَّواهي، فإِنَّ هَذَا هو النَّصْر لله بفِعْلِ أَوَامره، وتَرْكِ نَوَاهيه عَنْ إِيمَانٍ، وعَنْ إِخْلَاصٍ لله، وتَوْحيدٍ لَهُ سُبْحانَه، وَإِيمَانٍ برَسُولِهِ ﷺ، لَا عَنْ مُجرَّد شجاعةٍ وحَميَّةٍ، وَلَا ليُقَال: إنَّه كَذَا وكَذَا، وَلَا لمَقْصدٍ آخَر غير اتِّبَاع الشَّرْع، فَالنَّصْرُ لدين الله يكونُ بطَاعَة الله، وتَعْظيمِهِ، والإِخْلَاص لَهُ، والرَّغْبة فِيمَا عِنْدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعَمَل بشريعتِهِ، يُرِيدُ ثَوَابَه، وإِقَامَة دينِهِ، فمَنْ كانَ بهَذِهِ الصِّفة فهُوَ من المُؤْمنينَ الَّذين قالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾﴾، ويَقُولُ فِيهِمْ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١، ٥٢]، يَعْني بذَلِكَ العَاقِبَةَ الوَخِيمةَ، وَهِيَ اللَّعنةُ وسُوءُ الدَّار، فَالعَاقِبَةُ الوخيمةُ هِيَ النَّارُ والطَّردُ من رَحْمة الله؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصُرُوا اللهَ، ولَمْ يَنْصروا دِينَهُ.

فالظَّالِمُونَ لَا تَنفعُهُمُ المَعَاذيرُ، ولَهُمُ اللَّعْنةُ، ولَهُمْ سوءُ الدَّار يَوْمَ القيامة بخِلَافِ مَنْ نَصَر دينَ اللهِ، وَاسْتَقَام عَلَيه، فَلَهُمُ الرِّضا، والكَرَامةُ، والعَاقبةُ الحميدةُ، وذَلِكَ بالنَّصْر في الدُّنيا، والفَوْز في الآخِرَةِ بدُخُول الجنَّة، والنَّجَاة من النَّار، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعلَنا وإِيَّاكُمْ مِنهُمْ، فالرُّسُلُ وأَتْباعُهُمْ وهُمُ المُؤْمنونَ لَهُمُ النَّصر في الدُّنيا بإِظْهَارهم عَلَىٰ عَدوِّهِمْ، وتَمْكينِهِمْ مِنْ عَدوِّهِمْ، وجَعْل العَاقِبَةِ الحميدةِ لَهُمْ ضدَّ عَدوِّهِمْ، وَفِي الآخِرَةِ لَهُمُ النَّصْرُ بدُخُول الجنَّة، والنَّجَاة من النَّار، والسَّلَامة من هَوْل اليَوْم العَظِيم، ويَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ

أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥].

هَؤُلَاءِ هُمْ أَنْصَارُ الله الَّذين آمَنُوا وعَملُوا الصَّالحاتِ، وهُمُ الَّذين أَقَامُوا الصَّلاةَ، وَآتَوا الزَّكاةَ، وأَمَروا بالمَعْروفِ، ونَهَوْا عن المُنْكر، وهُمُ الَّذين نَصَروا دينَ الله، وَاسْتَقَاموا عَلَيه.

فَالآيَاتُ والأحاديثُ يُفسِّر بَعْضُها بعضًا، ويدلُّ بَعْضها عَلَىٰ مَعْنىٰ بعضٍ، فأَنْصَارُ الله هُمُ المُؤْمنونَ، وهُمُ المُتَّقونَ، وهُمُ الصَّابرونَ الصَّادقونَ، وهُمُ الأَبْرَارُ.

وهُمُ الَّذين إذا مُكِّنوا في الأَرْض أَقَامُوا الصَّلاة، وَآتَوا الزَّكاةَ، وأَمَرُوا بالمَعْروفِ، ونَهَوْا عن المُنْكر.

وهُمُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ المَذْكُورُونَ في هذِهِ الآية من سُورَة النُّور.

وهُمُ الَّذين قَامُوا بهَذَيْنِ الأَمْرينِ، آمَنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ، آمَنُوا بأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَهُوَ مَعْبُودُهم الحقُّ، خَصُّوه بالعِبَادَةِ، وَآمَنوا بأَسْمائِهِ وصفاتِهِ، وَاسْتَقَاموا عَلَىٰ دينِهِ قولًا، وعملًا، وعقيدةً، هَؤُلَاءِ هُمُ المُؤْمنونَ، هُمْ أَنْصَار الله، هُمْ أَنْصَار دِينِهِ، وهُمُ المُتَّقونَ.

وهُمُ الَّذين قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠].

وَهُمُ المُؤْمِنُونَ الَّذين ذُكِرُوا في قولِهِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧].

وهُمُ المَذْكُورُونَ في قولِهِ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾ الآية [الحج:٤١، ٤٢]، وَفي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:



﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

وَهُمُ المَوْعُودُونَ بالاسْتِخْلافِ في الأَرْضِ، والتَّمْكينِ لدِينِهِمْ، وإِبْدَالِهِمْ بَعْد الخَوْف أمنًا، وبَعْد الذُّلِّ عزًّا.

فعَلَيك يا عَبْد الله: أن تَعرفَ هَذَا المَعْنىٰ جَيِّدًا، وأَنْ تَعْمَلَ بِهِ حتَّىٰ تكُونَ من أَنْصَار الله، وَحَتَّىٰ تَحْصل لَكَ العاقبةُ الحميدةُ الَّتي وَعَدَ اللهُ بِهَا أَنْصَارَه، فاللهُ وَعَد أَنْصَارَه بالنَّصرِ، والعَاقِبَةِ الحميدةِ، وَالتَّمْكين في الأَرْض، وَأَنْ يُبدِّلهم بخَوْفهم أمنًا لَمَّا أَخَافُوا أَعْدَاءه من أجلِهِ، وصَبَروا عَلَىٰ دينِهِ، وَجَاهَدوا في الله، وقَدَّموا أَنْفُسَهم في سبيلِهِ سُبْحانَه رَخيصةً، يَرْجُونَ رَحْمتَهُ، ويَخَافون عِقَابَه، قَدْ بَاعُوهَا لله، وَسَلَّموها لله عَمَلًا بقولِهِ سُبْحانَه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة:١١١].

فَهَؤُلَاءِ هُمْ أَنْصَارُ اللهِ الَّذين ثَبَتوا عَلَىٰ دينِهِ، وَاسْتَقاموا عَلَيه قولًا وعملًا في الأَمْنِ والخَوْفِ، في الشِّدَّة والرَّخَاء، جَاهَدُوا لله، وَصَبروا، فَجَعل اللهُ لَهُمُ العاقبةَ الحميدةَ، كَمَا قَالَ سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩]، وَعَدهُمْ بالهِدَايَة، وَأَنَّهمْ هُمُ المُحْسِنونَ المَنْصُورُونَ.

وَلمَّا تَوَافرتْ هذِهِ الأَسْبابُ في الرَّسُول ﷺ وأَصحابِهِ -رضوان الله عَلَيهم- في يَوْم بَدْرٍ، نُصِرُوا عَلَىٰ الكُفَّار وهُمْ أَضْعَافُهُمْ، أَضْعافُهُمْ في القُوَّة والعَدَد، ومَعَ ذَلِكَ نُصِرُوا عَلَيهم بأَنَّهم حَقَّقوا هذِهِ الصِّفاتِ، نَصَروا دينَ الله بالقَوْل والعَمَل، وصَبَروا في لِقَاءِ الأَعْداءِ، وَصَدقوا، فمَكَّنهُمُ اللهُ، وهَزَم عَدُوَّهُمْ، وجَعَل لَهُم العاقبةَ الحميدةَ، وهَكَذا في يَوْم الأَحْزابِ، صَدَقوا، وصَبَروا وصَابَروا، صبرًا عظيمًا مع كَوْن الكُفَّارِ أَضْعافَ المُسْلمينَ.

فصَبَر المُسْلمونَ وهُمْ مُحَاصَرونَ حتَّىٰ نَصَرهم اللهُ بأَمْرٍ من عندِهِ عَلَىٰ عَدوِّهم بجُنُودٍ لَمْ يَرَوْها حتَّىٰ زَلْزَلهم وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ لَمْ يَنَالوا خيرًا بسَبَب صَبْر الصَّحَابة ونَبيِّهِمْ ﷺ عَلَىٰ طاعتِهِ وجِهَادِ أعدائِهِ، وهَكَذا في يَوْم الفَتْح، نَصَر اللهُ المُسْلمينَ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ، وفَتَحوا مَكَّةَ، وهَزَموا الشِّرْكَ وأَعْوانه، وَجَيْش هَوَازِن، فضلًا منه سُبْحانَه، وتَأْيِيدًا لأوليائِهِ، وهَكَذا حَصَل للصَّحابة في قِتَالِهم للرُّوم وفارِسَ وغَيْرهما، صَبَروا وجَاهَدوا فأَفْلَحوا ونُصِرُوا، وجَعَل اللهُ لَهُمُ العاقبةَ الحميدةَ، فصَارُوا قَادَةَ النَّاس، ومُلُوكَ الأَرْض، وسُنَّةُ الله سُبْحانَه هذِهِ سائرةٌ في عبادِهِ إلىٰ يَوْم القِيَامَة، مَنْ نَصَرَهُ؛ نَصَرَهُ، ومَنْ حَادَ عن دينِهِ؛ خَذَله.

ولمَّا جَرَىٰ ما جَرَىٰ يَوْمَ أُحُدٍ من الخَلَل، أُصِيبَ المُسْلمونَ وهُمْ أَفْضَل خَلْق الله في أَرْضِ الله، فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ ﷺ أَفضلُ الخَلْق، وهُمْ بَعْدَهُ وبَعْدَ الأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ الخَلْقِ، وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَفْضَلُ الأُمَّةِ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ، وَفِيهِمْ عُمَرُ أَفْضَل الأُمَّةِ بَعْدَ النَّبِيِّ وبَعْدَ الصِّدِّيقِ، وَفِيهم بَقِيَّةُ الأَخْيَارِ.

أُصِيبَ المُسْلمونَ بسَبَب الخَلَل الَّذي حَصَل من الرُّمَاة لَمَّا أَخَلُّوا بما أَوْجبَ اللهُ عَلَيهم من الصَّبر لأَعْداءِ الله، ولُزُوم الثَّغرِ الَّذي يُخْشَىٰ منه، فدَخَل العَدوُّ عَلَيهم، وكَانَ الرَّسُولُ -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- قَدْ أَمَر الرُّمَاةَ أَنْ يَلْزَموا مَوْقِعهُمْ، وأَلَّا يَبْرحُوهُ وإِنْ رَأَوا العَدوَّ يَتخطَّف المُسْلمينَ، وإِنْ رَأَوا المُسْلمينَ نُصِرُوا، لَا هَذَا، ولَا هَذَا، فعَلَيهم أَنْ يَلْزَمُوا مَكَانَهم، فلَمَّا انْهزَم العَدوُّ يَوْمَ أُحُدٍ، وَرَآهم الرُّمَاةُ انْهَزموا، ظَنُّوا أَنَّها الفاصِلةُ، فأَخَلُّوا بمَوَاقعهم، وحَاوَلَ أَمِيرُهُمْ أن يُثْنِيهِمْ عَنْ ذَلِكَ، فَخَالَفُوهُ ظنًّا مِنْهم أَنَّ الكُفَّارَ لا عَوْدةَ لَهُمْ، وأَنَّهم قَدِ انْهَزموا انهزامًا كاملًا، فدَخَل العدوُّ عَلَىٰ المُسْلمينَ، وصَارَتِ النَّكْبةُ عَلَىٰ المُسْلمينَ، والقَتْلُ، والجِراحاتُ، والهَزِيمةُ حتَّىٰ حَاوَلوا قَتْلَه ﷺ، فأَنْجاه اللهُ من شَرِّهِمْ،

وأَصَابه جِرَاحاتٌ، وكَسَروا رَبَاعيَّته عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، إِلَىٰ غَيْر هَذَا ممَّا أَصَابَه عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وقُتِلَ سَبْعونَ من الصَّحابة، وأَصَاب بَعْض مَنْ بَقِيَ جِرَاحاتٌ، وأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢]، أي: يَقْتلُونَهُمْ بِإِذْنِ اللهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ يَعْني بذَلِكَ الرُّمَاة ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ تَنَازعوا في الأَمْر وَاخْتَلفوا ﴿وَعَصَيْتُم﴾ بتَرْك المَوْقع الَّذي أَمَركُمُ الرَّسُولُ ﷺ بلُزُومِهِ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من هَزِيمَةِ العَدوِّ، والجَوَابُ مَحْذوفٌ تقديرُهُ: سَلَّط العَدوَّ عَلَيكم. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ الآية، [آل عمران:١٥٢].

المَقْصودُ: أَنَّهُمْ أُصِيبُوا بسَبَب الخَلَل الَّذي وَقَع مِنْهُمْ في مَوْقفٍ عظيمٍ لا بُدَّ مِنْهُ في سِيَاسَة الجِهَادِ من حِفْظِ الثُّغُور، وحِفْظِ المَنَافذِ الَّتي يَنْفُذُ منها العدوُّ، فحِفْظُ الثُّغُور الَّتي يَدْخل مِنْهَا العدوُّ عَلَىٰ المُسْلمينَ، وحِفْظُ المَنَافذ الَّتي يَدْخل مِنْها العدوُّ عَلَىٰ الجَيْش وَقْتَ اللِّقاءِ لا بُدَّ فيه للجَيْش بأَنْ يكونَ عِنْدَه عنايةٌ بذَلِكَ، وعِنْدَه حذرٌ، وعِنْدَهُ حرصٌ عَلَىٰ سَدِّ كلِّ ثَغرٍ يُمْكنُ أَنْ يَنفذَ مِنْهَا العدوُّ عَلَىٰ المُسْلمينَ ليَضرَّهُمْ أَوْ يَأْتِيهم من خَلْفهم، ولَمَّا اسْتَنْكَر المُسْلمونَ هَذَا الأَمْرَ، وهَذَا الحَدَث المُؤلمَ من الجِرَاحِ، والقَتْلِ، وَقَالُوا: لِمَاذَا أُصِبْنَا؟ ولِمَاذَا جَرَىٰ هَذَا؟ وفِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، وفِيهِمْ خِيرَةُ الله من عبادِهِ بَعْد الأَنْبياءِ، أَنْزَل اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يَعْني يَوْمَ بدرٍ، قَتَلُوا سَبْعينَ من الكُفَّار، وأَسَروا سَبْعينَ، وَحَصَلتْ جراحاتٌ في الكُفَّار كثيرةٌ، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران:١٦٥]، يَعْني اسْتَنْكرتُمْ من أَيْنَ أُصِبْنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ مَعْصيةَ بَعْض الجَيْشِ، وإِخْلَال بَعْض الجَيْشِ بالأَسْبَابِ مُصِيبَةٌ للجَمِيع، فَأُصِيبُوا بسَبَب بَعْضهم، وهَكَذا النَّاسُ إِذَا رَأَوا المُنْكَراتِ، وَشَاعَتْ، وَلَمْ تُغيَّرْ، عَمَّتِ العُقُوباتُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا المُنْكَرَ فَلَمْ يُغيِّرُوه، أَوْشَكَ أَنْ يَعمَّهُمُ اللهُ بعقَابِهِ»، أَخْرَجه الإمامُ أَحْمدُ رَحِمَهُ اللهُ بإسنادٍ صحيحٍ عن الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(١).

والمَقْصودُ: أَنَّ الواجبَ عَلَىٰ الأُمَّةِ التَّآمُرُ بالمَعْروف، والتَّناهِي عن المُنْكر، والتَّعاونُ عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، والصِّدْق في ذَلِكَ في كُلِّ بلدٍ، وفي كُلِّ قريةٍ، وفي كُلِّ قبيلةٍ عَلَيهم أَنْ يَتنَاصَحوا، وَيَتَواصَوْا بالحقِّ والصَّبْرِ عَلَيه، ويَتعَاوَنوا عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، ويَأْمُرُوا بالمَعْروفِ، ويَنْهَوا عن المُنْكَرِ حتَّىٰ لَا تُصِيبَهُمْ كارثةٌ بسَبَب ذُنُوبِهِمْ وأَعْمَالِهِمْ، يَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

هَؤُلَاءِ هُمُ الرَّابحونَ، وهُمُ المَنْصُورونَ، فلا بُدَّ من هذِهِ الصِّفاتِ الأَرْبَع: الإِيمَانُ الصَّادقُ، والعَمَلُ الصَّالحُ، والتَّواصِي بالحَقِّ، وَالتَّوَاصي بالصَّبْرِ في الجِهَادِ وغَيْره.

وَفِي المُدُنِ والقُرَىٰ، وَفِي القَبَائل لا بُدَّ مِنْ هذِهِ الخِصَالِ الأَرْبَع، فمَنْ أَرادَ نَصْرَ الله، والسَّلَامةَ لدينِهِ، وأَرَاد حُسْنَ العَاقِبَةِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ، وَلْيَصْبِرْ عَلَىٰ طَاعَةِ الله، وَلْيَحْذَر مَحَارمَ الله أَيْنمَا كانَ، هَذَا هُوَ سببُ نَصْر الله له، وهُوَ من أَسْبابِ نَجَاتِهِ في الدُّنيا والآخرة، فالرَّجُلُ في بيتِهِ، وفي المَسْجِدِ، وفي الطَّريق، وفي السَّيَّارة والطَّائرة والقطار، وفي مَحلِّ البَيْعِ والشِّراءِ، وفي الجِهَادِ، وفي كُلِّ مكانٍ، يَجِبُ

(١) أخرجه أحمد (٥٣)، وابن ماجه (٣٩٩٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥٦٤).

عَلَيه أن يَتَّقي الله، وأَنْ يَنْصرَ دينَ الله بقولِهِ وعملِهِ، وفي جهادِهِ، وفي جَمِيعِ شُؤونِهِ، وهَكَذا المَرْأةُ في بَيْتها، وفي كُلِّ مكانٍ عَلَيها أن تَتَّقي اللهَ، وأَنْ تَنْصرَ دينَ الله بقَوْلها وعَمَلها حَسَب الطَّاقة؛ لقَوْلِ اللهِ سُبْحانَه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وَقَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا نَهَيتُكُمْ عَنْه فَاجْتَنبُوهُ، وَمَا أَمَرتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ بكَثْرة مَسَائِلِهمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ**»؛ مُتَّفقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ(١).

فَالمَرْأةُ تَبْذُلُ النَّصيحةَ مَعَ الزَّوج، ومَعَ الأَوْلَاد، ومَعَ مَنْ في البيت مِنْ أَقَارِبَ، وخَدَم، ومَعَ الجِيرَانِ، ومَعَ الزَّميلاتِ، ومَعَ الجَلِيسَاتِ، تَرْجو بذَلِكَ ما عِنْدَ الله مِنَ المَثُوبَةِ، وأَنْ يَنْفعَ بِهَا عِبَادَهُ، وكُلُّ واحدٍ من الرِّجالِ عَلَيه أن يَتَّقي اللهَ، ويَنْصرَ دِينَهُ في قولِهِ وعملِهِ، ويَأْمر بالمَعْروفِ، ويَنْهَىٰ عن المُنْكَرِ عن صِدْقٍ، وإخلاصٍ، ورغبةٍ، ورهبةٍ، كَمَا قَالَ سُبْحانَه في سُورَة الأَنْبيَاءِ عَنْ عِبَادِهِ الصَّالحينَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

وَقَالَ في سُورَة المُؤْمنونَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

فهَذِهِ أَسْبَابُ النَّصْر، هذِهِ أَسْبابُ حِمَايَة الله لعبادِهِ من كُلِّ سُوءٍ، وأَسْبابُ

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نَصْره لَهُمْ، وَهِيَ من أَعْظَم الأَسْبَابِ في دُخُول الجَنَّةِ، والنَّجَاة من النَّارِ، ولَا بُدَّ مَعَ هَذَا كُلِّه من الحِرْصِ عَلَىٰ الأَسْبَاب الدِّينيَّة والحِسِّيَّة الَّتي يعلم أنَّها من أَسْبَاب النَّصْر؛ لقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

وَيَقُولُ سُبْحانَه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية [الأنفال:٦٠].

وَيقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء:٧١].

وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَىٰ المُؤْمنينَ أَنْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ عِنْدَ القِتَالِ، وأَنْ يَعدُّوا لَهُ ما اسْتَطَاعوا مِنْ قُوَّةٍ من السِّلَاحِ والعَدَد، والحَرَس الجَيِّد، وتَكُونُ المُلَاحظات جَيِّدةً، والثَّغرات مَسْدودةً، والسِّلاحُ مَحْمولًا عِنْدَ الحَاجَة حتَّىٰ ولَوْ كَانُوا في الصَّلَاة، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ المجاهدُ: أنا مُؤْمنٌ، ويَكْفِي، بَلْ لا بُدَّ من الأَسْبَابِ الحِسِّيَّة المَعْنويَّة، فالرَّسُولُ ﷺ وهُوَ أَفْضَلُ المُؤْمنينَ، وأَكْمَلُ المُتوكِّلينَ، والصَّحَابة أَفْضَلُ المُؤْمنينَ بَعْدَ الأَنْبياءِ، ومَعَ هَذَا كُلِّه أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ لَمَّا أَخلَّ الرُّماةُ بالشَّيءِ الَّذي يَجِبُ عَلَيهم، وأَخَلُّوا بالمَوْقِفِ الَّذي أُمِرُوا بلُزُومِهِ.

فالمَعَاصي من أَسْبَاب الخذلانِ، كَمَا أَنَّ مَعْصيةَ الرُّمَاة سَببُ الهَزِيمَةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وهَكَذا المَعَاصي كُلُّها في كلِّ وقتٍ من أسباب الخذلان إِذَا ظَهَرتْ ولَمْ

تُنكَر تكُونُ من أَسْبَاب الخذلان، وتَسْليط الأَعْدَاء، وحُصُول الكثير من المَصَائب، كَمَا أَنَّها من أَسْبابِ قَسْوة القَلْبِ وانْتِكَاسِهِ، نَعُوذُ بالله مِنْ ذَلِكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد:١٦].

فالمَعْصيةُ إِذَا ظَهرتْ، ضَرَّتِ العَامَّةَ إذا لَمْ تُنْكَر، ولَمْ تُغيَّرْ، فالمُؤْمِنُونَ مَأْمُورُونَ بالاسْتِقَامَة عَلَىٰ تَقْوىٰ الله، والجِهَادِ لأَعْدَاءِ الله، وأَنْ يَصْبروا عَلَىٰ التَّقْوىٰ والعَمَل الصَّالح أَيْنمَا كَانُوا مَعَ الإِيمَانِ بأَنَّ اللهَ سُبْحانَه سَوْف يَنْصُرهُمْ، ويُمكِّنُهُمْ من عَدُوِّهمْ، ويَجْعلهم بَعْد خَوْفِهِمْ في أمنٍ وعافيةٍ، وبَعْد القَلَق في اسْتِقْرارٍ وراحةٍ بسَبَب إِيثَارهم حَقَّه، ونَصْرهم دِينَهُ، وتَعَاونهم عَلَىٰ البرِّ والتَّقْوىٰ، وصِدْقهم في ذَلِكَ، ونُصْحهم لله ولعبادِهِ، ومَتَىٰ أَخلُّوا بِشَيءٍ فَلْيَعْلموا أَنَّه خطرٌ عَلَيهم، وأَنَّه مَتَىٰ أَصَابهم مصيبةٌ بسَبَب الخَلَل فمِنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، وَيَقُولُ سُبْحانَه: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]، وَهُوَ القَائِلُ سُبْحانَه في سُورَة آل عِمْرَان بَعْدما ذَكَر كَيْدَ الكُفَّار: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وهُوَ القَائِلُ سُبْحانَه في سُورَة النُّور: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ الآية [النور:٥٥]، وَفِي سُورَة مُحمَّد يَقُولُ سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد:٧].

وأَعْظَمُ العَدُوِّ: الشَّيطانُ، فهُوَ أَعْظَم العَدُوِّ للإِنْسَان، فَإِنَّهُ يَجْري منه مَجْرىٰ الدَّمِ، فعَلَيك أَنْ تُجَاهده بتَقْوىٰ الله، وتَرْك مَعْصيتِهِ، وأَنْ تَحْذرَ مَكَائِدَهُ وَوَسَاوسَه، وأَنْ تُكْثِرَ من الاسْتِعَاذَة بالله مِنْهُ مَعَ الإِكْثَارِ مِنَ الحَسَناتِ، والحَذَر من السَّيِّئاتِ فِي جَمِيعِ الأَوْقاتِ، فهَذَا هُوَ طريقُ السَّلَامة من شرِّه ومَكَائِدِهِ بتَوْفيق الله وإِعانتِهِ، ولا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ من جِهَادِ النَّفْسِ، والإِكْثَار من ذِكْرِ اللهِ، وَالاسْتِقَامَة عَلَىٰ دِينِهِ، والحِفَاظِ عَلَىٰ حُدُودِهِ، والحَذَر مِنْ مَكَايد عَدُوِّ الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

يَقُولُ اللهُ سُبْحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢، ٣]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾ [الطلاق:٤]، وَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر:٦]، وَيَقُولُ سُبْحانَه عَنْ زَوْجَة العَزِيزِ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣]، وَيَقُولُ عَزَّوَجَلَّ في سُورَة النَّازِعَاتِ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠﴾ [النازعات:٤٠].

فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ، فهَذِهِ أَسْبَابُ النَّصر، وهَذِهِ أَسْبَاب النَّجاة من الأَعْدَاء، وهذِهِ أَسْبَاب السَّلَامة من مَكَائد الأَعْداءِ؛ جِنِّهِمْ وإِنْسِهِمْ، حَضَرِهِمْ وبَدَوِيهِمْ، قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ، وَهِيَ أَسْبَاب النَّصْر عَلَيهِم، والسَّلَامة من مَكَائِدِهِمْ، وَهِيَ أَنْ

تَتَّقي اللهَ في جَمِيعِ الأَحْوَال، وأَنْ تُحَافظ عَلَىٰ دينِهِ، وأَنْ تَحْذرَ مَعْصيتَه أَيْنَما كنت في الجِهَادِ وغَيْره، هذِهِ أَسْبَابُ حِفْظِ الله لَكَ، وحِفْظِ الله لدينِهِ بِكَ، ونَصر الله لَكَ عَلَىٰ عَدُوِّك، وخِذْلان عَدُوِّك، ومَتَىٰ فَرَّطَ المُؤمِنُونَ في هذِهِ الأُمُور، فهُمْ في الحَقِيقَةِ سَاعُونَ في تَأْيِيدِ عَدُوِّهِمْ في نَصْره عَلَيهم، والمَعْنىٰ أَنَّ مَعَاصي الجَيْشِ عَوْنٌ لعَدُوِّهِمْ عَلَيهم كَمَا جَرَىٰ يَوْمَ أُحُدٍ، فعَلَىٰ المُؤْمِنِينَ جَمِيعًا في أَيِّ مكانٍ أَنْ يَتَّقوا اللهَ، وأَنْ يَنْصروا دِينَهُ، وأَنْ يُحَافظوا عَلَىٰ شَرْعِهِ، وأَنْ يَحْذَروا مِنْ كُلِّ مَا يُغْضِبُهُ في أَنْفُسِهِمْ، وَفِيمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَفِي مُجْتَمعهِمْ، كُلٌّ عَلَىٰ حَسَب طاقتِهِ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

فنَسْأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُوفِّقنا وإِيَّاكُمْ وجَمِيعَ المُسْلمينَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ، وَأَنْ يُصْلحَ قُلُوبَنا، وأَعْمالَنا جميعًا، وأَنْ يَجْعلنَا مِنَ الهُدَاة المُهْتدينَ، وأَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ حِفْظِ أَنْفُسِنَا مِنْ شَرِّ جَمِيعِ أَعْدَائنا، وأَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ، وشُكْرِهِ، وحُسْنِ عِبَادتِهِ، وأَنْ يُوفِّقَ وُلَاةَ أَمْر المُسْلمينَ جميعًا لِمَا يُرْضيه، وَلِمَا يُمكِّنهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، ويُعِينَهُمْ عَلَيه، وأَنْ يَنْصر بِهِم الحَقَّ، ويَخْذلَ بهم الباطلَ، وأَنْ يَجْمعَ كَلِمَتَهم عَلَىٰ التَّقوىٰ، وأَنْ يُصْلحَ جَمِيعَ الشُّعُوب الإسلاميَّة، وقَادَتَهم، كَمَا أَسْأَلُهُ سُبْحانَه أَنْ يُوفِّق وُلَاة أَمْرنا في هذِهِ البِلَادِ لكُلِّ خيرٍ، وأَنْ يُعِينَهُمْ عَلَىٰ كلِّ ما فِيهِ رِضَاهُ، وأَنْ يَنْصرَ بِهِم الحَقَّ، ويخذلَ بِهِم الباطلَ، وأَنْ يَجْعَلهُمْ مِنَ الهُدَاة المُهْتدينَ؛ إِنَّه -جَلَّ وَعَلا- جوادٌ كريمٌ.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم عَلَى نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وصحبِهِ ومَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إلى يَوْمِ الدِّينِ



(١١) عواملُ إصلاحِ المجتمعِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمدُ للهِ ربِّ العالَمين، والعاقبةُ للمتَّقين، والصَّلاةُ والسَّلامُ الأتمَّان والأكملان علىٰ عَبْدِهِ ورسوله، نبيِّنا وإمامِنا مُحمَّدِ بن عبد الله، وعلىٰ آله، وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدىٰ بِهداه إلَىٰ يوم الدين، **أما بعد:**

فإني أشكر اللهَ علىٰ ما مَنَّ به من هذا اللِّقاء بإخوانِي وأبنائي فِي هذه الْجامعة، وأسأله أن يَجعلَه لقاءً مبارَكًا، وأن يُصْلِحَ قلوبَنا وأعمالَنا جَميعًا، وأن يَجْعَلَنا هداةً مهتدين، وصالِحين مُصْلِحين، وأن يُعيذَنا جَميعًا من شرور أَنْفُسِنا، ومن سيئات أعمالنا.

ثُمَّ أَشْكُرُ القائمين علىٰ هذه الْجَامعة علىٰ دعوتِهم لِي لِهذا اللقاء، وأسأل الله أن يوفِّقَهم جَميعًا لِمَا فيه رضاه، ولِمَا فيه صلاحُ أبناء الْجَامعة وموظَّفِيها والقائمين عليها، ولِمَا فيه صلاحُ الْمُسلمين عمومًا، وأن يَزِيدَهم هدًىٰ وتوفيقًا، وأن يُعِيذَنَا جَمِيعًا وسائرَ الْمُسلمين من كلِّ ما يُغْضِبُه، ويُخالِف شَرْعَه، إنه جواد كَريْم.

أيُّها الإخوةُ وأيها الأبناءُ الكِرامُ، كلمتِي أرجو أن تكون موجَزةً، ثُمَّ بعدها الْجَواب عمَّا يتقدَّم به الأبناءُ من الأسئلةِ حسبَ الإمكان، وعنوانُها: «**عواملُ إصلاحِ المجتمع**».

الْمُجتمعُ فِي أشدِّ الْحَاجةِ إِلَىٰ الإصلاحِ (الْمُجتمع الإسلامي وغير الإسلامي) ولكن بِوَجْهٍ أخصَّ الْمُجتمع الإسلامي فِي أَشَدِّ الْحَاجةِ إِلَىٰ أن يَسِيرَ علىٰ النَّهْجِ القَوِيم، وأن يأخذَ بالعوامل والأسباب والوسائل الَّتِي بِها صَلَاحُه، وأن يَسِيرَ علىٰ النَّهْجِ الذي سار عليه خِيرةُ هذه الأمَّةِ، خَلِيلُ الرَّحْمَن وَصَفْوَتُهُ مِنْ عباده، سيِّدُنا مُحمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ومعلومٌ أنَّ العواملَ الَّتِي بِها صلاحُ الْمُجتمع الإسلامي وغير الإسلامي: هي العوامل الَّتِي قام بِها إمامُ الْمُرسلين، وخاتَم النبيِّين عليه من ربِّه أفضلُ الصَّلاة والتَّسليم، وقام بِها صحابتُه الكِرَامُ، وعلىٰ رَأْسِهم الْخُلفاءُ الرَّاشدون الْمَهديُّون: أبو بكر الصِّدِّيق، وعمر الفاروق، وعثمان ذو النُّورَيْن، وعليّ الْمُرتضىٰ (أبو الْحَسن)، ثُمَّ مَنْ معهم من الصَّحابة، رَضِيَ اللهُ عن الْجَميعِ، وَجَعَلَنَا من أَتْبَاعِهم بإحسانٍ.

وَمِنَ الْمَعلومِ أنَّ هذه العواملَ قام بِها نبيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ فِي مكَّة أولاً، ثُمَّ فِي الْمَدينة، ولن يُصْلِحَ آخرَ هذه الأمةِ إلا الذي صَلَحَ به أَوَّلُها، كما قال أهلُ العلم والإيمان، ومِنْ جُمْلَتِهم: الإمامُ الْمَشهورُ مالكُ بنُ أنس إمامُ دار الْهجرة فِي زمانه، والفقيهُ الْمَعروف، أحدُ الأئمةِ الأربعةِ، قال هذه الْمَقالة، وتلقَّاها أهلُ العلم فِي زمانه وبعده، ووافقوا عليها جَميعًا: «لَنْ يُصْلِحَ آخرَ هذه الأمَّةِ إلا ما أَصْلَحَ أَوَّلَها»(١).

والْمَعنَىٰ: أن الذي صَلَحَ به أَوَّلُها، وهو: اتِّباعُ كتاب اللهِ وَسُنَّةِ رسولِهِ الكَريم ﷺ، هو الذي يَصْلُحُ به آخرُها إِلَىٰ يومِ القيامة.

وَمَنْ أرادَ صَلَاحَ الْمُجتمعِ الإسلاميِّ، أو صلاحَ الْمُجتمعات الأخرىٰ فِي

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٧٨٣).

هذه الدُّنيا، بغَيْرِ الطريقِ والوسائلِ والعواملِ الَّتِي صلح بِها الأَوَّلُون، فقد غَلَطَ، وقال غَيْرَ الْحَقِّ، فليس إِلَىٰ غيرِ هذا مِنْ سَبِيلٍ.

وإِنَّما السَّبيلُ إِلَىٰ إصلاحِ النَّاسِ وإقامَتِهم علىٰ الطَّريقِ السَّوِيِّ: هو السَّبيلُ الذي دَرَجَ عليه نبيُّنا -عليه الصَّلاة والسَّلام- ودَرَجَ عليه صحابتُه الكِرَامُ، ثُمَّ أتباعُهم بإحسانٍ إِلَىٰ يومنا هذا، وهو: العنايةُ بالقرآنِ العظيمِ، والعنايةُ بِسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ودعوةُ النَّاسِ إليهما، والتَّفَقُّه فيهما، ونشرهُما بين الناس عن عِلْمٍ وبَصِيرةٍ، وإيضاحُ ما دَلَّ عليه هذان الأصلان من الأحكامِ فِي العقيدةِ الأساسية الصَّحيحة، ومِنَ الآراءِ الَّتِي يَجِبُ علىٰ الْمُجتمعِ الإسلاميِّ الأَخْذُ بها، وبيانُ الْمَحارِمِ الَّتِي يَجِبُ علىٰ الْمُجتمعِ الإسلاميِّ الْحَذَرُ مِنْها.

وبيانُ الْحُدود الَّتِي حَدَّهَا اللهُ ورسولُه؛ حتَّىٰ يَقِفَ عندها، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة:١٨٧].

وهي: الْمَحارِمُ الَّتِي نَهىٰ عن قُرْبَانِها باقْتِراف الْمَعاصي، كما نَهىٰ عن تَعَدِّي الْحُدود الَّتِي حدَّها لعبادِهِ، وهي ما فَرَضَه عليهم، وألزمهم به من العبادات والأحكام.

والرَّسولُ ﷺ أَوَّلُ عَمَلٍ عَمِلَه، وأوَّل أساسٍ رسَمَه: أنَّه دعا الناس إِلَىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة له.

هذا أولُ عمل، وهذا أول أساس تكلم به، ودعا إليه، وسار عليه، هو دعوة الناس إِلَىٰ توحيد الله، وإرشادُهم إِلَىٰ تفاصيل ذلك.

والكلمةُ الَّتِي دَلَّتْ علىٰ هذا الْمَعنَىٰ هي قول: «لا إلهَ إلا اللهُ»، هذه هي الأساسُ الْمَتين.

ومعها شهادة: «أن مُحمَّدًا رسولُ الله».

هذان الأصلان والأساسان الْمُهمان هُما أساسُ الإسلامِ، وهُما أساسُ صلاحِ هذه الأمة، مَنْ أَخَذَ بِهما واستقام عليهما عملاً وعلمًا ودعوةً وَصَبْرًا، استقام له أمرُه، وأصلح اللهُ به الأمَّةَ، علىٰ قَدْرِ جهادِه وقُدْرَتِهِ وأسبابِه.

وَمَنْ أضاعَهما أو أضاع أحدَهُما، ضاعَ وهَلَكَ.

ولَمَّا بعث اللهُ نَبيَّه -عليه الصلاة والسلام- وأنزل القرآن، كان أولُ ما نزل عليه: اقرأ، ثُمَّ الْمُدَّثِّر، فقام إِلَىٰ الناس يُنْذِرُهُم ويدعوهم إِلَىٰ توحيد الله، ويُحَذِّرُهم نِقْمَةَ الله، ويقول: «**يَا قَوْمُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»(١).

فاستكبر الْمُشركون واستنكروا هذا؛ لأنه ليس الأمرَ الذي اعتادوه، وليس الأمرَ الذي أدركوا عليه أسلافَهم؛ ولِهذا استنكروه، وقالوا عند ذلك: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥].

وقالوا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات:٣٦].

وَقَبْلَها قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ۝٣٦﴾ [الصافات:٣٥، ٣٦].

فَرَدَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾ [الصافات:٣٧].

وبسبب تساهُلِ الكثيرِ من العلماءِ، وطلبةِ العلم، وأعيان أهل الإسلام الذين فقهوا توحيد الله، بسبب التَّساهل فِي هذا الأصل الأصيل، انتشر الشِّركُ فِي بلدانٍ كثيرةٍ، وعُبِدَتِ القبورُ وأهلُها من دون الله، وصُرِفَ لَهَا الكثيرُ من عبادةِ اللهِ، فهذا يدعو صاحبَ القبر، وهذا يستغيث به، وهذا يَنْذِرُ له، وهذا يَطْلُبُهُ الْمَددَ، كما فعلت قريشٌ وغيرُها فِي الْجَاهليَّةِ مع العُزَّىٰ، وكما فعل غيرُهم مع

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢) من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٦٥٢٨).

اللَّات ومع مَنَاة ومع أصنام أخرىٰ.

وكما يفعل الْمُشركون فِي كلِّ زمانٍ مع أصنامِهم وأوثانِهم فِي التَّعظيمِ، والدُّعاء، والاستغاثة، والتَّمَسُّح، والتَّبرُّك، وطَلَبِ الْمَدَدِ.

وهذا من دَسَائِسِ الشَّيْطَانِ ومن مكائدِه؛ فإنَّه أحرصُ شيءٍ علىٰ إزاحةِ النَّاس عن عقيدتِهم ودِينهم، وعلىٰ إبعادِهم عنها بكل وسيلة.

فالواجب علىٰ طلبةِ العلم -وهم أملُ الأمَّةِ بعد الله فِي القيادةِ الْمُستقبلة، وهم رجال الغد فِي أي جامعة تَخرَّجوا- أن يقودوا السَّفينةَ بِحكمةٍ وإخلاصٍ وصدقٍ، وأن يُعْنَوا بالأساسِ، وأن يَعْرِفوا العاملَ الوحيدَ العظيمَ الذي عليه الارتكازُ، والذي يَتْبَعُهُ ما سواه: وهو العنايةُ بتوحيدِ اللهِ والإخلاصِ له، والعنايةُ بالإيمَان بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وأنه رسولُ اللهِ حقًّا، وأن الواجبَ اتِّبَاعُه، والسَّيْرُ فِي مِنْهاجه.

وأنَّ صحابتَه هم خيرُ الأمَّة، وهم أفضلُها، فيجب حُسْنُ الظَّنِّ بِهم، واعتقادُ عَدَالتِهم، وأنَّهم خيرُ الأمة بعد رسولِ الله ﷺ، وأنَّهم حَمَلةُ السُّنَّةِ وحَمَلَةُ القرآن، فوجب السَّير علىٰ مِنْهاجهم والتَّرَضِّي عنهم جَميعًا، واعتقاد أنَّهم خيرُ الناس، وهم أفضل الناس بعد الأنبياء.

كما ثبت فِي «الصَّحيحين» عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبِي ﷺ أنه قال: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**(١).

وهناك أحاديثُ أخرىٰ دَلَّتْ علىٰ ذلك.

فأصحابُ النَّبِيِّ ﷺ هم خيرُ النَّاسِ بعد الأنبياء، وهم أفضلُ النَّاس، وهم علىٰ مراتب فِي الفَضْلِ، فأفضلُهم الْخُلفاءُ الراشدون، ثُمَّ بقيةُ العشرة الْمَشهود لَهم بالْجَنَّة، ثُمَّ الباقون علىٰ مراتبهم، وعلىٰ حسب عِلْمهم وفَضْلهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

فوجب أن نُعنَىٰ بِهذا الأساس، وأن ندعو الناس إِلَىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة له، وألا نغلو فِي القبور والأنبياء والأولياء ونعبدهم مع الله، ونصرف لَهم العبادةَ من دعاء، أو خوف، أو رجاء، أو نَحو ذلك.

ويَجب علىٰ طالب العلم وعلىٰ القائد: أن يُعَظِّمَ أمرَ اللهِ ونَهْيَه، وأن يَسْتَقِرَّ خوفُ الله فِي قلبِه فوقَ جَميعِ الأشياءِ، وأن يُعَظِّمَ أمرَه ونَهْيَه، وألَّا يبالِي بِما يُرْجِفُ به الْمُرجفون ضدَّ الْحَقِّ وأهلِه؛ ثقةً بالله، وتصديقًا لِمَا وَعَدَ رسوله ﷺ والرسل.

كما فِي قوله جلَّ وعلا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ الآية [إبراهيم:١٣، ١٤].

فطالبُ العلمِ (العالِمُ والْمُوجِّهُ والقائدُ البصيرُ) لا يبالِي بإرجافِ عُبَّادِ القبور، ولا بإرجافِ الْخُرافيِّين، ولا بإرجافِ مَنْ يُعادي الإسلامَ من أيِّ صنف، بل يصمد فِي الْمَيدان، ويصبر ويعلِّق قلبَه باللهِ، ويَخافُه سبحانه، ويرجو منه النَّصْرَ جلَّ وعلا، فهو الناصرُ، وهو الولِيُّ ﷻ، وقد وعد أن يَنْصُرَ من ينصره، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [مُحمَّد:٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧].

لكن بالشرط، وهو: التَّمسُّكُ بدين الله، والإيمَان به، والإيمَان برسوله ﷺ، والاستقامة علىٰ دين الله.

هذا هو السبب، وهذا هو الشَّرْطُ فِي نصرِ الله لنا.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [الحج:٤٠، ٤١].

وفِي الآية الأخرىٰ يقول سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥].

فهذا وعدُه لِمَنِ استقام علىٰ الإيمَان والْهُدىٰ والعمل الصالِح: أنَّ اللهَ يَستخلفه فِي الأرض، ويُمكِّن له دينَه، ويؤمِّنه، ويعيذُه من شرِّ الأعداء ومكائدهم، وينصره عليهم.

ومن تَحقيق شهادة أن مُحمَّدًا رسول الله: تعظيمُ سُنَّتِه، والدَّعوة إليها، وتنفيذ مقاصدها، والتحذيرُ من خِلافها، وتفسير القرآن الكريم بِها فيما قد يَخفىٰ من آياته، فإنه يفسَّر بالسُّنَّةِ ويوضَّح بِها؛ فالسُّنَّةُ توضِّح القرآنَ، وتبيِّنُه، وتدلُّ عليه، وتُعبِّر عنه، كَمَا قَالَ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل:٤٤].

هذا الأساسُ العظيمُ يَجب أن يكون منه الْمُنْطَلَقُ للدُّعاةِ الْمُخلِصين والْمُصْلِحين فِي الأرضِ، الذين يريدون أن يتولَّوا إصلاحَ الْمُجتمعِ، والأخذَ بيَدِه إلَىٰ شاطِئِ السَّلامةِ، وسفينةِ النَّجاةِ؛ كي يرتكزَ هذا الإصلاحُ علىٰ أعظمِ عاملٍ، وهو: الإخلاصُ للهِ فِي العبادةِ، والإيمَانِ برسولِهِ -عليه الصَّلاة والسَّلام- وتعظيمُ أَمْرِه ونَهْيِه باتِّباعِ شريعتِه، والْحَذَرِ مِمَّا يُخالفُها.

ثُمَّ بعد ذلك يُنْظَرُ فِي العواملِ الأخرىٰ الَّتِي هي تابعةٌ لِهذا الأساسِ: فيدعو إِلَىٰ أداء فرائض الله من صلاة وزكاة وصوم وحَجٍّ، وغيرِ ذلك، ويَنْهَىٰ عن مَحارمِ اللهِ من الشِّركِ وما دونَه من سائرِ الْمَعاصي والشُّرور، ويسعىٰ بالإصلاحِ بين الناس بالأمر بالْمَعروف، والنَّهْي عن الْمُنكر، والدَّعوة إِلَىٰ الله، وإصلاح ذات البَيْنِ، إِلَىٰ غيرِ ذلك.

فهو ساعٍ بكلِّ جهده إِلَىٰ إقامة أمر الله فِي أرض الله، وإِلَىٰ ترك مَحارم الله، والوقوف عند حدود الله، وإِلَىٰ الْحَذَرِ من البدعِ الْمَحظورةِ فِي الدِّين.

هكذا يكون الْمُصلحُ الْمُوفَّقُ، يأخذ العواملَ عاملاً عاملاً، مع مراعاةِ الأساس الْمَتين، وهو تَحقيقُ شهادةِ «أن لا إله إلا الله، وأن مُحمَّدًا رسول الله»: علمًا وعملاً، فهو يعلمها الناس، ويعمل بِها فِي نفسه؛ فيوحد الله، ويَخصُّه بالعبادة، وينقادُ لشريعته خلف رسول الله مُحمَّدٍ ﷺ.

يَتلقَّىٰ السنَّةَ ويعظِّمُها كما عظَّمها الصَّحابةُ، ويَسيرُ علىٰ نَهْجِها وعلىٰ مُقتَضَاها مع كتاب الله كما سار الصَّحابةُ، فإنَّ عِلْمَ الصَّحابةِ مِنْ كتابِ اللهِ ومِنْ سُنَّةِ رسوله عليه الصلاة والسلام، ما عندهم كتبٌ أخرىٰ، وإنَّما جاءت الكتبُ بعدهم.

أما الصَّحابةُ والتابعون، فكانت سيرتُهم وكانت أعمالُهم مستقاةً من الكتابِ العظيمِ، يَتَدَبَّرُونه ويقرؤونه بقصدٍ صالِحٍ، بقصدِ العلمِ والإفادةِ والعملِ.

ومن السُّنَّةِ كذلك، يدرسونَها، ويَحفظونَها، ويأخذون منها العلم والعمل.

هكذا كان أصحابُ رسول الله ﷺ، وهكذا كان التابعون لَهم بإحسان قَبْلَ وجودِ الْمُؤلَّفاتِ فِي الْحَديثِ وغيرِ الْحَديث.

فَقَدِّر لنفسك مع أولئك، واستَنْبِطْ من كتابِ ربِّكَ، وسنَّةِ رسولِه ﷺ، ومن كلامِ أهل العلم، ما يُعينُك علىٰ فَهْمِ كتاب الله، وعلىٰ فَهْمِ السُّنَّة.

وكُن حريصًا علىٰ العلم والفِقْهِ فِي الدِّين؛ حتَّىٰ تستطيعَ أن تُوَجِّهَ الْمُجتمعَ إِلَىٰ الطريقِ السَّويِّ، وتأخذَ بيدِه إِلَىٰ شاطئ السَّلامة، وحتَّىٰ تعلمَ كيف تعمل، فتبدأ بنفسك، وتَجتهد فِي إصلاح سيرتك ومسابقتِك إِلَىٰ كلِّ خيرٍ، فتكون مع أَوَّلِ الناسِ فِي الصَّلاة، ومع أَوَّلِ الناس فِي كلِّ خيرٍ، وتكون من أبعدهم عن كلِّ شَرٍّ، تَمْتَثِلُ تنفيذَ كتابِ الله، وتنفيذَ سنةِ رسوله ﷺ فِي أعمالك، وفِي أقوالك مع زملائك، وإخوانك، وأعوانك.

هكذا يكون الْمُؤمن، وهكذا كان الصَّحابةُ رضي الله عنهم، وهكذا كان أتباعُهم من التابعين، وأتباعِ التَّابعين والْمُصلحين، وأئمةُ الْهُدىٰ يَدرسُون كتاب الله، ويَعملون بِما فيه ويُقْرِئونه الناس ويعلمونَهم إياه، ويرشدونَهم إِلَىٰ معانيه، ويعلمونَهم السُّنَّةَ، ويَحُثُّونَهم علىٰ التَّمَسُّكِ بِها والفِقْهِ فيها، ويوصونَهم بتعظيمِ الأوامر والنَّواهي، والوقوف عند الْحُدود الَّتِي حَدَّها اللهُ ورسولُه مدةَ حياتِهم فِي هذه العاجلة.

فكُلُّ عاملٍ من عواملِ الإصلاحِ يتطلَّبُ إخلاصًا وصِدْقًا، فالدعوةُ إِلَىٰ توحيدِ اللهِ تَحتاجُ إِلَىٰ إخلاصٍ، وصدقٍ، وبيانِ معنَىٰ «لا إله إلا الله»، وأن معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله، وأنَّ الواجبَ الْحَذَرُ من الشِّركِ كلِّه دقيقِه وجليلِه، وتَحذيرُ الناسِ منه، كما فعل رسولُ الله ﷺ، وكما فعل أصحابُه رضي الله عنهم وأرضاهم.

وبِتَدَبُّرِ القرآن العظيم يتضح هذا الْمَعنَىٰ كثيرًا، وهكذا السُّنَّةُ تعظيمُها والدَّعوة إليها، بعد الإيْمَان أن مُحمَّدًا رسول الله، وأن الواجبَ اتِّباعُه، وأنَّ اللهَ أرسله إِلَىٰ الناسِ كافَّةً عَرَبِهم وعَجَمِهم، جِنِّهم وإِنْسِهم، ذكورِهم وإناثِهم، فعلىٰ جَميع أهل الأرض أن يَتَّبِعوه، كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال

قَبْلَها سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

فمن اتَّبَعَهُ وَعَظَّمَ أمرَه ونَهْيَه فهو الْمُفلحُ، ومن حاد عن ذلك وَتَبِعَ الْهَوىٰ والشَّيْطَانَ فهو الْخَاسرُ الْهَالكُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله.

والعواملُ تتعدَّدُ بِحسب ما تدعو إليه، وما تنهىٰ عنه، فأنت تَجتهد فِي اختيار العامل الذي تقوم به، العامل الشرعيّ الذي عَرَفت أَصْلَه، وعرفت مَأْخَذَه من كتابِ الله، ومن سُنَّةِ رسول الله ﷺ، فأنت تدعو الناسَ إلَىٰ دينِ الله، وإلَىٰ أداءِ فرائضِ الله، وإلَىٰ تركِ مَحارمِ اللهِ علىٰ الطريقةِ الَّتِي سَلَكَها رسولُ الله ﷺ.

والعواملُ والْمُجتمعاتُ تَختلف، فالْمُجتمعُ الْمُحارِبُ للدِّين، والذي ليس فيه قائدٌ يُعِينُكَ علىٰ الإصلاح والتَّوْجِيه تَعْمَلُ فيه كما عمل رسولُ اللهِ ﷺ فِي مكَّةَ، تدعو إلَىٰ الله بالْحُسنَىٰ وبالأسلوبِ الْحَسَنِ، وبالكلماتِ اللَّيِّنةِ، حتَّىٰ يدخل ما تقول فِي القلوب، وحتَّىٰ يؤثر فيها، فَيَحْصُل بذلك انْجِذَابُ القلوبِ إلَىٰ طاعةِ اللهِ وتوحيدِه، وتتعاون مع إخوانك ومَنْ سارَ علىٰ نَهْجِك فِي دعوةِ الناسِ وإرشادِهم بالطُّرُقِ اللَّيِّنةِ فِي الْمُجتمعاتِ الَّتِي يُمكن حضورُها، حتَّىٰ يَثْبُت هذا الإِيْمَانُ فِي القلوبِ، وحتَّىٰ ينتشر بين الناس بأدلته الواضحة.

وفِي الْمُجتمعِ الإسلامي ووجودِ القائدِ الإسلاميِّ الذي يُعِينُكَ، يكون لك نشاطٌ أكثرُ فِي الأمر بالْمَعروف والنَّهْي عن الْمُنكر، والاتصالِ بالْمَسئولين عند وجود الْمُعاندين، والذين يُخشىٰ من عنادهم الْخَطرُ علىٰ الْمُجتمع، وتكون مع ذلك سالكًا الْمَسلكَ القَوِيمَ بالرِّفْقِ والْحِكمةِ والصَّبْرِ.

كما قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

فلا بُدَّ من صَبْرٍ وتواصٍ بالْحَقِّ، ودعوةٍ إليه؛ حتَّىٰ تَنْجَحَ فِي مُهمَّتِكَ، وكذلك الْمَسئولون والكبارُ الذين يُخشىٰ من شرِّهم علىٰ الدَّعوة، يُنصَحُون بالأسلوبِ الْحَسَنِ، ويُوَجَّهُون، ويُدْعَون بالكتابةِ، والْمُشافهةِ من أعيان الأمَّةِ، ورجالِها، وقادتِها، وأمرائها، كما قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩]. الآية.

وكما قال سبحانه لِموسىٰ وهارون -عليهما الصلاة والسلام- لَمَّا بَعَثَهُما إِلَىٰ فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه:٤٤].

فالواجبُ علىٰ الْمُصْلِحِين والدُّعَاةِ: أن يَسْلكوا هذا السَّبِيلَ، وأن يعالِجوا مشكلاتِ الْمُجتمعِ بالْحِكمة والْمَوعظة الْحَسنة، وأن يُخاطبوا كلَّ إنسانٍ بِما يَلِيقُ به؛ حتَّىٰ يَنْجَحوا فِي مُهِمَّتِهم، ويصلوا إِلَىٰ غايَتِهم.

وعلىٰ الداعي أيضًا إِلَىٰ الله سبحانه والرَّاغب فِي الإصلاح أن يراعي عامِلَيْنِ آخَرَيْنِ سوىٰ العاملين السابقين، وهُمَا: عاملُ التناصح، والتواصي بالْحَقِّ، مع إخوانه، وزملائه، ومع أعيان الْمُجتمع، وقادته.

وعامِلُ الصَّبْرِ علىٰ ما قد يقع من الأذىٰ من الأعيان أو غيرِهم؛ عملاً بِما دَلَّتْ عليه السورةُ السابقةُ، وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر].

وتَأَسِّيًا بالرُّسُلِ الكرام -عليهم الصلاة والسلام- كما قال الله عز وجل لنبيِّه مُحمَّد ﷺ فِي آخر سورة الأحقاف، وهي مكية: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥] الآية، وقال سبحانه فِي سورة آل عمران وهي مدنية: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ



وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

وقال فيها سبحانه لَمَّا نَهىٰ عن اتِّخاذ البِطانةِ من الْمُشركين: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال سبحانه فِي آخر سورة النَّحْل وهي مكيَّةٌ أيضًا: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨]، والآيات فِي هذا الْمَعنىٰ كثيرة.

وكُلُّ مَنْ سلك مَسلك الرُّسل من الدعاة والْمُصلحين:

- نَجح فِي دعوتِه وفاز بالعاقبة الْحَميدة.
- والنصر علىٰ الأعداء.

ومن سَبَرَ ذلك ودرس أخبار الْمُصلحين وسيرتَهم عَلِمَ ذلك وتَحقَّقَه.

فأسأل اللهَ بأسْمَائه الْحُسنىٰ، وصفاته العلا:

أن يصلح أحوالَ الْمُسلمين.

ويَمْنَحَهم الفقه فِي الدِّين.

وأن يوفِّقَ قادتَهُم لكل خير، ويصلح لَهم البِطانة.

وأن يُعيذَ الْمُسلمين جَميعًا فِي كل مكان من مضلَّاتِ الفِتَنِ، ومن طاعةِ الْهَوىٰ والشيطان.

إنه ولِيُّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبيِّنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه



(١٢) موقفُ المؤمنِ مِنْ الفِتَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لله ربِّ العالَمين، والعاقبةُ للمُتَّقين، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ مُحمَّدٍ عبده ورسوله، وعلىٰ أزواجِهِ وذُرِّيتِهِ، وجَميع أصحابِهِ، ومَنْ سار علىٰ نَهْجِهِ إلَىٰ يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فإنِّي أشكرُ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما مَنَّ به فِي هذا اللِّقاء لإخوةٍ فِي الله كرامٍ، وأبناءٍ أعزَّاء، وأسأله -جلَّ وعلا- أن يَجعلَه لقاءً مبارَكًا، وأن يَنْفَعَنَا جَميعًا بِما عَلَّمنا، وأَنْ يُصْلِحَ قُلوبَنا وأَعْمالَنا، وأَنْ يُعِيذَنا من شُرور أنفسنا وسَيِّئات أعمالنا، وأَنْ يَنْصُرَ دِينَه، وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ، وأن يُصْلح أحوالَ الْمُسلمين جَميعًا فِي كلِّ مكانٍ، وأَنْ يُولِّي عليهم خيارَهم، ويُعِيذَهم من شرارِهم؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

ثُمَّ أشكر القائمين علىٰ جامعةِ الإمامِ مُحمَّدِ بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ دعوتِهم لِهذا اللِّقاء، وأسأله سبحانه أن يضاعفَ مَثُوبَتَهم، وأَنْ يُوفِّقَنا جَميعًا لكلِّ ما فيه صلاحُ دينِنا ودنيانا، ولكلِّ ما فيه صلاحُ الأُمَّةِ جَميعًا؛ إنَّه -جلَّ وعلا- جوادٌ كريمٌ.

ثُمَّ أيُّها الإخوةُ فِي اللهِ، أيُّها الأبناءُ:



عنوان الكلمة:

موقفُ المؤمنِ منَ الفِتَنِ

الفِتَنُ -نعوذ بالله من شرِّها- بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ خطَرَها، وشرح ما يَجب حولَها، عليه مِنْ رَبِّه الصَّلاةُ والتَّسليمُ.

ما الفِتْنَةُ؟

الفِتْنَةُ كلمةٌ مشتركةٌ تقع علىٰ معانٍ كثيرةٍ: تقع علىٰ الشِّرْك، وهو أعظمُ الفِتَنِ.

كما قال الله تعالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال:٣٩].

أي: حتَّىٰ لا يكون شركٌ.

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة:٢١٧].

وَتَقَعُ الفتنةُ أيضًا علىٰ التَّعْذيبِ والتَّحْريقِ، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات:١٤].

وقال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج:١٠].

والمُراد هنا: العذابُ والتَّحريق. فَتَنُوهم: يعنِي: عَذَّبُوهم.

وتُطْلَقُ الفتنةُ أيضًا علىٰ الاختبار والامتحان، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَنَبْلُوكُم

بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:٣٥]. يعنِي: اختبارًا وامتحانًا.

وقال جلَّ وعلا:﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن:١٥]. يعنِي: اختبارًا وامتحانًا؛ حتَّىٰ يَتبيَّن مَنْ يستعين بالأموال والأولاد فِي طاعة الله، ومَنْ يقوم بِحقِّ الله، ويَتجنَّب مَحارم الله، ويقف عند حُدُودِ الله، مِمَّن ينحرف عن ذلك ويَتَّبع هواه.

وتقع أيضًا علىٰ الْمَصائبِ والعقوباتِ، كما قال الله تعالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥]. يعنِي: بل تعمُّ.

جاء عن الزُّبير بن العَوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجَماعةٍ من السَّلَف فِي هذه الفتنة أنَّهم قالوا: «ما كنَّا نظنُّ أنَّها فينا حتَّىٰ وقعتْ»(١)، وكانت بسببِ مقتل عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فإنَّ قومًا جَهلةً وظَلَمةً وفيهم مَنْ هو مُتأوِّلٌ خَفِيَ عليه الْحَقُّ، واشْتبَهتْ عليه الأمورُ، فتابَعَهم حتَّىٰ قتلوا عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالشُّبَهِ الباطلةِ، والتَّأويلاتِ الفاسدةِ.

ثُمَّ عَمَّتْ هذه الفتنةُ وَعَظُمَتْ، وأصابتْ قومًا ليس لَهُمْ بِها صلةٌ، وليسوا فِي زُمْرة الظَّالِمين، وجرىٰ بسببها ما جرىٰ بَيْنَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعاويةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وما حَصَلَ يومَ الْجَملِ ويوم صِفِّين، كلُّها بأسبابِ الفِتْنَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بِسَبَبِ ما فَعَله جَماعةٌ من الظَّلَمة بعُثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فقام قومٌ وعلىٰ رأسهم معاويةُ بالْمُطالبةِ بِدَمِ القَتِيلِ عُثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وطَلَبُوا من عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقَدْ بايعه الْمُسلمون خليفةً رابعًا، خليفةً راشدًا- تسليمَهم القَتلَة، وعليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخبرهم أنَّ الْمَقام لا يتمكَّن معه من تسليم القَتلَة، ووعدهم خيرًا، وأنَّ النَّظر فِي هذا الأمر سيتمُّ بعد ذلك، وأنَّه لا يتمكَّن مِن قَتْلِهم الآن.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٧).

وجرىٰ من الفتنةِ والْحَرب يوم الْجَمل ويوم صِفِّين ما هو معلومٌ، حتَّىٰ قال جَمعٌ من السَّلَف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ الآية الْمَذكورة نزلت فِي ذلك.

وهذه أوَّل فتنةٍ وَقَعتْ بَيْن الْمُسلمين بعد موت نَبِيِّهم ﷺ، فأصابت جَمًّا غفيرًا من الصَّحابة وغير الصَّحابة، وقتل فيها عَمار بن ياسر، وطلحة بن عبيد الله -وهو من العشرة الْمُبشَّرين بالْجَنَّة- والزُّبير -وهو من العشرة أيضًا- وقُتِل فيها جَمعٌ غفيرٌ من الصَّحابة وغيرهم فِي الْجَمل وفِي صِفِّين بأسباب هذه الفتنة.

وتقع الفتنة أيضًا بأسباب الشُّبُهات والشَّهوات، فكَمْ من فتنٍ وَقَعتْ لكثيرٍ من النَّاس بشُبُهاتٍ لا أساسَ لَهَا، كما جرىٰ للجَهْمِيَّة والْمُعتزلة والشِّيعة والْمُرجئة، وغيرهم من طوائف أهل البدع، فُتِنُوا بشُبُهَاتٍ أَضَلَّتْهُم عَنِ السَّبِيلِ، وخرجوا عن طريقِ أهلِ السُّنَّةِ والْجَماعةِ بأسبابِها، وصارت فتنةً لَهم ولغيرهم، إلَّا مَنْ رَحِمَ الله.

وطريقُ النَّجاةِ من صُنُوفِ الفِتَنِ هو التَّمَسُّكُ بِكِتَابِ اللهِ وَبِسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

كما روي ذلك عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قال: «**تكون فِتَنٌ**»، قيل: ما الْمَخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَفَصْلُ مَا بَيْنَكُمْ...**». الْحَديث[1].

والْمَقصود: أنَّ الفِتَنَ (فِتَنَ الشَّهَوَاتِ والشُّبُهَات والقتال، وفِتَنَ البِدَعِ، كُلَّ أنواعِ الفِتَنِ) كثيرةٌ، ولا سبيلَ إلَىٰ التَّخلُّص منها، والنَّجاة من شَرِّها، إلَّا بالتَّفَقُّهِ فِي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ومعرفةِ مَنْهَجِ سَلَفِ الأُمَّةِ من الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومَنْ سَلَكَ سَبِيلَهم مِنْ أَئِمَّةِ الإسلامِ ودُعَاةِ الْهُدَىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦١٩٠).

وجَميعُ ما يقولُ النَّاسُ، وما يَتشَبَّثُ به النَّاسُ، وما يَتعَلَّقُ به النَّاسُ، فِي سِلْمِهم وحَرْبِهم، وفِي جَميعِ أُمُورهم يَجبُ أن يُعْرَضَ علىٰ كتابِ اللهِ، وَعَلَىٰ سُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

قال -جلَّ وَعَلا- فِي كتابِهِ الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء:٥٩].

يعنِي: أحسن عاقبةً، هذا هو الطَّريق، وهذا هو السَّبيل.

فالرَّدُّ إلَىٰ كتاب الله هو: الرَّدُّ إلَىٰ القرآن الكَريم.

والرَّدُّ إلَىٰ الرَّسول هو: الرَّدُّ إليه فِي حياتِهِ ﷺ، وإلَىٰ سُنَّته الصَّحيحةِ بَعْدَ وفاتِهِ ﷺ.

وهكذا يقول جلَّ وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء:٦٥].

وتَحْكيمُ الرَّسول هو تَحْكيمُ الكتابِ والسُّنَّةِ، قَالَ تعالَىٰ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة:٥٠].

فما عدا حكم الله فهو من حكم الْجَاهليَّة.

قال جلَّ وعلا: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾ [المائدة:٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧].

فالْمُخَلِّصُ مِنَ الفِتَنِ والمُنجِي منها بتوفيق الله: هو تَحكيمُ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وذلك بالرُّجُوعِ إِلَىٰ أهلِ السُّنَّةِ وعلماءِ السُّنَّةِ الَّذين حَصَلَ لَهم الفِقْهُ فِي كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والفِقْهُ فِي سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، ودَرَسُوهُما غايةَ الدِّراسة، وعرفوا أحكامهما، وساروا عليهما.

فجميعُ الأُمَّةِ (من إنسٍ ومن جنٍّ، وعجمٍ وعربٍ، ومن رجالٍ ونساءٍ) يَجِبُ عَلَيْهم أن يَحْكموا بكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

وأَنْ يَسِيروا علىٰ نَهْجِ سَلَفِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأتباعهم بإحسانٍ، فِي السِّلْمِ والْحَرب، فِي العباداتِ والْمُعاملاتِ، وفِي جَميع ما افترق فيه النَّاس، فِي أَسْمَاءِ الله وصفاتِهِ، فِي أمر البعثِ والنُّشورِ، فِي الْجَنَّةِ والنَّارِ، وفِي كلِّ شيءٍ.

ومن ذلك الْحُرُوبُ الَّتِي يُثِيرُهَا بعضُ النَّاسِ، يَجب أن يُحَكَّمَ فيها شرعُ الله، وهكذا الإعدادُ للحرب، ومَنْ يُسْتعانُ به فِي الْحَرب، ومَنْ لا يُسْتعان به، كلُّه يَجِبُ أن يُعْرَضَ علىٰ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

ومن ذلك ما وَقَع فِي هذا العام فِي الْحَادي عشر من الْمُحرَّم من فتنة حاكم العراق -عَامَله الله بِمَا يستحقُّ- فِي عدوانِهِ علىٰ دولة الكويت، واجتياحِهِ لَهَا، وما حصل من تَهديدِهِ لِهَذه البلاد ودول الْخَليج، هذه من الفتَن أيضًا الَّتِي يَجب أن يُحكَّم فيها كتابُ الله وسُنَّة رسولِهِ ﷺ.

ولا رَيْبَ عند أهلِ العلمِ والإيمانِ أنَّ هذا الرَّجلَ الفاجرَ قَدْ أَتَىٰ منكرًا وإثْمًا عظيمًا، وعدوانًا سافرًا لا مُبرِّر له.

ولَوْ كان من دُعَاةِ الإسلامِ ومُحكِّمي الشَّريعة، لَمْ يَجُزْ له أن يَغْزُوَ طائفةً مِنَ

النَّاسِ -لا الكويت ولا غيرها- إِلَّا بعدَ الدَّعوةِ، وبَعْدَ النَّظَرِ فِي الشُّبَهِ الَّتِي يدَّعِيها عَلَيْهم، ومَدَىٰ تَحْكِيمِهِ لِشَرْعِ اللهِ فِي ذلك.

أمَّا أن يَغْزُوَ بلادًا آمنةً، وَيَقْتُلَ وَيَنْهَبَ وَيَسْبِي، ولا يُبَالِي، فذلك منكرٌ عظيمٌ، وعدوانٌ أثيمٌ، لا يُقْدِم عليه مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر، ثُمَّ بعد ذلك يلبس لباسَ الإسلام وينافق، ويدَّعي أنَّه يطلب الْجِهادَ، وأنَّه يَحمي الْحَرمين، وهذا من النِّفاقِ والكُفْرِ البَوَاحِ والتَّلْبِيسِ.

ومعلومٌ أنَّ حزبَ البعثِ والشُّيوعيَّة وجَميع النِّحَلِ الْمُلحدةِ الْمُنابِذَةِ للإسلام -كالعلمانيَّة وغيرها- كلُّها ضدُّ الإسلام، وأهلُها أَكْفَرُ من اليهود والنَّصَارىٰ؛ لأنَّ اليهود والنَّصَارىٰ تُباح ذبائحهم، ويُباح طعامهم، ونساؤهم الْمُحصنات، والْمَلاحدة لا يَحلُّ طعامُهم ولا نساؤهم، وهكذا عُبَّاد الأوثان من جِنْسهم، لا تُبَاح نساؤهم، ولا يُبَاحُ طعامُهم.

فكلُّ مُلْحِدٍ لا يؤمن بالإسلام هو شرٌّ من اليهود والنَّصَارىٰ، فالبَعثيُّون والعَلمانيُّون الَّذين يَنْبِذُون الإسلامَ وراءَ الظَّهْر، ويريدون غير الإسلام، وهكذا مَنْ يُسَمَّون بـ: «الشُّيوعيِّين»، ويُسمَّون بـ: «الاشتراكيِّين» كلُّ النِّحَلِ الْمُلْحدةِ الَّتِي لا تؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، يكون كفرُهُم وشرُّهم أَكْفَرُ من اليهود والنَّصَارىٰ.

وهكذا عُبَّادُ الأوثان، وعُبَّادُ القُبُورِ، وعُبَّادُ الأشجارِ والأحجارِ أَكْفَرُ من اليهودِ والنَّصَارىٰ، ولِهذا مَيَّزَ اللهُ أَحْكامَهم وإن اجتمعوا فِي الكُفْرِ والضَّلالِ، ومَصيرُهم النَّارُ جَميعًا، لكنَّهم مُتفاوتون فِي الكُفرِ والضَّلالِ، وإِنْ جَمَعَهُمُ الكُفْرُ والضَّلَالُ فمَصِيرُهُمْ إِلَىٰ النَّارِ إذا ماتوا علىٰ ذلك.

لَكنَّهم أقسامٌ متفاوتون: فإذا أراد البَعْثِيُّ أن يدَّعِيَ الإسلامَ، فَلْيَنْبِذِ البَعْثِيَّةَ، أو الاشتراكيَّة والشُّيوعيَّة، ويتبرَّأ منها، ويتوب إِلَىٰ الله من كلِّ ما يُخالف الإسلام؛ حتَّىٰ يُعْلَمَ صِدْقُهُ.

ثُمَّ إذا كان هذا العدوُّ الفاجرُ الْخَبيثُ صدامُ حسين حاكمُ العراق، إذا أراد أن يُسْلِمَ وَيَتوبَ، فلينْبذ ما هو عليه من البعثيَّة، ويتبرَّأ منها، ويُعْلن الإسلام، ويرد البلادَ إِلَىٰ أهلها، ويرد الْمَظالِم إِلَىٰ أَهْلها، وَيَتُبْ إِلَىٰ الله من ذلك، ويُعْلن ذلك، ويَسْحب جَيْشَه من الكويت، ويُعْلن توبته إِلَىٰ الله، ويُحكِّم الشَّريعة فِي بلاده؛ حتَّىٰ يَعْلَمَ النَّاسُ صِدْقَه.

والْمَقصودُ: أنَّ جِهَادَه مِنْ أهمِّ الْجِهاد، وهو جِهادٌ لعدوٍّ مبينٍ؛ حتَّىٰ يُنْتَقَمَ منه، وتُرَدَّ الْحُقوق إِلَىٰ أهلها، وحتَّىٰ تَهدأ هذه الفتنةُ الَّتِي أثارها وبَعَثَها، وسَبَّب قيامَها، فجهادُهُ من الدُّولِ الإسلاميَّة مُتعيَّنٌ.

وهذه الدَّولةُ الإسلاميَّةُ (الْمَملكةُ العربيَّةُ السّعوديَّةُ) ومَنْ سَاعَدها، جِهَادُهُم له جهادٌ شرعيٌّ، والْمُجاهدُ فيها يُرْجىٰ له -إذا صلحت نِيَّته- الشَّهادةُ إِنْ قُتِلَ، والأجرُ العظيمُ إِنْ سَلِمَ إذا كان مسلمًا.

أمَّا ما يَتعلَّق بالاستعانة بغير الْمُسلمين، فهذا حكمُهُ معروفٌ عند أهل العلم، والأدلَّة فيه كثيرةٌ.

والصَّواب: ما تضمَّنه قرارُ هيئةِ كبارِ العلماء فِي الْمَملكة العربيَّة السّعوديَّة: أنَّه يَجوز الاستعانةُ بغيرِ الْمُسلمين للضَّرورة إذا دَعَتْ إِلَىٰ ذلك؛ لردِّ العدوِّ الغاشم، والقضاءِ عليه، وحِمَايةِ البلادِ من شرِّه، إذا كانت القوَّة الْمُسلمة لا تكفي لرَدْعه، جازَ الاستعانةُ بِمَنْ يظنُّ فيهم أنَّهم يعينون ويساعدون علىٰ كفِّ

شرِّه، ورَدْع عدوانه، سواء كان الْمُستعان به يَهوديًّا، أو نصرانيًّا، أو وثنيًّا، أو غير ذلك، إذا رأت الدَّولةُ الإسلاميَّةُ أنَّ عنده نَجدةً ومساعدةً لصدِّ عدوان العدوِّ الْمُشترك.

وقَدْ وَقَعَ من النَّبيِّ ﷺ هذا وهذا، فِي مكَّة استعان بالْمُطعم بن عدي لَمَّا رجع من الطَّائف، وخاف من أهل مكَّة بعد موت عَمِّه أبي طالبٍ، فاستجار بغيره، فلَمْ يَسْتجيبوا، فاستجار بالْمُطعم -وهو من كبارهم فِي الكفر- وحَماه لَمَّا دعت الضَّرورة إلَىٰ ذلك.

وكان يَعْرض نفسه ﷺ علىٰ المشركين فِي منازِلهم فِي منًىٰ يطلب منهم أن يُجيروه حتَّىٰ يُبلِّغ رسالةَ ربِّه ﷺ علىٰ تَنوُّع كُفْرهم، واستعان بعبد الله بن أُرَيْقِط فِي سفرِهِ وهجرتِهِ إلَىٰ الْمَدينة - وهو كافر- لَمَّا عرف أنَّه صالِحٌ لِهذا الشَّيء، وأَنْ لا خطرَ منه فِي الدِّلالة، وقال يومَ بدرٍ: «**لا أَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»(١)، ولَمْ يَقُلْ: لا تَسْتَعينوا، بل قال: «**لا أَسْتَعِين**».

لأنَّه ذلك الوقتَ غيرُ مُحتاجٍ لَهم، والْحَمد لله، معه جَماعةٌ مسلمون، وكان ذلك من أسباب هداية الَّذي ردَّه حتَّىٰ أسلم.

وفِي الفتح استعان بدُرُوعٍ من صفوان بن أُميَّة -وكان علىٰ دين قومه- فقال: أغصبًا يا مُحمَّد؟ فقال: «**لا، وَلَكِنْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ**»(٢).

وَاسْتَعان باليهود فِي خَيْبَر لَمَّا شُغِلَ الْمُسلمون عن الْحَرث بالْجِهاد، وتعاقد

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١٧) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٦٢)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٠) (١٥٣٣٧) من حديث صفوان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني فِي «الصحيحة» (٦٣٠، ٦٣١).

معهم علىٰ النِّصْف فِي خَيْبَر، حتَّىٰ يقوموا علىٰ نَخيلها وزُرُوعها بالنِّصف للمسلمين، والنِّصف لَهم -وهم يَهود- لَمَّا رأىٰ الْمَصلحة فِي ذلك، فَاسْتَعان بِهم لذلك، وأَقرَّهم فِي خيبر، حتَّىٰ تَفرَّغ الْمُسلمون لأموالِهم فِي خيبر فِي عهد عمر، فأَجْلَاهُمْ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثُمَّ القاعدة الْمَعروفة: يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام:١١٩].

والْمُسلمون إذا اضطرُّوا لعدوٍّ شرُّه دونَ العدوِّ الآخرِ، وأَمْكَن الاستعانةُ به علىٰ عدوٍّ آخر أشرَّ منه، فلا بأس.

ومعلومٌ أنَّ الْمَلاحدةَ مِنَ البَعْثيِّين وأشباههم أشرُّ من اليهود والنَّصارىٰ.

والْمَلاحدة كلُّهم أشرُّ من أهل الكتاب، وشرُّهم معروفٌ، فالاستعانةُ العارضةُ بطوائفَ من الْمُشركين لصدِّ عدوان العدوِّ الأشرِّ والأخبث، لدفع عدوانِهِ، والقضاء عليه، وحِماية الْمُسلمين من شرِّه؛ أمرٌ جائزٌ شرعًا حسب الأدلَّة والقواعد الشَّرعيَّة.

أمَّا ما جَاءَ عن النَّبيِّ ﷺ فِي الفِتَن والقُعُود عنها، فمعروفٌ عند أهل العلم، وتفصيلُ ذلك فيما يَلِي:

يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّها سَتكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِم، وَالقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، والْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ يَسْتَشْرِفُ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَعُوذَ بِمَلْجَإٍ أَوْ مَعَاذٍ فَلْيَفْعَلْ**». أخرجه البخاريُّ فِي «صحيحه» (١).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبِي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهذه الفِتَنُ هي الفِتَنُ الَّتِي لا يَظْهَرُ وَجْهُها، ولا يُعْلَمُ طريقُ الْحَقِّ فيها، بل هي مُلْتَبِسَةٌ، فهذه يَجْتَنبها الْمُؤمنُ، ويَبْتعد عنها بأيِّ ملجأ.

ومن هذا الباب: قوله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**»، أخرجه البخاريُّ فِي الصَّحيح(١).

ومن هذا: قوله ﷺ لَمَّا سئل: أيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قال: «**مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ**». قيل: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**»(٢).

والْمَقصودُ: أنَّ هذا عندَ خَفَاءِ الأمورِ، وعلى الْمُؤمنِ أن يَجْتَنِبَهَا، أمَّا إذَا ظَهَر لَهُ الظَّالِمُ مِنَ الْمَظْلومِ، والْمُبْطِلُ مِنَ الْمُحِقِّ، فالواجبُ أن يكون مع الْحَقِّ، ومع الْمَظلوم ضدَّ الظَّالِم، وضدَّ الْمُبطل؛ كما قال ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**». قيل: يا رسولَ الله، كيف أنصره ظالِمًا؟ قال: «**تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ، فَذَلِكَ نَصْرُهُ**»(٣). أي: مَنْعُهُ مِنَ الظُّلْمِ هو النَّصْرُ.

ولَمَّا وَقَعتِ الفِتْنَةُ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم اشْتَبَهَتْ على بَعْضِ النَّاس، وتأَخَّر عن الْمُشاركة فيها بعضُ الصَّحَابة من أَجْلِ أحاديثِ الفِتَنِ؛ كسعد ابن أَبِي وَقَّاصٍ، ومُحمَّد بن مسلمة، وجَماعةٍ رضي الله عنهم.

ولكن فقهاء الصَّحابة الَّذين كان لَهم من العلم ما هو أكمل، قَاتَلوا مع عليٍّ؛

(١) أخرجه البخاري (١٩) من حديث أَبِي سعيد الْخُدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨) من حديث أَبِي سعيد الْخُدري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

لأنَّه أَوْلَىٰ الطَّائفتين بالْحَقِّ، ونَاصَروه ضدَّ الْخَوارج، وضدَّ البُغَاة الَّذين هُمْ من أهل الشَّام، لَمَّا عرفوا الْحَقَّ، وأنَّ عليًّا مظلومٌ، وأنَّ الواجب أن ينصر، وأنَّه هو الإمام الَّذي يَجب أن يُتَّبع، وأنَّ معاويةَ ومَنْ معه بَغَوْا عليه بشُبْهة الْمُطالبَة بقَتَلةِ عُثمان.

والله -جلَّ وعلا- يقول فِي كتابِهِ العظيم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى ﴿٩﴾﴾ [الحجرات:٩].

ما قال: فاعتزلوا، قال: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات:٩].

فإذا عُرِفَ الظَّالِم وَجَبَ أن يُسَاعَدَ الْمَظلومُ؛ لقوله سبحانه: ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات:٩].

والباغون في عهد الصَّحابة: معاوية وأصحابه، والْمَبْغيُّ عليهم: عليٌّ وأصحابُهُ، فبهذا نَصَرهم أعيانُ الصَّحابة، نَصَروا عليًّا وصاروا معه، كما هو معلومٌ.

وقال فِي هذا الْمَعنَىٰ ﷺ فِي الْحَديث الصَّحيح فِي قصَّة الْخَوارج: «**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عَلَىٰ حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، تَقْتُلُهُمْ أَوْلَىٰ الطَّائِفتَيْنِ بِالْحَقِّ**»(١).

فَقَتَلَهُمْ عَلِيٌّ وَأَصْحابه، فاتَّضح بذلك أنَّهم أَوْلَىٰ الطَّائِفتَيْن بالْحَقِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٥) من حديث أبِي سعيد الْخُدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال ﷺ في أمر عمَّارٍ: «تَقْتُلُ عَمَّارًا الفِئَةُ البَاغِيَةُ»(١). فقتَلَه معاويةُ وأصحابُهُ فِي وَقْعة صِفِّين.

فمعاويةُ وأصحابُهُ بغاةٌ، لكن مُجتهدون، ظنُّوا أنَّهم مُصيبون فِي الْمُطالبة بدم عثمان، كما ظنَّ طلحةُ والزُّبيرُ يوم الْجَمل، ومعهم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لكن لَمْ يصيبوا، فلهم أجر الاجتهاد، وفَاتَهم أجرُ الصَّواب، وعليٌّ له أجرُ الاجتهاد وأجرُ الصَّواب جَميعًا.

وهذه هي القاعدةُ الشَّرعيَّة فِي حقِّ الْمُجتهدين من أهل العلم: أنَّ مَنِ اجتهد فِي طَلَبِ الحَقِّ، ونَظَر فِي أدلَّته من قاضٍ أو مصلحٍ أو مُحاربٍ، فله أجران إنْ أصاب الْحَقَّ، وأجرٌ واحدٌ إنْ أخطأ الْحَقَّ (أجر الاجتهاد)، كما قال ﷺ: «**إذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»، متفقٌ علىٰ صحَّته(٢).

فكلُّ فتنةٍ تقع علىٰ يدِ أيِّ إنسانٍ من الْمُسلمين، أو من الْمُبْتدعة، أو من الكفار، يُنْظَرُ فيها، فيكون الْمُؤمنُ مع الْمُحقِّ، ومع الْمَظْلوم ضدَّ الظَّالِم، وضدَّ الْمُبْطِلِ، وبِهَذَا يُنْصَرُ الْحَقُّ، وتَسْتقيم أُمُور الْمُسْلمين، وبذلك يَرْتدع الظَّالِم عن ظُلْمه، ويَعْلم طالبُ الْحَقِّ أنَّ الواجب: التَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ، وعدم التَّعاون علىٰ الإثْم والعُدْوان؛ عملاً بقول الله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۝٢﴾ [المائدة:٢].

فقتالُ الباغي، وقتالُ الكافر الَّذي قام ضدَّ الْمُسلمين، وقتالُ مَنْ يَتعدَّىٰ علىٰ الْمُسلمين لظُلْمه وكُفْره- حقٌّ وبرٌّ ونصرٌ للمظلوم، ورَدْعٌ للظَّالِم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩١٦) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقتالُ الْمُسلمين لصَدَّام وأشباهِهِ من البرِّ، ومن الْهُدىٰ، ويَجب أن يَبْذلوا كلَّ ما يَسْتطيعونه فِي قتالِهِ، وأَنْ يَسْتعينوا بأيِّ جهةٍ يرون أنَّها تنفع وتُعِين فِي رَدْع الظَّالِم، وكَبْح جِماحه، والقضاء عليه، وتَخْليص الْمُسلمين من شرِّه.

ولا يَجوز للمسلمين أيضًا أن يَتخلَّوْا عن الْمَظْلومين ويَدَعوهم للظَّالِم يلعب بِهم بأيِّ وجهٍ من الوجوه، بل يَجب أن يُرْدع الظَّالِم، وأن يُنصَر الْمَظْلوم فِي القليل والكثير.

فالواجبُ علىٰ جَميع الْمُسلمين أن يَتفقَّهوا فِي الدِّين، وأَنْ يَكُونوا علىٰ بصيرةٍ فيما يأتون وفيما يَذَرُون، وأن يُحكِّموا كتابَ الله العظيم، وسُنَّة نَبيِّه الكريم فِي كلِّ شيءٍ، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الشورىٰ:١٠] الآية، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩]. الآية.

وعليهم أن يدرسوا الكتاب والسُّنَّةَ دراسةَ الطالبِ للحقِّ، الْمُريد وَجْهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، الَّذي يريدُ أن يُنفِّذَ حُكْمَ اللهِ فِي عبادِ اللهِ، وأن يَحذروا الْهَوىٰ، فإنَّ الْهَوىٰ يَهوي بأهله إلَىٰ النَّار.

قال تعالَىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦].

وقال جلَّ وعلا: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص:٥٠].

فماذا يظنُّ العاقل ذو البصيرة لو أنَّ صَدَّامًا تُرك له الْمَجالُ فعاثَ فِي الْجَزيرةِ فسادًا، وساعده مَنْ مَالأه علىٰ الْمُساعدة من الْجَنوب والشَّمَال علىٰ باطله؟ ما يَترتَّب علىٰ ذلك من الكوارث العظيمة، والفساد الكبير، والشرِّ

الكثير، لو تَمكَّن من تنفيذ خُططِه الْخَبيثة؟!

ولكن مِنْ نصرِ الله -جلَّ وعلا- ورحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وإحسانِه أن تَنَبَّه وُلَاةُ الأمور فِي الْمَملكة العربيَّة السّعوديَّة لِخُبْثِهِ وشرِّه، وما انْطَوىٰ عليه من الباطل، وما أَسَّسه من الشَّرِّ والفساد، فاستعانوا بالقوات الْمُتعدِّدة الْجِنسيات علىٰ حربه، والدِّفاع عن الدِّين والبلاد، حتَّىٰ أبطل الله كيده، وصدَّه عن نَيْل ما أراد.

ونسأل الله أن يُحسن العاقبة للمسلمين، وأن يكفينا شرَّه وشرَّ غيره، وأن ينصر جيوشنا الإسلاميَّة ومَنْ ساعدهم علىٰ حاكم العراق؛ حتَّىٰ يرجع عن ظلمه، ويسحب جيشه من الكويت، ويوقف عند حدِّه.

كما نسأله سبحانه أن يُوفِّق جيوشنا جَميعًا للفقه فِي الدِّين، وأن يكفينا شرَّ ذنوبنا، وشرَّ تقصيرنا، وأن يكفينا شرَّ جَميع الكَفَرة من جَميع الأجناس، وأن يردَّهم إِلَىٰ بلادهم ونَحن سالِمون من شرِّهم، وأن يهدي منهم مَنْ سبقت له السَّعادة إِلَىٰ الإسلام، وأن ينقذهم مِمَّا هم فيه من الكفر.

نسأل الله أن يَهديهم جَميعًا، وأن يردَّهم إِلَىٰ الْحَقِّ والْهُدىٰ، وأن يكفينا شرَّهم جَميعًا من بَعثيِّين ونصارىٰ وغيرهم.

نسأل الله أن يَهْديهم للإسلام، ويكفينا شرَّهم، وَيُبْعِدَ مَنْ بَقِيَ علىٰ الكفرِ مِنْهم إِلَىٰ بلاده، بعد سلامة الْمُسلمين، وبعد القضاء علىٰ عدوِّ الله حاكمِ العراقِ وجيشه الْمُساعد له، وأن يَختار للعراق رجلًا صالِحًا يُحكِّم فيهم شرع الله.

كما نسأله أن يولِّي علىٰ جَميع الْمُسلمين مَنْ يُحكِّم فيهم شرع الله، ويقودهم بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّة رسوله ﷺ.

وأن يكفي الْمُسلمين شرَّ ولاتِهم الَّذين يُخالفون شرع الله، وأن يصلح وُلَاة الْمُسلمين وقادتهم، ويهديهم صراطه الْمُستقيم.

وأَنْ يولِّي علىٰ الْمُسلمين جَميعًا فِي كلِّ مكانٍ خيارَهم، وأن يصلح أحوالَهم فِي كلِّ مكانٍ، وأن يكفينا شرَّ ذنوبنا جَميعًا، وأن يَمنَّ علينا بالتَّوبة النَّصوح.

وأنْ يَجعل ما نزل بالكويت وما حصل من الْمِحنة العظيمة والفتنة الكبيرة هذه الأيَّام موعظةً للجميع، وسببًا لِهداية الْجَميع وَيَقَظَتِهم.

وأن يُوفِّق حكومَتنا لكلِّ خيرٍ، وأن يُعِينَها علىٰ طاعةِ الله ورسوله، وعلىٰ إعدادِ الْجَيش الكافِي الَّذي يُغْنِيها عن جَميع أعداءِ الله.

ونسأل اللهَ أن يَهدي جيرانَنَا جَميعًا للتَّمسُّك بكتابِ الله، وأن يَجْمَعَهم علىٰ الْحَقِّ والْهُدىٰ.

وأن يُعِينَهم علىٰ طاعةِ اللهِ ورسولِه.

وأن يُعِيذهم مِمَّن بينَهم من الأعداء والْمُنافقين الْمُحاربين لله ورسوله، الَّذين يَدْعُون إلَىٰ ضدِّ كتابِ اللهِ، وإلَىٰ ضدِّ سُنَّةِ رسولِه ﷺ.

نسأل الله أن يُبْطِلَ كَيْدَ أعداءِ الله، ويُفرِّق شَمْلَهم، ويُوفِّقَ دُعاةَ الْحَقِّ لِمَا فيه رضاه.

وأن يُصْلِحَ أحوالَ الْمُسلمين جَميعًا فِي كلِّ مكانٍ، وأن يَجمع كلمتَنا جَميعًا -معشر الْمُسلمين- علىٰ الْحَقِّ والْهُدىٰ أينما كنَّا.

وأن يكفينا شرَّ أعدائنا أينما كانوا، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسانٍ



(١٤) حوارٌ حولَ مسائل إيمانية مُلِحَّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمة

الْحَمدُ لله، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ رسولْ الله، وعلىٰ آله، وأصحابه، ومَنِ اهتدىٰ بِهداه، **أمَّا بعد:**

فأقول: السَّلام عليكم أيُّها الإخوة جَميعًا، ورَحْمَة الله، وبركاته.

اللَّهمَّ إنِّي أسألك التَّوفيق لِمَا يُرْضيك، والعافية من مُضلَّات الفِتَن، كما أسأله سبحانه، أن يُوفِّق جَميعَ الحاضرين والمستمعين لكلِّ ما فيه رضاه، ولكلِّ ما فيه صلاحُ أَمْرِ الدُّنيا والآخرة، ولكلِّ ما فيه صلاحُ قُلُوبِهم وأَعْمالِهم.

أيُّها الإخوة فِي الله: أُوصِيكم بتَقْوىٰ الله، فإنَّها وَصيَّته سبحانه، وهي وَصيَّة رسوله ﷺ.

قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴿١﴾...﴾ [النساء:١]. الآيات.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾

يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٠].

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ١٨- ٢٠].

نسأل الله أن يَجْعلنا وإيَّاكم من الفائزين.

أيُّها الإخوة فِي الله: الواجبُ علىٰ كلِّ مُكلَّفٍ من الرِّجال والنِّساء، من العَجَم والعَرَب، من جَميع أجناس بَنِي آدم، ومن جَميع أجناس الجنِّ، الواجبُ علىٰ الجميع: تقوىٰ الله؛ لأنَّهم خُلِقوا لِهذا، خُلِقوا ليَعْبدوا الله، وأُمِروا بذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

وَبعَثَ اللهُ الرُّسُلَ بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

وهذه العبادة الَّتِي خُلِقوا لَها، وأُمِروا بِها، وبعث اللهُ بِها الرُّسُلَ هي التَّقوىٰ، وهي الإيمان، وهي الهدىٰ، وهي الإسلام، وهي البرُّ، وهي طاعةُ الله ورسوله.

فالواجب علىٰ جَميع الثَّقَلين (الْجِنِّ والإنس) والرِّجال والنِّساء، الواجب علىٰ الجميع: أن يَتَّقوا الله، وأن يُحقِّقوا هذه العبادة بتوحيد الله، والإخلاص له، وطاعة أوامره، وتَرْكِ نواهيه، والوقوف عند حدوده؛ رجاءَ ثوابِه، وحَذَرَ عقابه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، هذا هو الواجب علىٰ الْجَميع.

ولا سبيل إِلَىٰ هذا إِلَّا بالتَّفقُّه فِي الدِّين، والتَّعلُّم؛ حَتَّىٰ يعرف المؤمنُ والمؤمنةُ ما هي العبادة الَّتِي خُلِقوا لَها، ما هي التَّقْوىٰ، ما هو الإسلام، ما هو الإيمان! لا بُدَّ من التَّعلُّم، ولِهذا يقول النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يُرِد الله به خيرًا، يُفقِّهه فِي الدِّين**»(١).

ويقول ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتمس فيه علمًا؛ سَهَّل الله له به طريقًا إِلَىٰ الْجَنَّة**»(٢).

فالواجب علىٰ الْجَميع: التَّفقُّه فِي الدِّين، والتَّعلُّم؛ حَتَّىٰ يعرف كلُّ واحدٍ ما هو الَّذي خُلِق له، ما هي العبادة الَّتي خُلِق لَها، حتَّىٰ يَتبصَّر، وحتَّىٰ يعبدَ اللهَ علىٰ بصيرةٍ، وعلىٰ علمٍ، فعبادةُ الله هي توحيدُهُ وطاعتُهُ، هي تقواه، هي الإيمان به وبرسوله، هي الإيمان بالله، وبكلِّ ما أخبر اللهُ به ورسولُهُ، هي طاعة الأوامر، وترك النَّواهي، والوقوف عند حدود الله، هذه هي التَّقوىٰ: توحيد الله وطاعته، والإيمان به، وبرسولِهِ ﷺ، والإيمان بكلِّ ما أخبر اللهُ به ورسولُهُ عمَّا كان، وما يكون، وعن الآخرة، والجنَّة، والنَّار، والحساب، والجزاء، وغير ذلك.

فَوصيَّتِي لكم جَميعًا ولنفسي: تقوىٰ الله، والعناية بالتَّفقُّه فِي الدِّين والتَّبصُّر؛ حتَّىٰ يعرف كلُّ واحدٍ ما أوجب اللهُ عليه، وما حرم عليه، وحتَّىٰ يعبد ربَّه علىٰ بصيرةٍ، وحتَّىٰ يدعو إِلَىٰ الله علىٰ بصيرةٍ أينما كان.

وأهمُّ هذه التَّقوىٰ، وأعظمها وأَسَاسُها توحيد الله، هو معنَىٰ شهادة أَنْ لا إله إِلَّا الله؛ فإِنَّ معناها: لا معبودَ بحقٍّ إِلَّا الله، وهكذا الإيمان بالشَّهادة الثَّانية: شهادة أَنَّ مُحمَّدًا رسول الله، والتَّدبُّر فِي معناها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هاتان الشَّهادتان هُمَا أصل الدِّين، هُمَا أساس المِلَّة، فالواجبُ التَّفقُّه فيهما، والتَّبصُّر فيهما، وأن يعبد العبدُ ربَّه علىٰ بصِيرةٍ، يُوحِّده، ويُخْلص له العبادة، ويؤمن برسولِهِ ﷺ، وأنَّه رسول الله إلَىٰ جَميع الثَّقلين (الجنِّ والإنس)، وأنَّه خاتَم الأنبياء، وأنَّ الواجب اتِّباعه، والاستقامة علىٰ دينِهِ.

ثُمَّ بعد هذا: الصَّلوات الْخَمس، فهي عمود الإسلام، وهي أعظمُ الفروض، وأهمُّ الواجبات بعد الشَّهادتين، فالواجبُ الْمُحافظةُ عليها، والتَّفقُّه فيها، والعناية بِها، والتَّواصي بِها مع أهلك، وأولادك، وجيرانك، وغيرهم؛ فهي عمود الإسلام، كما قال رسول الله ﷺ فِي الحديث الصَّحيح: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ....**»[1].

ومَنْ تَركها، كَفَر؛ كما قال ﷺ: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ**»[2].

وقال ﷺ: «**العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[3].

ثُمَّ الزَّكاة، وهي عمودُ الإسلام بعد الشَّهادتين والصَّلاة، فهي الرُّكنُ الثَّالثُ من أركانِ الإسلامِ، **ثُمَّ الصِّيام، ثُمَّ الْحَج**، هذه هي أركان الإسلام الخمس كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ**»[4].

فالواجبُ عليكم أيُّها الإخوةُ، أيُّها الأبناءُ: الواجب عليكم التَّفَقُّهُ فِي

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والترهيب» (٢٨٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٢١) من حديث بريدة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

دين الله، والتَّبَصُّرُ، والدَّعوةُ إلَىٰ اللهِ، والعَمَلُ بِشَريعتِهِ، وَتَوْجِيهُ النَّاسِ إلَىٰ الخَيْرِ، وتحذيرُهم من الشَّرِّ، وأن تكونوا -فعلًا- قدوةً فِي الخير، نُوصِيكم بأن تكونوا قدوةً لغيركم، عليكم أن تَتعلَّموا، وأن تعملوا، وأَنْ تدعوا إلَىٰ الله، وأن تكونوا قدوةً للغير بأعمالكم وسِيرتكم وأخلاقكم، فإِنَّ طالبَ العلم يُقْتدىٰ به، يُنتَفَع بقولِهِ وعمله وسيرته.

فأوصيكم بتقوىٰ الله، والدَّعوة إليه، والاستقامة علىٰ دين الله؛ حتَّىٰ تكونوا قدوةً لغيركم فِي طاعة الله ورسوله، والاستقامة علىٰ دينه، والتَّخلُّق بالأخلاق الَّتي شرعها الله لعباده.

ونَحن الآن علىٰ قربٍ من شهر رمضان -بلَّغنا الله وإيَّاكم صيامَه وقيامَه، إيمانًا واحتسابًا- يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:١٨٣، ١٨٤].

أوجب اللهُ علينا الصِّيامَ، كما أوجبه علىٰ مَنْ قبلنا، وجعله وسيلةً للتَّقْوىٰ، فالصِّيام من أعظم التَّقْوىٰ، وهو وسيلةٌ إلَىٰ تقوىٰ اللهِ فِي جَميع أُمُور الدِّين.

فالواجبُ علىٰ جَميع المُكلَّفين من المسلمين: صيامُ هذا الشَّهر، صيام رمضان، مع العناية بذلك، مع صيانته عمَّا حرَّم اللهُ، يقول النَّبيُّ الكريم ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**»(١).

ويقول ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٩)، ومسلم (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«وَمَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

«ومَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

ويقول النَّبِيُّ ﷺ: «يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَه: إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، تَرَكَ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخَلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»(٣).

ويقول ﷺ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ(٤) -أي: جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ- فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَجْهَلْ، فإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»(٥).

وقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(٦).

فأُوصِيكم أيُّها الإخوةُ، أيُّها الأبناءُ، بتَقْوَىٰ اللهِ، والاستقامةِ علىٰ دِينِه، والْمُحافظةِ علىٰ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ فِي الجَمَاعَةِ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَىٰ ذلك، كما أوصيكم جَميعًا بأداءِ الزَّكاة، وأمر النَّاس بذلك، وَوَصِيَّتِهم بذلك، وأُوصِيكم جَميعًا بِهذا الشَّهْرِ العظيمِ بصيامِهِ، وقيامِهِ إيمانًا واحتسابًا.

ونصيحتِي للنَّاس بذلك ووَصيَّتهم بأن يصونوه عمَّا حَرَّمَ اللهُ، وأن يَسْتَقيموا علىٰ دين الله، وأن يَبْتَعِدُوا عن محارمِ الله؛ حتَّىٰ يكون صيامُهُم صيامًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) الجنة: الوقاية، أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات، «النهاية في غريب الأثر» (١/ ٨٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مُكفِّرًا لسَيِّئاتِهم، وحاطًّا لخطيئاتِهم، كما قال ﷺ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا** -أي: إيمانًا بوُجُوبِهِ وفرضيَّتِهِ، واحتساب الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ- **غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**[1].

فعلينا جَميعًا أن نَتَّقي الله، وأن نَصومه إخلاصًا لله، ومَحبَّةً لله، وتعظيمًا لله، وطلبًا للأجر عنده، وأن نَصُونه عن كلِّ ما حرَّم الله.

فالواجبُ عليك يا عَبْدَ الله، الواجبُ علىٰ الْجَميع: أن يصوموه، ويصونوه عمَّا حرَّم الله، وأن يَجتهدوا فِي كَسْب الحلال فِي الطَّعَام الحلال، والكسب الحلال، فَلْيَصُمِ المسلمُ عمَّا حرَّمَ الله، وأن يَبتعد عن كلِّ ما حرَّم الله، هكذا المؤمن يَجب أن يصوم عن كلِّ ما حرَّم الله، وأن يكون كسبُهُ طَيِّبًا، وعملُهُ طَيِّبًا.

وكذلك نُوصِيكم بقيام رمضان إيمانًا واحتسابًا، فِي العشرين الأُوَل، يُصلِّي المؤمن ما يَسَّر الله له، وفِي المساجد أفضل، مع العناية بزيادة صيامك وقيامك عمَّا حرَّم الله، والتَّواصي بطاعة الله ورسوله، وفِي العَشر الأخيرة يُسْتحبُّ إحياؤها بالعبادة؛ كان ﷺ فِي العشرين الأُوَل يقوم وينام، وكان فِي العشر الأخيرة إذا دخلت العشرُ، شدَّ مِئْزره، وأحيا ليلَه، وأيقظ أهله ﷺ، فأُوصِيكم جميعًا بالتَّأسِّي به ﷺ، فِي العشرين الأُوَل قيام بعض اللَّيل، والنَّوْم بعض اللَّيل، وفِي العشر الأخَيرة نوصي الجميع بإحيائها بالعبادة، والتَّهجُّد، والقراءة، كما فعل ﷺ، كان يُحيي ليلها، ويصوم نَهارها ﷺ، تقول عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان النَّبيُّ ﷺ إذا دخل العشر، شدَّ مِئْزره[2]، وأحيا ليلَه، وأيقظ أهلَه»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شد مئزره» -بكسر الميم-: إزاره، وهو كناية عن الاجتهاد في العبادة واعتزال النساء، «فيض القدير» (٥/ ١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ونوصيكم أيضًا بالعناية بالفقراء والمساكين، ورحمتهم، والإحسان إليهم، ومواساتِهم، ونُوصِيكم بالإكثار من قراءة القرآن، وبفعل الأعمال الطَّيِّبة، والإكثار من الصَّلاة، والتَّسْبيح، والتَّهْليل، والتَّحْميد، والتَّكْبير، والدَّعْوة إلَىٰ الله، والأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المنكر، كلُّ هذا مطلوبٌ فِي جَميع الأوقات، وفِي كلِّ زمانٍ، لكن يُشْرع للمؤمن أن يضاعف من ذلك فِي هذا الشَّهْر الكريم فِي رمضان.

ويُسْتحبُّ له أن يكثر من قراءة القرآن فِي أيَّامه ولياليه، يُكْثر من التَّسْبيح، والتَّهْليل، والتَّحْميد، والتَّكْبير، من الصَّدقات، من سائر وجوه الخير؛ لأنَّ هذا الشَّهر العظيم له مَزِيَّةٌ، وله فضلٌ، والأعمالُ فيه مضاعفةٌ، فيَنْبغي لكلِّ مؤمنٍ ولكلِّ مؤمنةٍ العناية بِهذا الشَّهر، والاستكثار من أنواع الخير، مع العمل الدَّائم فِي جَميع السَّنة فِي أنواع الخير، لكن يُخصُّ هذا الشَّهر الكريم بِمزيدٍ من العناية بتقوىٰ الله، بالاستكثار من الخير، بالاستكثار من قراءة القرآن، بالاستكثار من التَّسْبيح، والتَّهْليل، والتَّحْميد، والتَّكْبير، بالاستكثار من الصَّدَقة علىٰ الفقراء، بالاستكثار من الدَّعوة إلَىٰ الله، والأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المنكر، وأن يكون عملُك فِي هذا الشَّهْر أنشطَ وأكملَ من بقيَّة السَّنة.

نسأل الله للجميع التَّوفيقَ والمزيدَ من كلِّ خيرٍ، كما أسأله سبحانه أن يَمْنَحَنَا وإيَّاكم وَسَائِرَ المسلمين الفِقْهَ فِي دينِهِ، والثَّباتَ عليه، وأَنْ يُعِيذَنا وإيَّاكم من مُضلَّات الفتن، ونَزغَات الشَّيْطان، إنَّه -جلَّ وعَلَا- جوادٌ كريمٌ.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك علىٰ عبده ورسوله، نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلىٰ آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسانٍ



أسئلةٌ والجوابُ عليها

السؤالُ الأول: العِلْمُ بالكتاب والسُّنَّة من أشرفِ العلوم، وهي تَرْفَعُ العبدَ عند الله درجات، وَتُنْقِذُ صاحبَها من ظلماتِ الجَهْلِ والشِّرْكِ والخُرَافَةِ، ومع ذلك نرى التَّقاعُسَ والكَسَلَ وَعَدَمَ الرَّغبةِ في هذا الباب العظيم من أبواب الدين، وكثرة الشَّوَاغل، فما هي نصيحتكم للمسلمين عامة؟

الجواب: نصيحتِي لكلِّ مسلمٍ التَّفقُّهُ فِي الدِّين، ولا سِيَّما طَلَبة العلم، نصيحتِي للجميع التَّفقُّهُ فِي الدِّين، والتَّبَصُّر والحرص علىٰ العناية بالقرآن، والاستكثار من تلاوتِهِ، وتَدبُّر معانيه؛ لأنَّه هو أصلُ كلِّ خيرٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء:٩]. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

وأُوصِي الجميع بالعنايةِ بالسُّنَّةِ (سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ)، مثل: «عُمْدَةِ الحَدِيثِ»، و«بُلُوغ المُرام»، و«المُنْتَقَىٰ»، إذا تَيَسَّرَ حفظُ هذه الكُتُب، ففي ذلك خيرٌ عظيمٌ، مع العنايةِ بالكُتُبِ السِّتَّةِ: الصَّحِيحين، والسُّنَنِ الأربعةِ، فطالبُ العلم يَعْتَنِي بِها، وَيَحْرِصُ عَلَيْها.

كذلك إذا تَيَسَّر له حفظُ بعض المُتُون، مثل: «بُلُوغِ المُرام»، ومثل: «عُمْدَةِ الحَدِيثِ» للشَّيخ عبد الغنِيِّ بن سرور المَقْدِسي، هذا طيبٌ يُعِينُهُ الله بِها علىٰ الفِقْهِ فِي الدِّين.

وكذلك كُتُب العقيدة، نوصي بالعناية بِها، وحفظها؛ ككتاب: «التوحيد» للشيخ مُحَمَّد رَحِمَهُ اللَّهُ، و«ثلاثةِ الأُصُولِ»، و«القواعد الأَرْبَع»، و«كَشْفِ الشُّبُهاتِ»، و«العقيدة الواسطيَّة» لشيخ الإسلام ابن تَيْمِيَة، هذه كُتُبٌ مفيدةٌ.

وكذلك مراجعة كُتُبِ العقيدةِ: ككتاب «التَّوْحيد» لابن خُزَيْمَة، و«شرح الطَّحاوية» لابن أَبِي العزِّ، و«التّدمرية» لشيخ الإسلام ابن تَيْمية، و«الحموية» كذلك؛ هذه كُتُبٌ مُهِمَّةٌ نوصي بالعناية بِها فِي العقيدة.



السؤال الثاني: إذا سَبَّ شخصٌ الرسول ﷺ، أو استهزأ بالدِّين، أو شعائر الدين، وبالدعاة إلى الله، فهل يَكْفُرُ؟ وهل يَجُوزُ للمسلمين قَتْلُهُ؟ أم أن ذلك من واجب الحكومات؟

الجواب: مَنْ سبَّ الدِّين، أو سبَّ الرَّسول، أو استهزأ، يكون كافرًا، لكن يُنْصح ويُوجَّه إِلَىٰ التَّوبة، ومَنْ تاب، تاب اللهُ عليه؛ وإذا كان فِي دولةٍ إسلاميةٍ فأمرُهُ إِلَىٰ وليِّ الأمر، لكن إذا تاب ورَجع فلا حاجة إِلَىٰ الرَّفْع، تاب ورجع وأناب إِلَىٰ الله فالحمد لله، وعلىٰ المؤمنين أن ينصحوه ويُوجِّهوه إلىٰ الخير، ونُخبره أنَّ هذا رِدَّةٌ وكفرٌ، فإذا تاب وأناب واستقام علىٰ دين الله، فلا حاجةَ إِلَىٰ رَفْعه، وإِنْ أصرَّ علىٰ باطله، وَجَبَ أن يُرْفع إِلَىٰ وليِّ الأمر، إذا كان هناك وليُّ أمرٍ يُمكن أن يُقيمَ عليه حدَّ الله.



السؤال الثالث: بالنسبة لإقامة الحد هل هو مكلَّفٌ به الإمام أو الحاكم أو الأمير؟

الجواب: الإمام، وليُّ الأمر، الأمير، أمير القرية، أو أمير البلدة الَّتي فيها الْمُجرم، أمَّا الإخوان: لا، لا يقتلون، الإخوان ينصحونه، ويُوجِّهونه، يُرْهبونه، حتَّىٰ يهديه الله بأسبابه.



السؤال الرابع: ظهرت ظاهرة عند كثير من الناس أنهم يقولون: إنا ننكر المنكر بجَمْع الناس، وتظاهرهم، والخروج في المسيرات والمظاهرات؟

الجواب: لا، هذه ليست طيبةً، المسيرات والمظاهرات ليست طيبةً، ليست من عادة أصحاب الرَّسول، ولا من أتباعهم بإحسانٍ، إنَّما النَّصيحة والتَّوجيه، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، والتَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ، هذه هي الطَّريقة المُتَّبعة، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران:١١٠].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،



فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلَكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[١].

فالإنكارُ بالفعل يكون من الإمام، ومن الأمير، ومن الهيئةِ الَّتي لَها تعليماتٌ تُنْكِرُ باليد، ومِنْ صاحب البيتِ علىٰ أولاده، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، أَمَّا أفرادُ النَّاسِ لا، إذا أنكروا باليد فتكون الفتنة، وصار النِّزاع، وصار القتال، وصارت الفُرْقة والابتلاء، وتَضِيع الفائدةُ، وَيَعْظُمُ الشَّرُّ، والنَّافعُ منَّا بالقول.

فينصح بالقَوْل والتَّوْجيه، والتَّرغيب والتَّرهيب، أَمَّا صاحب البيت علىٰ أولاده، والهيئة فِي نظامها وتعليماتِها حسب طاقتها، والأمير حسب طاقته، والسُّلْطان حسب طاقته، فهذا لا بأس، ينكر باليد؛ أَمَّا أفراد النَّاس لا، فلينكر بالقول؛ لأَنَّه لا يستطيع الإنكار بالفعل، فإذا أنكر بالفعل عَظُمت المصيبة، وعظم الشَّرُّ.



السؤال الخامس: إن الحاكمَ يَرْضَى بِهذه الاعتصاماتِ والمظاهراتِ، ويستدلون بذلك على جوازها؟

الجواب: النصيحة تكون بالتَّوجيه والإرشادات؛ إذا زَارُوه، ونَصَحُوه، ووَجَّهوه، هذا طيبٌ.

السَّائل: حتَّى لو أَذِنَ لَهُم أنَّهم يتظاهرون، أو يعتصمون؟

قال الشَّيخ: الْمُظاهرةُ ما لَهَا أصلٌ، الْمُظاهرة ما لَها أصلٌ أبدًا، شرُّها أكثرُ.



(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السؤال السادس: فتوى للشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستدل بها أصحاب التَّكفير هؤلاء بأنَّ الشيخَ لا يُفَرِّقُ في قضية مَنْ حَكَمَ بغير شرع الله عَزَّوَجَلَّ، فما هو التَّفريق المعروف عند العلماء؟

الجواب: المعروفُ عند العلماء -كما قدمت- أنَّ مَنِ استحلَّ ذلك، كَفَر، ومَنْ لَمْ يستحلَّ كأن يَحكم بالرِّشوة، أو بإعفاءِ قريبٍ، أو علىٰ عدوٍّ، هذا يكون كفرًا دون كفرٍ؛ هذا هو المعروف عند أهل العلم، ولكن إذا قامت دولةٌ إسلاميةٌ عندها قدرةٌ تُجَاهد مَنْ لَمْ يَحكم بِما أنزل الله حتَّىٰ تُلْزمه بذلك، تلزمه بالحكم بِما أنزل الله، تُلْزمه بالدَّليل بِما شرع الله إذا كان لَهَا قدرةٌ.



السؤال السابع: هم يستدلون بفتوى الشيخ محمد بن إبراهيم؟

الجواب: الشَّيخ مُحَمَّد بن إبراهيم ما هو معصومٌ، عالِمٌ من العلماء يُخطِئ ويُصيب، عالِمٌ من العلماء ما هو بنَبِيٍّ ولا رسولٍ، يُخطِئ ويُصيب، شيخُ الإسلام ابن تيمية كذلك، وابن القيِّم، وابن كثيرٍ، وغيرهم من العلماء، والأئمَّة الأربعة كلُّهم يُخْطِئون ويُصِيبون، يُؤخَذ من قولهم ما وافق الحقَّ، وما خالف الحقَّ يردُّ علىٰ قائِلِهِ، ولو أنَّه كبيرٌ.



السؤال الثامن: ما هو السَّبيل لتغيير الواقع الأليم الَّذي تعيشه الأمة اليوم؟ وما هو المخرج وقد تعددت الحلول؟

الجواب: السَّبيل: التواصي بالْحَقِّ، والتَّناصح حتَّىٰ يقيم اللهُ دولةً تأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر، دولةً إسلاميةً تقوم بالواجب، تُقِيم الحدود، أمَّا إذا لَمْ تقم الدَّولة؛ فيجب التَّواصي بَيْن الإخوان فِي الكويت، وفِي أوروبا، وفِي

أمريكا، وفِي مصر، وفِي كلِّ مكانٍ، التَّواصي والتَّناصح والتَّعاون علىٰ البرِّ والتَّقوىٰ، وإرشاد النَّاس مثل ما كان النَّبِيُّ فِي مكة، ففي مكة ما ضَرَب أحدًا، ولا قتل أحدًا؛ إنَّما النَّصيحة فِي المسجد وغير المسجد، وفِي سيرته الكفاية، وهكذا أوَّل ما هاجر ابتدأ بالدَّعْوة والتَّعليم.



السؤال التاسع: انتشر في بلاد المسلمين -وللأسف- القتل العشوائي ممن ينتسب إلى الدين وإلى الجماعات الإسلامية؟

الجواب: تقدَّم الجواب علىٰ هذا، فهذا لا يَجوز، وهو منكرٌ، فأخذ النَّاس بالقتل هكذا مثل ما يُفعَل بالجزائر وغيره، هذا غلطٌ، ما يصلح، الواجب النَّصيحة والتَّوجيه إِلَىٰ الخير بالكلام، والقول، وبالسِّيرة الحميدة، هذا الواجب مثلما فعل النَّبِيُّ ﷺ فِي مكة، وكما فعل الصَّحابة، ومثلما فعلوا فِي الحبشة عند النَّجاشيِّ.



السؤال العاشر: كثير من الدعاة إلى الله يهتمون بتربية الناس، وينسون أنفسهم، وينسون تربية أبنائهم وزوجاتهم، فما نصيحتكم لهؤلاء؟

الجواب: نصيحتِي لَهم أن يَتَّقوا اللهَ، وأن يبدؤوا بأنفسهم وأهل بيتهم، ينصحون أهل بُيُوتِهم وإخوانَهم وأولادَهم، مع النَّصيحة العامَّة للنَّاس، لا يهملون أنفسهم، يكونون قدوةً فِي الخير، يبدؤون بأنفسهم حتَّىٰ يكونوا قدوةً فِي الخير بأعمالِهم، وهكذا يَجتهدون فِي إصلاح أولادهم، وأهل بُيُوتِهم، وجلسائهم، حتَّىٰ يكونوا جميعًا قدوةً فِي الخير، لا يبدأ بالنَّاس وينسىٰ نفسه، وينسىٰ أهل بيته، يبدأ بنفسه وبأهل بيته، ومع هذا ينصح النَّاس، ويُوجِّه النَّاس إِلَىٰ الخير.



السؤال الحادي عشر: تواجه الدعوة السَّلَفِيَّةُ تحديات كبيرةً من قِبَلِ الفرق الضَّالَّة، وأصحاب المُعْتَقَدَاتِ المُنْحَرِفة عن الكتاب والسُّنَّة، وَفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالح، وهذه الفرق من أهل البِدَعِ، فما مَوْقِفُنَا من هذه الفِرَقِ؟

الجوابُ: لا بُدَّ أن نَصْطَبِرَ، ما حصل اليوم حصلَ من قَبْلُ، لا بُدَّ من عَدَاءِ أَهْلِ البِدَعِ.

من قديم الزَّمن من عهد الصَّحابة، ابْتُلي المسلمون بالخوارج فِي عهد الصَّحابة، وبالشِّيعة، فصبروا، وجاهدوا، فلا بُدَّ من الصَّبر، والدَّعوة إِلَىٰ الله، وبيان البدع، والتَّحذير منها، وبيان السُّنَّة، والدَّعوة إليها، ليس هذا بِجَدِيدٍ.

قُتِلَ عثمان بسببِ الفِتْنَةِ، وقُتِلَ عليٌّ بسبب الفتنة، هكذا الزُّبير، وهكذا طلحة، الفتنة قَامَتْ فِي آخر عهد عثمان، ما يُسْتغرب هذا، الَّذي وَقَع فِي عهد عثمان وبعده وَقَع اليوم وَقَبْلَ اليوم؛ الواجب كما فعل الأخيار: النَّصيحةُ والتَّوْجِيهُ، ما هو بِرَفْعِ السِّلاحِ وإقامةِ الفِتْنَةِ.

رُفِعَ السِّلاحُ فِي عهد عثمان، فجرىٰ ما جرىٰ، قُتِل عثمان، وقُتِل عليٌّ، قُتِل طلحةُ، قُتِل الزُّبيرُ، قُتِل جمعٌ كبيرٌ من الصَّحابة، كلُّه بسبب الفتنة؛ فالواجبُ الدَّعوةُ والعنايةُ والصَّبر والتَّوجيه إِلَىٰ الخير، وأن يكون الإنسان قدوةً فِي الخير بأعماله وأقوالِهِ، وأن يعتنِي بأهل بيته وجيرانه وإخوانه، وألَّا تحمله الغَيْرة علىٰ فِعْل ما لا ينبغي من قتلٍ، أو ضربٍ بغير حُجَّةٍ، وبغير طريقٍ مستقيمٍ؛ لأنَّ هذا يُسبِّب الفتنةَ، والشُّرورَ، والقتلَ العشوائيَّ، وضياعَ الدَّعوةِ.



السؤال الثاني عشر: هل يُحَذَّرُ من هؤلاء من أصحاب البِدَعِ؟

الجواب: نَعَمْ، يُحذَّرُ منهم، من الرَّافضة وأهل الفتن جَميعًا، وهكذا الخوارج والمعتزلة والشِّيعة وغيرهم، المسلم يُحذِّر منهم بالأساليب الحَسَنة، يُحذِّر منهم، ويدعو إِلَىٰ السُّنَّةِ ويُبيِّنها للنَّاس إذا كان عنده علمٌ.

ولكن يَجب أن تتَّخذ الأساليب الَّتي تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ، كما قال -جلَّ وعلا- فِي كتابه الكريم: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ١٢٥﴾ [النحل:١٢٥].

وقال -جلَّ وعلا- لنبيِّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ ١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال -جلَّ وعلا- لموسىٰ وهارون لمَّا بَعثَهم إِلَىٰ فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه:٤٤]. هكذا فِي وَقْتِ الضَّعْفِ، هكذا.

وقال النَّبيُّ ﷺ: **«عَلَيْكُمْ بِالرِّفْقِ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»**(١).

وقال ﷺ: **«مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ؛ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ»**(٢). ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ.



---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السؤالُ الثالثُ عشر: لي إخوةٌ وأخواتٌ كثيرون -والحمد لله- إلاَّ أنني كلما نَصَحْتُهُم في الله عَزَّوَجَلَّ أحسُّ وكأنَّهم أصبحوا يكرهونني، وأحس أنني بدأت أتعب من هذا الأمر، وأسمع كلامًا منهم، فكيف أفعل معهم؟ وما هي نصيحتكم؟

الجواب: إذا لَمْ يَنْفَعْ تَكُفُّ عنهم، تَعْتَزِلُهُم، إذا لَمْ يَقْبَلُوا منها تعتزلهم وتَشْتَغِل بنفسها وبغيرها من النَّاس الَّذين يَقبَلُون الدَّعوةَ، إذا لَمْ يَقْبَلُوها، ولَمْ يَسْتجيبوا لَهَا، ولَمْ يَحْسُنْ أَثَرُهم بذلك، تَعْتَزِلُهم، تَهْجُرُهم حتَّىٰ يستقيموا علىٰ الحقِّ، أمَّا إذا استطاعت المتابعة، فهذا لَهَا فيه خيرٌ عظيمٌ، ولو حَصَل منهم ما حصل إذا استطاعت الصَّبر والدَّعوة؛ لعلَّ اللهَ يهديهم، لا بأس، أمَّا إِنْ رأَتْ خلافَ ذلك، وأنَّ الدَّعوةَ لا تُفِيدُهم ولا تَنْفَعُهم، وأنَّ الْمَجيءَ إليهم يضرُّها، تعتزلهم، والحمد لله.



السؤال الرابع عشر: هل السَّلَفِيَّةُ كلمةٌ قاصرةٌ على طائفةٍ ومجموعة من المسلمين، أم أنَّها كلمة تشمل كل من كان على الكتاب والسُّنَّة؟

الجواب: السَّلَفُ هُمْ أتباعُ الكتابِ والسُّنَّةِ، اتِّباعُ السَّلَفِ يعنِي الماضي، الَّذين ساروا علىٰ الكتابِ والسُّنَّةِ، هُمُ السَّلَفُ، وهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة، يُقَال لَهم: السَّلَف، ويُقَالُ لَهم: أهل السُّنَّة والجماعة.





السؤال الخامس عشر: الإخوان يريدون منكم -إن شاء الله- أنك تستسقي لنا؛ لأن المطرَ تأخَّرَ كثيرًا علينا، خاصَّةً في هذه البلاد؟

الجواب: نسأل الله أن يُغيثَ المسلمين جميعًا، نسأل الله أن يغيثنا ويغيث المسلمين فِي الكويت، وفِي كلِّ مكانٍ، نسأل الله أن يغيثهم بغيثٍ مباركٍ، ونسأل الله أن يغيث القلوب بالإيمَان والتقوىٰ، ونسأل الله أن يصلح الجميع، ونسأل الله أن يَمُنَّ علىٰ الجميع بالتَّوبة؛ حتَّىٰ يغيثهم الله، وحتَّىٰ يرحمهم، ونسأل الله للجميع التَّوفيقَ والهدايةَ، وصلاحَ النيَّةِ والعمل.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله، نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسانٍ



(١٤) حوارٌ حولَ مسائلِ التَّكفير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لله، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وأصحابه، ومَنِ اهتدىٰ بِهداه.

أمَّا بعد: فقَدْ قال الله عَزَّوَجَلَّ فِي كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يأمُر عبادَه المؤمنين فِي آياتٍ كثيراتٍ بالتَّقوىٰ؛ لأنَّ التَّقوىٰ جِمَاعُ الدِّين، وهي العبادةُ الَّتِي خُلِقَ النَّاسُ لَها، وأُمِروا بِها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١].

وهي العبادةُ الَّتِي بعثَ اللهُ بِها الرُّسلَ -عليهمُ الصَّلاة والسَّلامُ-؛ لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:٣٦].

هذه العبادةُ هي توحيدُ الله وطاعتُهُ، هي التَّقوىٰ والإيمَانُ، هي البرُّ والْهُدىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم:٢٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

فالواجبُ علىٰ جَميعِ الْمُكلَّفين من الْجِنِّ والإنس، والعرَب والعَجَم، والذُّكُور والإناث؛ الواجب عليهم جَميعًا: أن يتَّقوا الله، وذلك بتوحيده والإخلاص له، واتِّباع رسوله ﷺ؛ هذه العبادة الَّتِي خُلِقوا لَهَا.

وأصلُها وأساسُها شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله؛ هذا أساس الدِّين، وأَصلُه الشَّهادتان، شهادةُ أن لا إله إلَّا الله، ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، يشهدُ المؤمنُ والمؤمنةُ أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، ويشهدون أنَّ مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب الْهَاشِمي العربي المكِّي، ثُمَّ المدني، هو رسول الله ﷺ حقًّا، وأنَّ الواجبَ اتِّباعُه والإيمانُ بِما جاء به، وتصديقُه، واتِّباعُ شريعته، هذا هو الواجبُ علىٰ الجميعِ، وقَدْ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء:٢٣].

قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴿٥﴾﴾ [البيِّنة:٥].

هذه هي العبادةُ الَّتِي خُلِقوا لَها، أن يخصُّوا اللهَ بالعبادة، بدعائهم، وخوفهم، ورجائهم، وذبحهم، واستغاثتهم، وصلاتِهم، وغيرها.

وعليهم مع هذا أن يشهدوا أنَّ مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطَّلب هو رسولُ الله حقًّا إلَىٰ جَميع الثَّقلين؛ جِنِّهم وإنسِهم، عربِهم وعجمِهم، ذكورِهم وإناثِهم، علىٰ جَميع المُكلَّفينَ أن يشهدوا بذلك؛ أن يشهدوا أنَّه لا إله إلَّا الله، أي: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، ويشهدوا أنَّ مُحَمَّد بن عبد الله هو رسولُ الله حقًّا إلَىٰ جَميع الثَّقلين؛ الجنِّ والإنس، وأنَّه خاتَم الأنبياء، ليس بعدهُ نَبِيٌّ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨].

وبعد ذلك أيضًا يلزمُ الإيمانُ ببقيَّة أركان الإسلام: الصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصِّيامِ، والحجِّ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ»(١).

هذه أشياءُ لا بُدَّ منها مع الإيمان بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وبالقدر خيرِهِ وشرِّه.

هذه أُصُولُ الإيمانِ السِّتَّةُ، وَيَتْبَعُ ذلك جَميعُ ما أمرَ الله به؛ يدخلُ فِي الإسلامِ والإيمانِ كلُّ ما أمرَ اللهُ به ورسولُهُ، كما يدخلُ فِي ذلك تركُ كلِّ ما نَهىٰ اللهُ عنه ورسولُهُ؛ كلٌّ داخلٌ فِي الإسلامِ والإيمانِ، فعلىٰ جَميعِ المُكلَّفين أن يؤمنوا بالله ورسوله، وأن يؤمنوا بالأركانِ السِّتَّةِ، وأنْ يعملوا بالأركانِ الخمسةِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الشَّهادتين، الصَّلاةِ، الزَّكاةِ، الصِّيامِ، والحجِّ، ويؤمنوا بأنَّها فرضٌ علىٰ الجميعِ.

كما أنَّ عليهم أن يؤمنوا بأنَّ اللهَ حرَّمَ عليهم الشِّركَ، وحرَّم عليهم جَميعَ المعاصي الَّتِي بيَّنها الله فِي كتابه، وبيَّنها رسولهُ ﷺ: من الزِّنا، والسَّرقة، وشرب المسكر، والرِّبا، وغير هذا مِمَّا حرَّم الله.

يَجبُ علىٰ جَميع المُكلَّفينَ الإيمانُ بكلِّ ما أَوْجَبه اللهُ، والإيمانُ بكلِّ ما حرَّمهُ الله، وعليهم العملُ، وذلك بأداء فرائض الله، وتَرْك مَحَارم الله، والوقوف عند حدود الله، يَرْجون ثواب الله، ويَخشَوْن عقابَه، وَيُشرعُ لَهم المسارعةُ فِي الخيرات بالنَّوافل؛ لأنَّها تُكمَّل بِها الفرائضُ، يُشرعُ لكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ المسارعةُ فِي الخيرات: صلاةِ النَّافلة، صدقةِ النَّافلة، الإكثارِ من ذِكْر الله، حجِّ النَّافلة، عمرةِ النَّافلة، إلَىٰ غير ذلك مِمَّا شَرَعه الله من النَّوافل. ومتَىٰ سارعَ المؤمن إلَىٰ ذلك، وسابقَ إلَىٰ ذلك، صارَ من المُقرَّبين من الطَّبقة العليا.



فإنَّ طبقاتِ المسلمين ثلاثٌ:

الطَّبقة الأولَىٰ: الظَّالِمُ لنفسه، صاحبُ المعاصي.

الطَّبقة الثَّانية: المُقتصدُ الَّذي أدَّىٰ الفرائضَ، وترك الْمَحارمَ.

الطَّبقة الثَّالثة: المُقرَّبون، وهُمُ السَّابقونَ للخيرات مع أداء الفرائض، يسارعون إلَىٰ الطَّاعات، والأعمال الصَّالِحَة الَّتِي لا تَجبُ عليهم؛ يرجونَ ثوابَ الله، ويَخشونَ عقابَهُ.

الوَصيةُ لأبنائي الطَّلَبَة ولِجَميع المُستَمعين:

أن يَتَّقوا اللهَ فِي كلِّ مكانٍ، وفِي كلِّ حالٍ، وفِي كلِّ زمانٍ، وأَنْ يَستقيموا علىٰ دين الله، وأن يَحْذروا مَحَارمَ الله، وأَنْ يَقِفوا عند حدودِ الله يَرجون ثوابَ الله، ويَخْشون عقابه؛ عملًا بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: ما تطْلُبُون ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وقال سبحانه لنبيِّه ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ۝١١٢﴾ [هود: ١١٢].

الواجب علىٰ جَميع المُكلَّفين: الاستقامة؛ يعنِي: الثَّبات علىٰ الْحَقِّ، والسَّيْر عليه، من أداء الفرائض وتَرْك الْمَحارم حَتَّىٰ الْموت.

هذا هو الواجبُ علىٰ الْجَميع أن يَتَّقوا الله، ويلزموا حقَّه؛ يلزموا أداء الفرائض وتَرْك الْمَحارم؛ **الواجب:** الإيمان بالله ورسوله، والرَّغبة فيما عند الله عن إخلاصٍ وصدقٍ، **الواجب علىٰ الجميع:** أن يرجوا ثواب الله، ويخشوا

عقابه حتَّىٰ الموت، ولِهذا قال الله سبحانه لنبيِّه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر:٩٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

هذا هو الواجبُ علىٰ الْجَميع، أن يَتَّقوا الله، وأن يستقيموا علىٰ دينه، وأن يتركوا مَحارمَهُ، وأن يحبُّوا فِي الله، ويُبْغضوا فِي الله، ويوالوا فِي الله، ويعادوا فِي الله، لِهذا خُلِقوا، وبِهذا أمروا، فذلك هو العبادة الَّتِي هم مخلوقون لَها؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

وهي العبادة الَّتِي أُمِروا بِها فِي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١].

فالواجبُ: الْمُجاهدةُ فِي هذا، وسؤال الله التَّوفيق، كلُّ واحدٍ يسأل ربَّه التَّوفيق والإعانة، يقول الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق:٤].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق:٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ

وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فمَنِ اتَّقىٰ الله، وَحَفِظ لسانَه، واستقامَ، أَصلَح اللهُ له العَملَ، وغَفر له الذَّنبَ، غَفر له ذُنوبَه، وأصلحَ له أعمالَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

هذه هي التَّقوىٰ، أن يطيع الله ورسوله.

هذه هي التقوىٰ، هذا هو دينُ الله، هذا هو الإيمانُ بالله ورسوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧١].

أسأل الله أن يُوفِّقَ الجميعَ للعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، وأن يَمنحَنا وإيَّاكم جَميعًا الفقهَ فِي دينه، وأن يُعيذنا وإيَّاكم من شرور أنفسنا، ومن سَيِّئات أعمالنا.

والوصيَّةُ مرةً أخرىٰ: العملُ بِما ذَكَرْنا، والدَّعوةُ إِلَىٰ الله أن تَعمَلوا، وأن تَكونوا دُعاةً إِلَىٰ الله فِي كلِّ مكانٍ، ترجون ثوابَ الله، وتخشون عقابَ الله؛ عملًا بقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣]، وعملًا بقوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل:١٢٥].

هكذا أمرنا ربُّنا -جلَّ وعلا-، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

نسألُ اللهَ أن يَجْعلنا وإيَّاكم من أتباع الرَّسول علىٰ بصيرةٍ، وأَنْ يعيذَنا وإيَّاكم من شرور أنفسنا، ومن سَيِّئات أعمالنا، إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نَبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه بإحسانٍ



أسئلةٌ والجوابُ عليها

السؤالُ الأول: هناك من يقول بأن القول -وهو قول السلف-: لا نكفرُ أحدًا من أهل المِلَّةِ بذنبٍ ما لم يَسْتَحِلَّهُ، يقول: هذا هو قول المرجئة، فما هو تعليقكم؟

الجواب: هذا غلطٌ.

هذا قولُ أهل السُّنَّة: لا يُكفَّر بذنبٍ ما لَمْ يستحلَّه.

الزانِي لا يكفَّر، شاربُ الخمر لا يكفَّرُ، يكون عاصيًا، إلَّا إذا استحلَّ ذلك، هذا هو قولُ أهلِ السُّنَّةِ خلافًا للخوارج.

الْخَوارج هم الَّذين يُكَفِّرون بالذُّنُوب؛ أمَّا أهلُ السُّنة، فيقولون: عاصٍ، ويجب عليه الحدُّ، ويجب عليه التوبةُ، لكن لا يكفرُ إذا لَمْ يستحلَّ الذنبَ؛ زَنَا ولَمْ يَسْتَحِلَّ، شَرِبَ الخمرَ ولَمْ يَسْتَحِلَّ، وأشباه ذلك، أَكَلَ الرِّبا ولَمْ يستحلَّ، لا يكون كافرًا، يكون عاصيًا ناقصَ الإيمانِ، ضعيفَ الإيمان، خلافًا للخوارج والمُعتزلة.

هذا هو قولُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، أمَّا إذا استحلَّ، فقال: الزِّنا حلالٌ: يَكْفُرُ، أو قال: الخمرُ حلالٌ: يَكفرُ عند أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ جَميعًا، أو قال: الرِّبا حلالٌ: يَكْفرُ، أو قال: عقوقُ الوالدين حلالٌ: يَكفرُ، لكن إذا فَعَله من غير اعتقادٍ، ويعلم أنَّه حرامٌ، عقَّ والديه ويعلمُ أنَّه حرامٌ، زنىٰ ويعلم أنَّه حرامٌ، شرب الخمر ويعلمُ أنه حرامٌ؛ هذا عاصٍ ناقصُ الإيمان، ضعيفُ الإيمان عند أهل

السُّنَّةِ، ولا يَكفرُ ، لكن يَسْتَحِقُّ أن يُقَامَ عليه الحَدُّ: حدُّ الخمر، حدُّ الزِّنا، يُؤدَّبُ عن العقوقِ، يُؤدَّبُ عن أكل الرِّبا، لا بأس.



السؤالُ الثَّاني: هل العلماء الذين قالوا بعدم كفر مَنْ ترك أعمال الجوارح، مع تَلفُّظه بالشهادتين ووجود أصل الإيمان القلبي، هل هم من المرجئة؟

الجواب: لا؛ هذا من أهل السُّنَّةِ والْجَماعةِ، مَنْ قال بعدم كُفْر تارك الصِّيام، أو الزَّكاة، أو الحجِّ؛ هذا ليس بكافرٍ، لكن أتىٰ كبيرةً عظيمةً، وهو كافرٌ عند بعض العلماء، لكن علىٰ الصواب: لا يَكفُر كفرًا أكبر، أمَّا تارك الصَّلاةِ فالأرجحُ أنَّه كفرٌ أكبرُ إذا تعمَّد تَرْكها، وأمَّا تَرْكُ الزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ، فهو كفرٌ دون كفرٍ، معصيةٌ، كبيرةٌ من الكبائر.

والدَّليلُ علىٰ هذا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لمَنْ مَنَعَ الزَّكَاةَ: «**يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ويُعذَّبُ بِمَالِهِ**»، كما دلَّ عليه القرآنُ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:٣٥]؛ أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنه يُعذَّبُ بمالِه، بإبلِه، وبقرِه، وغَنَمِه، وذَهَبِه، وفِضَّتِه، ثُمَّ يرىٰ سبيلَه بعد هذا إلَىٰ الجنَّة أو إلَىٰ النَّار[1].

دلَّ علىٰ أنَّه لَمْ يَكْفُرْ، وأنَّه يرىٰ سبيلَه، إمَّا إلَىٰ الجنَّةِ، وإمَّا إلَىٰ النَّارِ، دلَّ علىٰ أنَّه مُتوعَّدٌ قَدْ يدخل النَّار، وقَدْ يُكتَفَىٰ بعذابِ البَرْزَخِ، ولا يَدْخُل النَّارَ، وقَدْ يكون إلَىٰ الجنَّة بعد العذاب الَّذي هو فِي البرزخ.



(١) أخرجه مسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

السؤال الثالث: في الإجابة على السؤال الأول البعض يقول: فهمنا من كلامك أنَّ الإنسان إذا نطق بالشَّهادتين ولَمْ يعمل، فهذا ناقصُ الإيمان، هل هذا الفهمُ صحيحٌ؟

الجواب: نعم؛ وحَّد الله، وأخلصَ له العبادة، وصدَّقَ رسولَ الله ﷺ، لكنَّه ما أدَّىٰ الزَّكاةَ، أو ما صام رمضان، أو ما حجَّ مع الاستطاعة، يكونُ عاصيًا، أتىٰ كبيرةً عظيمةً، مُتوعَّدٌ بالنَّار، لكن ما يكفرُ علىٰ الصَّحيح، أمَّا مَنْ تركَ الصَّلاة عمدًا؛ يكفرُ علىٰ الصَّحيح.



السؤال الرابع: هل يمكن صدورُ كفرٍ عمليٍّ مخرجٍ من الملَّة في الأحوال الطَّبيعيَّة؟

الجواب: هناك كفرٌ عمليٌّ يُخرج من الملَّة؛ مثل السُّجود لغير الله، والذَّبح لغير الله، كفرٌ عمليٌّ يُخْرج من الملَّة، فالذَّبحُ للأصنام، أو للكواكبِ، أو للجنِّ: كفرٌ عمليٌّ أكبر، وهكذا لو صلَّىٰ لَهم، أو سَجَدَ لَهم، يَكفرُ كفرًا عمليًّا أكبر -والعياذ بالله- هكذا لو سبَّ الدِّين، أو سبَّ الرَّسول، أو استهزأ بالله، أو بالرَّسول، فهذا كفرٌ عمليٌّ أكبرُ عند جَميع أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ.



السؤال الخامس: ما معنى الكفرِ العمليِّ الَّذي يكون في الأحوال الطَّبيعيَّة، والأصلُ القلبيُّ لَمْ ينتقض؟

الجواب: مثلُ السُّجودِ لغير الله، والذَّبح لغير الله: كفرٌ عمليٌّ، مثلُ سَبِّه للدِّين، أو استهزائِهِ بالدِّين: كفرٌ عمليٌّ -نسأل الله العافية- كفرٌ أكبرُ.



السؤال السادس: السجود والذبح إذا كان جَهْلاً، هل يُفرَّقُ بين الجَهْلِ والتَّعَمُّدِ؟

الجواب: هذا ما فيه جهلٌ، هذه من الأمور الَّتِي لا تُجهلُ بَيْن المسلمين، يذبح لغير الله، لذلك يَكفرُ وعليه التَّوبة، وإذا كان صادقًا عليه بالتَّوبة، فمَنْ تاب، تاب الله عليه؛ المشركون تابوا وتاب الله عليهم يوم الفتح، وهم معروفٌ كُفرُهم وضَلالُهم، ولَمَّا فتح الله مكةَ ودخلوا فِي دين الله، قَبِلَ الله منهم.



السؤال السابع: لكن يا شيخ، بمجرد العمل! كسجود معاذ للنبي ﷺ بمجرد العمل هكذا؟!

الجواب: هذا مُتأوِّلٌ، يُحسَبُ أنَّه جاهلٌ، بَيَّن له النَّبِيُّ ﷺ، استقرَّتِ الشريعةُ، وعرفَ أنَّ السُّجودَ لله ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢]، انتهىٰ الأمرُ، كان معاذ جاهلًا، فعلَّمه النَّبِيُّ ﷺ... الآن استقرت الشريعةُ، وَعُلِم أن السجودَ لله ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم:٦٢].

والذبحُ لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فالَّذي بَيْن المسلمين يَسْجدُ لغير الله، يكونُ كافرًا، وعليه التَّوبة.



السؤال الثامن: هل تبديلُ القوانين يُعْتبر كفرًا مخرجًا من المِلَّة؟

الجواب: إذا استباحه، إذا استباح الْحُكم بقانونٍ غيرِ الشَّريعة، يكون كافرًا كفرًا أكبر إذا استباح ذلك، أمَّا إذا فعل ذلك لأسبابٍ خاصَّةٍ عاصيًا لله من أجل الرِّشوة، أو من أجل إرضاء فلانٍ أو فلانٍ، ويَعلم أنَّه محرمٌ، يكون كفرًا دون كفرٍ.

أمَّا إذا فَعَله مُستحلًّا لَهَا يكون كفرًا أكبر.

كما قال ابن عباس فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ﴿ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

قال: ليس كمَنْ كَفَر بالله، ولكن كفرٌ دون كفرٍ.

أي: إذا استحلَّ الحكم بقانونٍ، أو استحلَّ الحكم بكذا أو كذا غير الشَّريعة، يكونُ كافرًا، أمَّا إذا فَعَله لرشوةٍ أو لعداوةٍ بَيْنه وبَيْن المحكوم عليه، أو لأجل إرضاء بعض الشَّعب، أو ما أشبه ذلك، فهذا يكونُ كفرًا دون كفرٍ.



السؤال التاسع: هل هناك فرقٌ بَيْن التَّبديل وبَيْن الحكم في قضيةٍ واحدةٍ؟! يعني فيه فرق في هذا الحكم بين التبديل ككل والحكم في قضية واحدة؟ التبديل يا شيخ؟

الجواب: إذا كان لَمْ يَقْصِدْ بذلك الاستحلالَ، وإنَّما حَكَم بذلك لأجل أسبابٍ أخرىٰ، يكون كفرًا دون كفرٍ، أمَّا إذا قال: لا حَرَجَ بالحكم بغيرِ ما أنزل الله -وإنْ قال: الشَّريعةُ أفضل- لكن إذا قال: ما فِي حرج؛ مباحٌ، يَكْفُرُ بذلك كُفرًا أكبر؛ سواء قال: إن الشَّريعة أفضل، أو مساوية، أو رأىٰ أفضل من الشَّريعة، كلُّه كفرٌ.



السؤال العاشر: يعني هذا الحكم يشمل التَّبديل وعدم التَّبديل، يعني يشمل كلَّ الأنواع؟

الجواب: جَميع الصُّور، فِي جَميع الصور.

لكن يَجب أن يُمنع، ويَجبُ منعُ ذلك، وهو كفرٌ دون كفرٍ، ولو قال: إنِّي ما قصدتُ، وما استحللتُهُ، ولو قال: بَيْنِي وبَيْن فلانٍ عداوةٌ، أو رشوةٌ، يَجب أن

يُمنع، فلا يجوز لأحدٍ أن يَحكم بغير ما أنزل الله مطلقًا، ولو كان بينهُ وبين الْمَحكوم عليه عداوةٌ، أو لأسبابٍ أخرىٰ، يَجب المنعُ من ذلك، يَجب أن يُمنَع وليُّ الأمر من ذلك، وأَنْ يَحْكم بشرع الله.



السؤال الحادي عشر: ما تقول فيمَنْ يصف أهل السُّنَّة الَّذين لا يُكفِّرون بالذَّنب بأنهم مرجئةٌ؟

الجواب: هذا جهلٌ مركبٌ، هذا جاهلٌ من الجَهَلة يُعلَّم؛ المرجئة الَّذين يرَون الأعمالَ ما تدخلُ فِي الإيمان، يرون مَنْ لَمْ يُصلِّ، ولَمْ يُزكِّ، ولَمْ يَصم، هذا من الإيمان، هذه هي المرجئة.

أمَّا أهل السُّنَّة والْجَماعة يقولون: إنَّ مَنْ ترك الزَّكاة عاصٍ، ناقصُ الإيمان؛ ومَنْ لَمْ يَصُم ناقصُ الإيمان؛ ومَنْ لَمْ يحجَّ وهو مستطيعٌ ناقصُ الإيمان؛ مَنْ زنىٰ ناقصُ الإيمان؛ مَنْ سرقَ ناقصُ الإيمان؛ لكن لا يكفرُ كما تقولُ الخوارجُ، ولا يكونُ مُخلَّدًا فِي النَّار كما تقولُ الْمُعتزلةُ، يكون مُعرَّضًا للوعيد، وعلىٰ خطرٍ، كثيرٌ منهم يَدخلُ النارَ بذُنُوبه، ثُمَّ يَشفعُ فيهم الشُّفعاءُ، ولا يُخلد فِي النَّار إلَّا الكفرةُ الَّذين أشركوا بالله، أو استحلُّوا مَحَارمَ الله، أو استحلُّوا الْحُكمَ بغير ما أنزل الله، هم الْمُخلدون فِي النار.

أمَّا الزَّانِي لا يُخلَّد لو مات علىٰ الزِّنا؛ لا يُخلَّد ولو دخل النَّار، كذلك شاربُ الخَمْر لا يخلَّدُ؛ والعاقُّ لوالديه إذا دخل النار لا يُخلَّد؛ آكلُ الرِّبا وإنْ كان مُتوعَّدًا دخل النارَ، يبقىٰ فيها ما شاء الله، ثُمَّ يخرج بعد التَّطْهير إلَىٰ الجنَّة كما جاءتْ به الأحاديثُ عَن رَسُول الله ﷺ.

ومَنْ عِندَه شكٌّ يُراجع أحاديثَ الآخِرَة، أحاديثَ الشَّفاعة؛ حتَّىٰ يعرف ما جاءت به السُّنةُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يشفعُ عدةَ شفاعاتٍ للعُصاةِ، ويُخرجهم اللهُ من النَّارِ بشَفاعَتِه، ويَشْفَع المؤمنون والأفرادُ والمَلائكةُ والمُؤمِنونَ، ثُمَّ بعد هذا يبقىٰ بقيةٌ فِي النَّار من العُصاة يُخْرجهُمُ اللهُ من النَّار بغير شفاعةٍ بعدما احترقوا، ثُمَّ يُلْقَوْنَ فِي نَهر الحياة، فيَنْبتون كما تَنْبت الحبَّة فِي حَميل السَّيْل، ثُمَّ بعد هذا يأذن لَهم اللهُ فِي دخول الجنَّة، ولا يبقىٰ فِي النَّار إلَّا الكفرةُ، هم المُخلَّدون فيها أبد الآبادِ، أمَّا العُصَاةُ فلا.

هذا قولُ أهلِ السُّنَّةِ، ما هو بقول المُرجئة.

الْمُصيبة هي الْجَهل.

مــا يبلــغُ الأعــداءُ مــن جاهــلٍ ... مــا يبلُــغ الْجَاهــلُ مــن نفســه



السؤالُ الثاني عشر: يا شيخ، الَّذي يقول: إنَّ هذا القول هو قول الـمُرجئة، ماذا نقول فيه؟

الجواب: قلنا: جهلٌ مركَّبٌ، قلنا: جهلٌ مركب، لا يَعْرف قول أهل السُّنَّة. يراجعُ كلام أهل السُّنَّة، يراجع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلام الأشعري فِي «المقالات»، وغيرهم من أهل السُّنَّة، و«فتح الْمَجيد» للشَّيخ عبد الرَّحمن ابن حسن وغيرهم، ويراجعُ «شرح الطحاوية» لابن أبِي العز، ويراجع كتاب «التوحيد» لابن خزيمَة وأشباهه، حَتَّىٰ يعرف كلام أهل السُّنَّة.

فإذا كان جاهلًا جهلًا مركبًا، لا يَحكم علىٰ النَّاس بِجهْله.

نسأل الله لنا وله الْهِدَاية.

السؤال الثالثُ عشر: أعمالُ الجوارحِ تُعْتبر شرطَ كمال في الإيمان أم شرطَ صِحَّة للإيمان؟

الجواب: أعمالُ الْجَوارحِ فيها ما هو كمالٌ للإيمَان، وفيها ما هو ينافِي الإيمَانَ، فالصَّومُ من كمال الإيمان، والصَّدقةُ والزَّكاةُ من كمالِ الإيمَان.

وتَرْكُها نقصٌ فِي الإيمَان، وضعفٌ فِي الإيمَان، ومعصيةٌ، أمَّا الصلاةُ فالصَّوابُ أنَّ تَرْكهَا كفرٌ -نسأل الله العافية- كفرٌ أكبر، وهكذا فالإنسانُ يأتِي بالأعمالِ الصَّالِحَات، فهذا من كمالِ الإيمان، أَنْ يكثرَ من الصَّلاة، ومن صومِ التَّطوُّعِ، ومن الصَّدقات، فهذا من كمالِ الإيمَان، مِمَّا يُقوَّىٰ به إيمَانه.



السؤال الرابع عشر: إذا كان من كلمةٍ أو نصيحةٍ أخيرةٍ؟

الجواب: وَصيَّتي للجميع: التَّفقُّهُ فِي الدِّين، والتَّدبرُ للقرآن، والإكثارُ من قراءة القرآن، وتَدبُّر معانيه، والمُذاكرةُ فيما بينهم، كما دلَّ عليه القرآنُ والسُّنَّةُ، والقراءةُ فِي كتب أهل السُّنَّة؛ مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيِّم، يقرؤون كُتُبهما، فيها خيرٌ عظيمٌ، كُتُب السَّلف مثل: «تفسير ابن جرير»، وكتاب «التَّوحيد» لابن خزيمَة، و«شرح السُّنَّة» للبغوي، ومثل كتاب «شرح الطحاوية» لابن أبِي العز، وما أشباهه، و«الحَمويَّة»، و«التدمرية»، وكلُّها كتبٌ عظيمةٌ مفيدةٌ.

نسألُ اللهَ للجميع التَّوفيقَ، والْهِدَايةَ، وصلاحَ النِّيَّةِ والعملِ.



(١٥) الغَزْوُ الفِكْرِيُّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السؤال الأول: ما هو تعريفُ الغزوِ الفكريِّ فِي رأيكم؟

الجواب: الغزوُ الفكري هو مصطلحٌ حديثٌ؛ يعنِي: مَجموعةَ الْجُهود الَّتِي تقوم بِها أُمَّةٌ من الأُمَم للاسْتيلاءِ علىٰ أُمَّة أُخرىٰ، أو التَّأْثِير عليها حتَّىٰ تتَّجه وجهة مُعيَّنة، وهو أَخطرُ مِن الغَزو العَسكريِّ؛ لأنَّ الغَزوَ الفِكريَّ يَنحو إِلَىٰ السِّرِّيَّة، وسُلوكِ الْمَآرب الْخَفيَّة فِي باديءِ الأَمْر، فلا تَحس به الأُمَّة الْمَغزُوَّة، ولا تَستعِدُّ لصَدِّه، والوقوفِ فِي وجهِه، حتَّىٰ تقع فَريسةً له.

وتكون نتيجتُه أن هذه الأمةَ تصبح مريضةَ الفكر والإحساس، تُحبُّ ما يريده لَهَا عدوُّها أن تُحبه، وتكره ما يُريد منها أن تكرهه.

وهو داءٌ عُضَالٌ يَفتِكُ بالأمم، ويُذْهِبُ شخصيَّتَها، ويُزيل معانِي الأَصَالَة والقُوَّة فيها.

والأُمَّة التِي تُبتلىٰ به لا تُحس بِمَا أصابَها، ولا تدري عنه، ولذلك يصبح علاجُها أمرًا صعبًا، وإفهامها سبيل الرشد شيئًا عسيرًا.

وهذا الغَزوُ يَقع بواسِطة الْمَنَاهج الدراسيَّة، والثَّقافة العامَّة، ووسائل الإعْلَام، والْمُؤلفات الصغيرة والكبيرة، وغَير ذلك من الشؤون التِي تتصل

بالأمم، ويرجو العدو من ورائها صرفها عن عقيدتِها، والتعلق بِما يلقيه إليها، نسأل الله السلامة والعافية.



السؤال الثاني: هل يتعرض العرب عامة، والْمَملكة العربية السعودية خاصة لِهذا النوع من الغزو؟

الجواب: نعم، يتعرض الْمُسلمون عامة -ومنهم العرب وغيرهم، والْمَملكة وغيرها- لغزو فِكري عظيم، تداعت به عليهم أممُ الكُفْر من الشَّرق والغَرب. ومن أشد ذلك وأخطره:

١- الغزو النَّصرانِي الصَّليبِي.

٢- الغَزو الصُّهيونِي.

٣- الغزوُ الشيوعي الإلحادي.

أمَّا الغزو النَّصرَانِي الصَّليبِي: فهو اليوم قائم علىٰ أَشُدِّه، ومنذ أن انتصر صلاح الدِّين الأيوبِي علىٰ الصَّليبيين الغازين لبلاد الْمُسلمين بالقوَّة والسِّلاح؛ أدرك النصارىٰ أن حربَهم هذه وإن حققت انتصارات فهي وقتيَّة لا تَدوم.

ولذا فكروا فِي البديل الأنكىٰ، وتوصَّلوا بعد دراساتٍ واجتماعاتٍ إلَىٰ ما هو أخطرُ من الْحُرُوب العَسكريَّة، وهو أن تقومَ الأُممُ النَّصرَانيَّة فُرادىٰ وجَمَاعَاتٍ بالغَزو الفِكري لناشئة الْمُسلمين؛ لأن الاستيلاءَ علىٰ الفكر والقلب أمكنُ من الاستيلاء علىٰ الأرض.

فالْمُسلم الذي لَم يُلوَّث فكره لا يُطيق أن يرىٰ الكافر له الأمر والنهي فِي بلدِه، ولِهذا يعمل بكل قوته علىٰ إخراجه وإبعاده، ولو دفع فِي سبيل ذلك

حياته وأغلىٰ ثَمن لديه، وهذا ما حصل بعد الانتصارات الكبيرة للجيوش الصَّليبيَّة الغازية.

أما الْمُسلم الذي تعرض لذلك الغزو الْخَبيث، فصار مريضَ الفكر عَديمَ الإحسَاسِ، فإنه لا يَرىٰ خطرًا فِي وجود النَّصارىٰ أو غيرهم فِي أرضِه، بل قد يرىٰ أن ذلك من عَلامات الْخَير، ومِمَّا يُعين علىٰ الرُّقي والحَضارة.

وقد استغنَىٰ النَّصارىٰ بالغزو الفكري عن الغزو المَادي؛ لأنه أقوىٰ وأثبتُ، وأيُّ حاجة لَهم فِي بعث الْجُيوش وإنفاقِ الأموالِ، مع وجود من يقوم بِمَا يُريدون من أبناء الإسلام، عن قصد أو عن غير قصد، وبثمن أو بلا ثَمن؟

ولذلك لا يلجئون إلَىٰ مُحاربة المُسلمين عَلانيةً بالسِّلاح والقُوَّة، إلا فِي الْحَالاتِ النادرة الضَّروريَّة الَّتِي تَستدعي العَجلَ، كما حصل فِي غَزوة أوغندة أو الباكستان، أو عندما تدعو الْحَاجة إليها لتثبيت الْمُنطلقات، وإقامة الرَّكائز، وإيجَاد الْمُؤسسات الَّتِي تقوم بالْحَرب الفِكرية الضَّروس، كما حصل فِي مصر وسوريا والعراق وغيرها قبل الْجَلاء.

أما الغزو الصُّهيونِي: فهو كذلك؛ لأن اليهود لا يَألون جهدًا فِي إفساد الْمُسلمين فِي أخلاقهم وعقائدهم، ولليهود مطامع فِي بلاد الْمُسلمين وغيرها، ولَهم مُخطَّطات أدركوا بعضها، ولا زالوا يعملون جاهدين لتحقيق ما تبَقَّىٰ.

وهم وإن حاربوا الْمُسلمين بالقوة والسلاح، واستَوْلَوْا علىٰ بعض أرضهم، فإنَّهم كذلك يُحاربونَهم فِي أفكارهم ومعتقداتِهم، ولذلك ينشرون فيهم مبادئ ومذاهب ونِحلًا باطلة كالْمَاسونية، والقاديانية، والبهائية، والتيجانية، وغيرها، ويَستعينُون بالنَّصارىٰ وغيرهم فِي تَحقيق مآربِهم وأغراضهم.

أما الغزو الشيوعي الإلْحَادي: فهو اليوم يَسْري فِي بلاد الإسلام سريان النار

فِي الْهَشيم؛ نتيجةً للفراغ، وضعف الإيْمَان فِي الأكثرية، وغلبة الْجَهل، وقلة التَّربيةِ الصَّحيحة والسَّليمة، فقد استطاعَتِ الأحزابُ الشيوعيَّة فِي رُوسيا والصِّين وغيرِهما أن تتلَقَّف كلَّ حاقدٍ ومَوتُور من ضُعفاء الإيْمَان، أو مَعدومِي الإيْمَان، وتَجعلهم رَكائزَ فِي بلادهم، يَنشرون الإلْحَاد والفِكرَ الشيوعي الْخَبيث، وتَعِدُهم وتُمَنِّيهم بأعلَىٰ الْمَناصب والْمَراتب.

فإذا ما وقعوا تَحت سيطرتِهم أحكمت أمرها فيهم، وَأَدَّبَتْ بعضَهم ببعض، وسَفَكَتْ دماءَ مَنْ عارض أو توقف، حتَّىٰ أوجدت قطعانًا من بنِي الإنسان حربًا علىٰ أمَمهم، وأهليهم، وعذابًا علىٰ إخوانِهم وبنِي قومهم، فَمَزَّقُوا بِهم أمةَ الإسلام، وجعلوهم جنودًا للشيطان.

يعاونُهم فِي ذلك: النصارىٰ واليهود، بالتَّهْيِئَةِ والتَّوْطِئة أحيانًا، وبالْمَدَدِ والعَوْنِ أحيانًا أُخرىٰ؛ ذلك أنَّهم وإن اختلفوا فيما بينهم، فإنَّهم جَميعًا يَدٌ واحدةٌ علىٰ الْمُسلمين، يَرَوْنَ أن الإسلام هو عَدُوُّهم اللَّدودُ، ولذا نراهم مُتعاونين مُتكاتفين، بعضهم أولياءُ بعض ضِدَّ الْمُسلمين، فاللهُ سبحانه الْمُستعان، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.



السؤال الثالث: ما هي الوسائل الَّتِي يستخدمها الغرب لترويج أفكاره؟

الجواب: الوسائل الَّتِي يستخدمها الغرب لترويج أفكاره كثيرة، منها:

١- مُحاولة الاستيلاء علىٰ عقولِ أبناء الْمُسلمين، وترسيخ الْمَفاهيم الغربية فيها؛ لتعتقد أن الطريقة الفُضلىٰ هي طريقة الغرب فِي كل شيء، سواء فيما يَعْتَقِدُه من الأديان والنِّحَل، أو ما يتكلم به من اللغات، أو ما يتحلىٰ به من الأخلاق، أو ما هو عليه من عادات وطرائق.

٢- رعايته لطائفة كبيرة من أبناء الْمُسلمين فِي كل بلد، وعنايته بِهم، وتربيتهم، حتَّىٰ إذا ما تشربوا الأفكار الغربية وعادوا إِلَىٰ بلادهم، أحاطهم بِهَالة عظيمة من الْمَدح والثَّناء، حتَّىٰ يتسلموا الْمَناصب والقيادات فِي بلدانِهم.

وبذلك يُرَوِّجُون الأفكارَ الغربية، وَيُنْشِئون الْمُؤَسَّسات التعليمية الْمُسايرة للمنهج الغربِي، أو الْخَاضعة له.

٣- تنشيطه لتعليم اللُّغات الغربية فِي البلدان الإسلامية، وجعلها تزاحم لغة الْمُسلمين، وخاصَّةً اللغة العربية -لغة القرآن الكريْم- الَّتِي أنزل الله بِها كتابه، والَّتِي يتعبَّد بِها الْمُسلمون ربَّهم فِي الصلاة، والْحَج، والأذكار، وغيرها.

ومن ذلك تشجيع الدعوات الْهَدَّامة، الَّتِي تُحارب اللغة العربية، وتُحاول إضعافَ التَّمَسُّكِ بِها فِي ديار الإسلام فِي الدعوة إِلَىٰ العَاميَّة، وقيام الدراسات الكثيرة الَّتِي يراد بِها تطوير النحو، وإفساده، وتَمجيد ما يُسَمُّونَه بالأدب الشَّعْبِيِّ، والتراث القومِي.

٤- إنشاء الْجَامعات الغربية والْمَدارس التبشِيريَّة فِي بلاد الْمُسلمين، ودُور الْحَضانة، ورياض الأطفال، والْمُستشفيات، والْمستوصفات، وجعلها أوكارًا لأغراضه السيئة، وتشجيع الدراسة فيها عند الطبقة العالية من أبناء الْمُجتمع، ومساعدتهم بعد ذلك علىٰ تَسَلُّم الْمَراكز القيادية، والوظائف الكبيرة؛ حتَّىٰ يكونوا عَوْنًا لأساتذتِهم فِي تَحقيق مآربِهم فِي بلاد الْمُسلمين.

٥- مُحاولة السَّيْطَرَةِ علىٰ مناهج التعليم فِي بلاد الْمُسلمين ورسم سياستها:

إمَّا بطريق مباشر، كما حصل فِي بعض بلاد الإسلام حينما تولَّىٰ «دنلوب» القسيس تلك الْمُهمة فيها.

أو بطريق غير مباشر، عندما يؤدي الْمُهمة نفسها تلاميذ ناجحون درسوا فِي مدارس «دنلوب»، وتَخرَّجوا فيها، فأصبح معظمُهم مِعْوَلَ هَدْم فِي بلاده، وسلاحًا فَتَّاكًا من أسلحة العدو، يعمل جاهدًا علىٰ تَوْجِيه التَّعْلِيم توجيهًا علمانيًّا، لا يرتكز علىٰ الإيْمَان بالله، والتَّصْديق برسوله، وإنَّما يسير نَحو الإلْحَاد ويدعو إلَىٰ الفساد.

٦- قيام طَوائفَ كَبيرَةٍ من النَّصارىٰ واليَهود بدراسَة الإسلامِ واللُّغة العَربيَّةِ، وتأليفِ الكُتب، وتولِّي كَراسي التَّدريس فِي الْجَامعات، حتَّىٰ أحدثَ هؤلاء فِتنةً فِكريَّة كَبيرة بين الْمُثقفين من أبناء الإسلام، بالشُّبَهِ الَّتِي يُلَقِّنُونَها لِطَلَبَتِهم، أو الَّتِي تَمتلئ بِها كتبهم، وتُرَوَّجُ فِي بلاد الْمُسلمين، حتَّىٰ أصبح بعضُ تلك الكُتب مراجعَ يَرْجِع إليها بعضُ الكاتبين والباحِثين فِي الأمورِ الفِكرية أو التَّاريخِيَّة.

ولقد تَخرَّج علىٰ يد هؤلاء الْمُستشرقين من أبناء الْمُسلمين رجالٌ قاموا بنصيبٍ كبير فِي إحداث الفِتنة الكبرىٰ.

وساعدهم علىٰ ذلك ما يُحاطون به من الثَّناء والإعجاب، وما يَتَوَلَّوْنَه من مناصبَ هامَّة فِي التَّعليم والتَّوجيه والقيادة، فأكملوا ما بدأه أساتذتُهم، وحَقَّقُوا ما عجزوا عنه؛ لكونِهم من أبناء الْمُسلمين، ومن جِلدتِهم، ينتسبون إليهم، ويتكلمون بلسانِهم، فالله الْمُستعان.

٧- انطلاقُ الأعداد الكثيرة من الْمُبشرين الدَّاعين إلَىٰ النَّصرانيَّة بين الْمُسلمين، وقيامهم بعملهم ذلك علىٰ أُسس مَدروسَة، وبوسائل كبيرة عظيمة، يُجَنَّدُ لَها مئاتُ الآلافِ من الرِّجال والنِّساء، وَتُعَدُّ لَها أضخمُ الْميزانيَّات، وَتُسَهَّلُ لَها السُّبُل، وَتُذَلَّلُ لَها العَقَبَاتُ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف:٨].

وإذا كان هذا الْجهدُ مُنْصبًّا علىٰ الطبقة العاميَّة غالبًا، فإن جهودَ الاستشْراق مُوَجَّهَةٌ إِلَىٰ الْمُثقفين كما ذكرتُ آنفًا، وأنَّهم يتحملون مَشَاقًّا جسَامًا فِي ذلك العمل فِي بلاد إفريقيا، وفِي القرىٰ النائية من أطراف البلدان الإسلاميَّة فِي شرق آسيا وغيرها، ثُمَّ هم بعد كل حين يَجتمعون فِي مؤتَمرات، يراجعون حسابَهم، وينظرون فِي خُططهم، فيصححون، وَيُعَدِّلُون، وَيَبْتكِرُون.

فلقد اجتمعوا فِي القاهرة سنة (١٩٠٦م).

وفِي أدنْمبرج (١٩١٠م).

وفِي لكنو سنة (١٩١١م).

وفِي القدس (١٩٣٥م).

وفِي القدس كذلك فِي عام (١٩٣٥م).

ولا زالوا يُوَالُون الاجتماعات والْمؤتَمَرات، فسبحان مَنْ بيَدِه ملكوتُ كُلِّ شيء، وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّه.

٨- الدعوة إِلَىٰ إفساد الْمُجتمع الْمُسلم، وتزهيد الْمَرأة فِي وظيفتها فِي الْحَياة، وجعلها تتجاوز الْحُدود الَّتِي حدَّ الله لَهَا، وجعل سعادتها فِي الوقوف عندها.

وذلك حينما يُلْقُون بين الْمُسلمين الدعوات بأساليب شتَّىٰ، وطرق مُتعددة، إِلَىٰ أن تَختلط النِّساء بالرِّجال، وإِلَىٰ أن تشتغِلَ النِّساءُ بأعمال الرِّجالِ.

يَقصدونَ من ذلك: إفسادَ الْمُجتمع الْمُسلم، والقَضاءَ علىٰ الطُّهْر والعَفَاف الذي يُوجد فيه، وإقامةَ قَضايا وَهْمِيَّة، ودعاوىٰ باطلةً فِي أن الْمَرأة فِي الْمُجتمع الْمُسلم قد ظُلمت، وأنَّ لَهَا الْحَقَّ فِي كذا وكذا.

ويُريدون إخراجَها من بيتها، وإيصالَها إِلَىٰ حيث يُريدون، فِي حين أنَّ

حدودَ اللهِ واضحةٌ، وأوامرَه صريحةٌ، وسنَّةَ رسولِ الله ﷺ جليَّةٌ بيِّنةٌ.

يقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ [الأحزاب:٥٩].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية، [النور:٣١].

ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣].

ويقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

ويقول ﷺ: «إِيَّاكُمْ والدُّخولَ علَىٰ النِّساءِ»، قال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الْحَمْو[1]؟ قال: «الْحَمْوُ الْمَوْتُ[2]»[3].

وقال: «لا يَخْلُوَنَّ رجُلٌ بامْرَأةٍ، فإنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا»[4].

٩- إنشاءُ الكنائِس، والْمَعابد، وتكثيرها فِي بلاد الْمُسلمين، وصَرف الأموال الكَثيرة عليها، وتزيينها، وجعلها بارزةً واضحةً فِي أحسن الأماكن، وفِي أكبر الْمَيادين.

---

(١) «الحَمْو»: أخو الزوج وأقاربه غير آبائه وأبنائه.

(٢) «الحَمْوُ المَوْت»، أي: أنَّ الخَوْف مِنْه أكْثَر مِن غَيْرِه، والشَّر يُتَوَقَّع مِنْه والفِتْنَة أكْثَر؛ لتَمَكُّنِه مِن الوُصُولِ إِلَىٰ المَرْأة، والخلوة مِن غَيْر أنْ يُنْكَرَ عَلَيْه، بخلاف الأجنبي.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (١١٧١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٠٨).

١٠- تَخصيصُ إذاعات موجَّهة تدعو إِلَىٰ النَّصرانية والشيوعيَّة، وتشيد بأهدافها، وتُضَلِّلُ بأفكارها أبناءَ الْمُسلمين السُّذَّجَ الذين لَم يفهموا الإسلام، ولَم تكن لَهم تربية كافية علميَّة، وخاصة فِي إفريقيا، حيث يُصاحب هذا الإكثارُ من طَبْع الأناجيل، وتوزيعها فِي الفنادق وغيرها، وإرسال النَّشَرات التَّبْشيرية والدعوات الباطلة إِلَىٰ الكثير من أبناء الْمُسلمين.

هذه بعض الوسائل الَّتِي يَسْلُكُها أعداءُ الإسلام اليومَ من الشَّرْقِ والغَرْب، فِي سبيل غزو أفكار الْمُسلمين، وتَنحية الأفكار السَّليمَة الصَّالِحة، لِتحلَّ مَحَلَّها أفكارٌ أخرىٰ غريبة، شرقيَّة أو غَربيَّة.

وهي كما ترىٰ -أيها القارئ- جهودٌ جَبَّارَةٌ، وأموالٌ طائلةٌ، وجنودٌ كثيرةٌ، كل ذلك لإخراج الْمُسلمين من الإسلام، وإن لَم يدخلوا فِي النَّصرانيَّة أو اليَهوديَّة أو الْمَاركسيَّة؛ إذ يَعتقد القَوم أن الْمُهمة الرئيسية فِي ذلك هي إخراجهم من الإسلام، وإذا تَمَّ التَّوَصُّلُ إِلَىٰ هذه الْمَرحلة فما بعدها سهلٌ وميسورٌ.

ولكننا مع هذا نقول: إن الله سَيُخَيِّبُ آمالَهم، وَيُبْطِلُ كَيْدَهم، إذا صَدَقَ الْمُسلمون فِي مُحاربتهم، والْحَذر من مكائدهم، واستقاموا علىٰ دينهم؛ لقوله ﷻ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠]؛ لأنَّهم مفسدون، وهو سبحانه لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفسدين، قال الله تعالَىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق:١٥-١٧].

وقال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [مُحمَّد:٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج:٤٠-٤١]. والآيات فِي هذا الْمَعنَىٰ كثيرة.

ولا شَكَّ أن الأمر يَحتاج من الْمُسلمين إِلَىٰ وَقْفَةِ عقل، وتَأَمُّل، ودراسة، فِي الطريق الَّتِي يَجب أن يسلكوها، والْمَوقف الْمُناسب الذي يَجب أن يَقِفُوه، وأن يكون لَهم من الوعي والإدراك ما يَجعلهم قادرين علىٰ فهم مُخطَّطات أعدائهم، وعاملين علىٰ إحباطها وإبطالِها.

ولَن يَتِمَّ لَهم ذلك إلا بالاسْتِعْصَام بالله، والاسْتِمْسَاك بِهَدْيه، والرجوع إليه، والإنابة له، والاستعانة به، وتَذَكُّر هَدْيه فِي كل شيء، وخاصة فِي علاقة الْمُؤمنين بالكافرين، وتَفَهُّم معنَىٰ سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون:١]، وما ذكره سبحانه فِي قوله: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة:٢١٧].

أسأل الله سبحانه أن يُهيئ لِهذه الأمة من أمرها رشدًا، وأن يُعيذها من مكائد أعدائها، ويرزقها الاستقامة فِي القول والعمل؛ حتَّىٰ تكون كما أراد الله لَهَا من العزَّة والقوَّة والكرامة، إنه خير مسئول.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم



(١٦) كيف نحارب الغزو الثقافيَّ الغربيَّ والشَّرْقِيَّ[١]؟

الحمدُ لله وحده، والصَّلاةُ والسلام علىٰ رَسُول الله، وعلىٰ آله وصحبه.

وبعد: فممَّا لا شكَّ فيه، أن أخطرَ ما تواجهه المجتمعاتُ الإسلاميةُ في الوقت الحاضر، هو ما يُسَمَّىٰ بالغزوِ الثقافيِّ، بأسلحته المتنوعةِ من كتب، وإذاعات، وصحف، ومجلات، وغير ذلك من الأسلحة الأخرىٰ.

ذلك أنَّ الاستعمارَ في العصر الحديث قد غَيَّرَ من أساليبه القديمةِ؛ لما أدركه من فَشَلِهَا، وَعَدَمِ فعاليتها، ومحاربة الشعوب واستماتتها في الدفاع عن دينها، وأوطانها، ومُقَدَّرَاتِها، وتُرَاثِها.

حيث إن الأخذ بالقوة، وعن طريق العنف والإرهاب، مما تأباه الطِّبَاعُ، وَتَنْفِرُ منه النُّفُوس، لا سيَّما في الأوقات الحاضرة، بعد أن انتشر الوعي بين النَّاس، واتَّصَلَ النَّاسُ بَعْضُهم ببعضٍ، وأصبح هناك منظَّماتٌ وهيئاتٌ كثيرةٌ تدافع عن حقوق الشُّعوب، وَتَرْفُضُ الاستعمارَ عن طريق القوة، وتطالب بحق تقرير المصير لكل شعب، وأن لأهل كل قُطْرٍ حَقَّهم الطبيعيَّ في سيادتهم علىٰ أرضهم، واستثمارِ مواردهم، وتسييرِ دَفَّةِ الحُكْمِ في أوطانهم، حسب مُيولِهم، ورغباتهم في الحياة، وحسب ما تدين به تلك الشعوب من معتقدات، ومذاهب،

---

(١) ورد في العدد الثامن من مجلة البحوث الإسلامية للأشهر الربيعين والجمادين عام ١٤٠٤ هـ أسئلة وأجوبة عن الغزو الفكري معي من إعداد تحرير المجلة.

وأساليب مختلفة للحكم، مما اضْطرَّ معه إلىٰ الخروج عن هَذِهِ الأقطار بعد قتال عنيف، وصدامات مسلحة، وحروب كثيرة دامية.

ولكنه قبل أن يخرج من هَذِهِ الأقطار فكَّرَ في عِدَّةِ وسائل، واتخذ كثيرًا من المخطَّطَات بعد دراسة واعية، وتفكير طويل، وتَصَوُّرٍ كامل لأبعاد هَذِهِ المخطَّطات، ومدىٰ فعاليتها، وتأثيرها، والطُّرُقِ الَّتي يَنْبَغِي أن تُتَّخَذَ للوصول إلىٰ الغايةِ الَّتي يريد.

وأهدافُه تتلخص في إيجاد مناهج دراسية علىٰ صلة ضعيفة بالدين؛ مبالغةً في الدَّهَاءِ والمَكْرِ والتَّلْبِيسِ، رَكَّزَ فيها علىٰ خدمة أهدافه، وَنَشْرِ ثَقَافَتِهِ، وترسيخ الإعجاب بما حَقَّقَهُ في مجال الصِّناعات المختلفة، والمكاسب المادية، في نفوس أغلب النَّاس، حتَّىٰ إذا ما تَشَرَّبَتْ بها قُلوبُهم، وأُعْجِبُوا بمظاهرِ بَرِيقِها وَلَمَعانِها، وعظيم ما حَقَّقَتْهُ وأنجزته من المكاسب الدُّنيوية، والاختراعات العجيبة، لا سيما في صفوف الطلاب والمتعلمين الَّذين لا يزالون في سِنِّ المراهقة والشباب- اختارت جماعة منهم ممَّن انطلىٰ عليهم سِحْرُ هَذِهِ الحضارة لإكمال تعليمهم في الخارج، في الجامعات الأوربية والأمريكية وغيرها، حيث يواجَهون هناك بسلسلة من الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ علىٰ أيدي المُسْتَشْرِقين والمُلْحِدين بِشَكْلٍ مُنَظَّمٍ، وخططٍ مدروسةٍ، وأساليب مُلْتَوِيَةٍ في غايةِ المَكْرِ والدَّهَاءِ، وحيث يواجهون الحياةَ الغربيةَ، بما فيها من تَفَسُّخٍ وَتَبَذُّلٍ وَخَلَاعَةٍ وَتَفَكُّكٍ وَمُجُونٍ وَإِبَاحِيَّةٍ.

وهَذِهِ الأسلحةُ وما يصاحبُها من إغراءٍ وتشجيعٍ وعدم وازعٍ من دينٍ أو سلطةٍ، قَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْ شِبَاكِهَا، وَيَسْلَمُ من شرورها، وهؤلاء بعد إكمال دراستهم، وعودتهم إلىٰ بلادهم، وَتَسَلُّمِهم المناصبَ الكبيرةَ في الدولة، أخطرُ

من يَطْمَئِنُّ إليهم المستعمرُ بعد رحيله، ويضع الأمانةَ الخسيسةَ في أيديهم؛ لِيُنَفِّذُوها بكل دِقَّةٍ، بل بوسائل وأساليب أشد عنفًا وقسوةً من تلك الَّتي سَلَكَهَا المُسْتَعْمِرُ، كَمَا وقع ذلك فعلًا في كثير من البلاد الَّتي ابتليت بالاستعمار، أو كانت علىٰ صلة وثيقة به.

أمَّا الطريقُ إلىٰ السَّلامةِ من هَذَا الخَطَرِ، والبعد عن مساوئه وأضراره، فيتلخص في إنشاء الجامعات والكليات والمعاهد المختلفة بكافة اختصاصاتها؛ للحد من الابتعاث إلىٰ الخارج، وتدريس العلوم بكافة أنواعها، مع العناية بالمواد الدينية، والثقافة الإسلامية، في جميع الجامعات والكليات والمعاهد؛ حرصًا علىٰ سلامة عقيدةِ الطلبةِ، وصيانةِ أخلاقِهم، وخوفًا علىٰ مُسْتَقْبَلِهِم، وحتَّىٰ يساهموا في بناء مجتمعهم علىٰ نور من تعاليم الشريعة الإسلامية، وحسب حاجات ومتطلبات هَذِهِ الأُمَّة المُسْلمة، والواجبُ التَّضْييقُ من نطاق الابتعاث إلىٰ الخارج، وَحَصْرُهُ في علومٍ معينةٍ لا تتوافر في الداخل.

فنسأل اللهَ التوفيق لكل ما فيه صلاح العباد والبلاد، وحماية المسلمين من كل ما يضرهم في عقائدهم وأخلاقهم، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

وهَذَا المَقام مع ما ذكرنا آنفًا يحتاج إلىٰ مزيد من العناية في إصلاح المناهج، وَصَبْغِهَا بالصِّبْغَةِ الإسلاميةِ علىٰ وَجْهٍ أَكْمَلَ، والاستكثار من المؤسَّسات العلمية الَّتي يستغني بها أبناء البلاد عن السفر إلىٰ الخارج، واختيار المدرسين والمدرسات والمديرين والمديرات، وأن يكون الجميع من المعروفين بالأخلاق الفاضلة، والعقيدة الطيبة، والسيرة الحسنة، والغيرة الإسلاميَّة، والقوة والأمانة؛ لأنَّ مَنْ كَانَ بهَذِهِ الصِّفات أُمِنَ شَرُّهُ، وَرُجِيَ خَيْرُهُ، وَبَذَلَ وُسْعَهُ في كُلِّ ما من شأنِهِ إيصالُ المَعْلوماتِ إِلَىٰ الطَّلبة والطَّالبات سليمةً نَقيَّةً.

أما إذا اقتضتِ الضَّرورة ابتعاثَ بعض الطلاب إلىٰ الخارج لعدم وجود بعض المعاهد الفنية المتخصصة، لا سيما في مجال التصنيع وأشباهه، فأرىٰ أن يكون لذلك لجنة علمية أمينة، لاختيار الشَّباب الصَّالح في دينه وأخلاقه، المُتَشَبِّعَ بالثقافةِ والرُّوحِ الإسلاميةِ، واختيارِ مُشْرِفٍ علىٰ هَذِهِ البعثة معروفٍ بعلمه وصلاحِه ونشاطِه في الدَّعوة؛ ليرافق البعثةَ المذكورةَ، ويقومَ بالدعوة إلىٰ الله هناك، وفي الوقت نفسه يُشْرِفُ علىٰ البعثة، وَيَتَفَقَّدُ أحوالَها، وَتَصَرُّفات أفرادها، ويقوم بإرشادهم، وتوجيههم، وإجابتهم عما قد يعرض لهم من شُبَهٍ وَتَشْكِيكٍ وغير ذلك.

وَيَنْبَغِي أن يُعْقَدَ لهم دورة قبل ابتعاثهم ولو قصيرة، يدرسون فيها جميع المشاكل والشُّبُهات الَّتي قد تواجههم في البلاد الَّتي يُبْتَعَثُونَ إليها، وَيُبَيَّنَ لهم موقفُ الشَّريعة الإسلامية منها، والحكمةُ فيها، حَسَبَ ما دَلَّ عليه كتابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ وكلامُ أهل العلم، مثل أحكام الرِّقِّ وَتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ بصفةٍ عامَّةٍ، وتَعَدُّدِ أزواج النَّبيِّ ﷺ بصفة خاصَّةٍ، وَحُكْمِ الطَّلاقِ، وحِكْمَةِ الجِهَادِ ابتداءً ودفاعًا، وَغَيْرِ ذلك من الأمورِ الَّتي يُورِدُها أعداءُ الله علىٰ شباب المسلمين؛ حتَّىٰ يكونوا علىٰ استعداد تامٍّ للرَّدِّ علىٰ ما يَعْرِضُ لهم من الشُّبَهِ.

أما عن مجابهة الغزو المتمثل في الإذاعات، والكتب، والصُّحُفِ، والمَجَلَّاتِ، والأقلام الَّتي ابْتُلِيَتْ بها المجتمعاتُ الإسلاميةُ في هَذَا العصر، وَأَخَذَتْ تَشْغَلُ أَكْثَرَ أوقاتِ المرءِ المسلمِ والمرأةِ المسلمةِ، رَغْمَ ما تَشْتَمِلُ عليه في أكثر الأحيان من السُّمِّ الزّعاف، والدِّعاية المضلِّلَةِ- فهي من أهم المهمَّات لحمايةِ الإسلام والثَّقَافة الإسلاميةِ من مكائِدِهِ وَشَرِّهِ، مع التأكيد علىٰ دعاةِ الإسلام وحُمَاتِهِ، للتَّفَرُّغِ لكتابةِ البحوثِ، والنَّشَراتِ، والمَقَالاتِ النَّافعةِ،

والدَّعْوَةِ إلىٰ الإسلامِ، والرَّدُّ علىٰ أصنافِ الغزوِ الثَّقافيِّ، وَكَشْفِ عَوَارِهِ، وَتَبْيِينِ زَيْفِهِ؛ حيث إن الأعداءَ قد جَنَّدُوا كافَّةَ إمكاناتهم، وقدراتهم، وأوجدوا المنظَّمات المختلفة، والوسائل المتنوعة للدَّسِّ علىٰ المسلمين، والتَّلْبِيسِ عليهم.

فلا بُدَّ من تَفْنِيدِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ، وَكَشْفِهَا، وَعَرْضِ الإسلام عقيدةً وتشريعًا وأحكامًا وأخلاقًا عرضًا شيِّقًا صافيًا جَذَّابًا، بالأساليب الطَّيِّبَةِ العَصْرِيَّةِ المُنَاسِبَةِ، وعن طريق الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالَّتي هي أحسنُ، من طريقِ جميعِ وسائلِ الإعلامِ، حَسَبَ الطَّاقَةِ والإمكان؛ لأنَّ دينَ الإسلامِ هو الدِّينُ الكاملُ الجامعُ لِكلِّ خَيْرٍ، الكفيلُ بسعادةِ البَشَرِ، وَتَحْقِيقِ الرُّقِيِّ الصَّالِحَ، والتَّقَدُّمَ السَّليمَ، والأَمْنَ، والطُّمَأْنِينَةَ، والحياةَ الكريمةَ، والفوزَ في الدُّنْيا والآخرة.

وما أصيب المسلمون إلَّا بِسَبَبِ عَدَمِ تَمَسُّكهم بدينهم كَمَا يَجِبُ، وَعَدَمِ فَهْمِ الأكثرين لحقيقته، وما ذلك إلَّا لإعراضهم عنه، وعدم تَفَقُّهِهِم فيه، وتقصير الكثير من العلماء في شرحِ مزاياه، وإبرازِ محاسنه وحِكَمِهِ وأسراره، والصِّدقِ والصَّبرِ في الدعوةِ إليه، وَتَحَمُّلِ الأذىٰ في ذلك بالأساليب والطرق المُتَّبَعَةِ في هَذَا العَصْرِ، ومن أَجْلِ ذلك حَصَلَ ما حَصَلَ اليوم من الفُرْقَةِ، والاختلافِ، وَجَهْلِ الأكثر بأحكام الإسلام، والتباسِ الأمور عليهم.

ومعلومٌ أنَّه لن يُصْلِحَ آخرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلَّا ما أصلح أَوَّلَها، والَّذي صَلَحَ به أَوَّلُها هو اتِّباعُ كتاب الله الكريم، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الأمين، عليه من ربِّه أفضل الصَّلاة والتَّسليم، كَمَا قَالَ تَعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف:٣]، وَقَالَ تَعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ

ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]، وَقَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥].

وقد وَعَدَهُم الله ﷻ علىٰ ذلك النَّصْرَ المبينَ، والعاقبةَ الحميدةَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَه وهو أصدق القائلين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، وَقَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠]، وَقَالَ ﷿: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور:٥٥]، وَقَالَ سُبْحَانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٧]. والآيات في هَذَا المعنىٰ كثيرةٌ.

وَلَمَّا حَقَّقَ سَلَفُنَا الصَّالحُ هَذِهِ الآياتِ الكريماتِ قَوْلًا وعملًا وعقيدةً، نَصَرَهُمُ اللهُ علىٰ أعدائهم، وَمَكَّن لهم في الأرض، وَنَشَرَ بهم العدلَ، وَرَحِمَ بهم العبادَ، وجعلهم قادةَ الأُمَّةِ، وأئمةَ الهدىٰ، وَلَمَّا غَيَّرَ مَنْ بعدهم غَيَّرَ عليهم، كَمَا قَالَ سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

فنسأل الله سُبْحَانَه أن يَرُدَّ المسلمين حكوماتٍ وشعوبًا إلىٰ دينهم رَدًّا حميدًا، وأن يَمْنَحَهُم الفِقْهَ فيه، والعملَ به، والحُكْمَ به، وأن يجمع كلمتَهم علىٰ الحق، وَيُوَفِّقَهُم للتَّعاون علىٰ البرِّ، والتَّقوىٰ، والتَّواصي بالحَقِّ، والصَّبْرِ عليه، إنَّه سميعٌ قريبٌ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا وسيِّدنا مُحمَّدٍ، وآلِهِ، وصحبِهِ، وأتباعِهِ بإحْسَانٍ



(١٧) أهمية العلم في محاربة الأفكار الهدَّامة[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ عبده ورَسُولِهِ، وخِيرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَمِينِه علىٰ وَحْيِهِ، نبيِّنا محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم، واتَّبع هداهم إلىٰ يوم الدين.

وبعد: فإني أُحَيِّيكم أَيُّها الإخوةُ وَأَيُّها الأبناء بتحية الإسلام، فأقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثمَّ إني أشكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما مَنَّ به من هَذَا اللِّقاء، وأسأله سُبْحانَه أن يجعله لقاء مباركًا ومفيدًا لنا جميعًا، وَمُوَصِّلًا لما يُرْضِيه وَيُقَرِّبُ إليه، قاضيًا علىٰ كثيرٍ من أسباب الفساد والبلاء، وَعَوْنًا علىٰ ظهور الحق وَدَرْءِ الباطل.

ثمَّ إني أشكر القائمين علىٰ هَذَا المشروع علىٰ دعوتهم لي للتحدث إليكم، والإجابة عن أسئلتكم، وأسأله سُبْحانَه أن يَجْزِيَهم علىٰ عَمَلِهم خيرًا، وأن يَجْعَلَنَا وإيَّاهم من الهُدَاة المهتدين، وأن يُوَفِّقَنَا جميعًا لما فيه إظهار الحق، وإدحاض الباطل، وإجابة السَّائلين بما يُوَافق الصَّوَاب للحقِّ الَّذي يُرْضي المَوْلىٰ عَزَّوَجَلَّ. والعنوان كَمَا سَمِعْتُم: «أهميةُ العلمِ في محاربةِ الأفكار الهدَّامة». هَذَا هو عنوانُ كلمتي الَّتي أَلقيتُها بين أيدي إخواني وأبنائي.

---

(١) محاضرة ألقاها سماحة الشيخ في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في شهر ربيع الثاني عام ١٤٠٢هـ.

ولا رَيْبَ أن العلمَ هو مفتاح كلِّ خيرٍ، وهو الوسيلةُ إلىٰ أداء ما أوجب الله، وَتَرْكِ ما حَرَّمَ اللهُ، فإنَّ العملَ نتيجةُ العلم لِمَنْ وَفَّقَه الله، وهو مما يؤكد العزم علىٰ كلِّ خيرٍ، فلا إيمان ولا عمل ولا كفاح ولا جهاد إلَّا بالعلم، فالأقوال والأعمال الَّتي بغير علم لا قيمة لها، ولا نَفْعَ فيها، بل تكون لها عواقب وَخِيمةٌ، وقد تَجُرُّ إلىٰ فسادٍ كبير.

وإنما يُعْبَدُ اللهُ وَيُؤَدَّىٰ حَقُّهُ وَيُنْشَرُ دينُه وَتُحَارَبُ الأفكارُ الهَدَّامةُ والدَّعَوات المضلِّلَة والأنشطة المنحرفة، بالعلم النَّافع، المُتَلَقَّىٰ عن كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وهكذا إنما تؤدىٰ الفرائضُ بالعلم، وَيُتَّقَىٰ اللهُ بالعِلْمِ، وبه تُكْشَفُ الحقائقُ الموجودةُ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ محمدٍ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، قَالَ -جَلَّ وَعَلَا- في كتابِهِ العزيز: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣]

فجميعُ ما يُقَدِّمُه أهلُ الباطل، وما يُلَبِّسُون به في دعواتهم المضلِّلَةِ، وفي توجيهاتهم لغيرهم بأنواع الباطل، وفي تشكيكهم غيرهم فيما جاء عن الله عَزَّوَجَلَّ، وعن رَسُول الله ﷺ- كُلُّه يَنْدَحِضُ وَيُكْشَفُ بما جاء عن الله ورَسُولِهِ بعبارة أوضح، وبيان أكمل، وبحجَّةٍ قَيِّمَةٍ تَمْلأُ القلوبَ وتؤيدُ الحقَّ.

وما ذاك إلَّا لأنَّ العلمَ المأخوذَ من الكتابِ العزيزِ والسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ، عِلْمٌ صَدَرَ عن حكيمٍ عليمٍ، يَعْلَمُ أحوالَ العباد، وَيَعْلَمُ مشكلاتهم، ويعلم ما في نفوسهم من أفكار خبيثة، أو سليمة، ويعلم بما يأتي به أهلُ الباطل فيما يأتي من الزمان، كل ذلك يعلمه سُبْحَانه، وقد أنزل كتابه لإيضاح الحق وكشف الباطل، وإقامة الحُجَجِ علىٰ ما دَعَتْ إليه رُسُلُه عَلَيهم الصَّلاة والسَّلام، وقد أرسل

رَسُوله محمدًا ﷺ بالهدىٰ، ودين الحق، وأنزل كتابه الكريم تبيانًا لكل شيءٍ، وهدًىٰ ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين.

وإنما يَعْمَلُ أهلُ الباطل وَيَنْشَطُون عند اختفاءِ العلمِ، وظُهورِ الجَهْلِ، وخُلُوِّ الميدان مِمَّنْ يَقُول: قَالَ الله وَقَالَ الرَّسُول، فعند ذلك يَسْتَأْسِدُون ضد غيرهم، وَيَنْشَطُون في باطِلِهم؛ لعدم وجودِ مَنْ يَخْشَوْنَهُم من أهلِ الحَقِّ والإيمان، وأهل البصيرة، وقد ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه كلَّ شيء، إجمالًا في مواضع، وتفصيلًا في مواضع أخرىٰ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

وهَذَا كلام الحكيمِ العليمِ الَّذي لا أصدق منه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، وَأَوْضَحَ سُبْحانَه في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩] أَنَّه مع كونه تبيانًا لكل شيء فيه هدىٰ ورحمة وبشرىٰ، فهو بيانٌ للحقِّ، وإيضاحٌ لِسُبُلِهِ ومناهجِه، ودعوةٌ إليه بأوضح عبارة، وَأَبْيَنِ إشارة.

ومع ذلك فهو هدىٰ للعالمين في كلِّ ما يحتاجون إليه في ذكر ربِّهم والتَّوَجُّهِ إلىٰ ما يُرْضِيه، والبعدِ عن مساخِطِهِ، وَيُبَيِّنُ لهم طريق النجاح وسبيلَ السعادةِ، مع كونه رحمةً في بيانه وإرشاده، وهدًىٰ وإحسانًا وبشرىٰ، وتطمينًا للقلوب، بما يُوَضِّحُ من الحقائق، وَيُرْشِدُ إليه من البَصَائِرِ الَّتي تَخْضَعُ لها القلوبُ، وَتَطْمَئِنُّ إليها النُّفُوسُ، وَتَنْشَرِحُ لها الصُّدورُ، بوضوحها وظهورها.

يَقُول سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧]، ويَقُول سُبْحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء:٥٩]، ويقول سُبْحَانه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى:١٠].

ولولا أن كتابه عَزَّوَجَلَّ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ فيهما الهداية والكفاية لما رَدَّ النَّاسَ إليهما، ولَكَانَ رَدُّهُ إليهما غيرَ مفيدٍ، تعالىٰ الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنما رَدَّ النَّاس إليهما عند التنازع والخلاف؛ لما فيهما من الهداية، والبيان الواضح، وحل المشكلات، والقضاء علىٰ الباطل.

ثمَّ ذَكَرَ أن هَذَا شرطٌ للإيمان فَقَالَ سُبْحَانه: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩]، ثمَّ ذكر أنَّه خيرٌ للعباد في العاجل والآجل وأحسنُ عاقبةً؛ يعني أن ردَّهم ما يتنازعون فيه إلىٰ الله والرَّسُول خيرٌ لهم في الدنيا والآخرة، وأحسن لهم في العاقبة.

ومن هَذَا يُعْلَمُ أنَّ في كتاب الله العزيز وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الأمين حَلًّا لجميع المشكلات، وبيانًا لكل ما يحتاجه النَّاس في دينهم، وفي القضاء علىٰ خصوماتهم، كَمَا أن في ذلك النَّصْرَ للدَّاعي إلىٰ الحقِّ، والقضاء علىٰ خَصْمِهِ بالحُجَّةِ الواضحةِ، ولهَذَا يَقُول سُبْحَانه: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

والمَثَلُ يَعُمُّ كُلَّ ما يُقَدِّمون مِنْ شُبْهَةٍ يزعمونها حُجَّةً، ومِنْ مَذْهَبٍ يَدَّعونه صحيحًا، ومِنْ دعوةٍ يزعمون أنَّها مفيدةٌ، كُلُّ ذلك يَكْشِفُهُ هَذَا الكتاب وما جاءت به سُنَّةُ رَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام.

فجميعُ ما يُقَدِّمونه من مشكلات، وشُبُهات، ودعوات مضلِّلة، ومذاهب هَدَّامَةٍ، كُلُّ ذلك يَكْشِفُهُ العلمُ بهَذَا الكتاب، وسُنَّةِ الرَّسُول عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، ومعلومٌ أنَّ الأفكارَ الهَدَّامَةَ، والمبادئَ الضَّالَّةَ، والمذاهبَ المنحرفةَ كثيرةٌ، والمُلَبِّسُون للحقِّ بالباطل لا يُحْصَوْنَ، وكذلك دعاةُ الباطلِ والمؤلِّفون في الصَّدِّ عَنْ سبيلِ اللهِ لا يُحْصِيهم إلَّا الله، وهم يُلَبِّسُونَ علىٰ النَّاسِ باطِلَهم بما يُحَرِّفون مِنَ الكَلِمِ.

ولقد كَثُرَ الخطباءُ والمتكلِّمون في الإذاعات، وفي التِّلفازِ، وفي كُلِّ مجالٍ: في الصَّحافة، والمجتمعات، وفي كلِّ نافذة، كُلٌّ يدعو إلىٰ نِحْلَتِهِ، وينادي إلىٰ فكرته، وَيُمَنِّي غَيْرَه، وَيَدْعُوه إلىٰ الباطلِ، ولا مَخْرَجَ من هَذِهِ المِحَنِ، ولا طريقَ للتَّخَلُّصِ منها والقضاء عليها إلَّا بِعَرْضِهَا علىٰ هَذَا الميزانِ العظيمِ، (الكتابِ، والسُّنَّةِ).

ففي عَرْضِهَا علىٰ هَذَا الميزانِ العظيمِ تَمْحيصُها، وبيانُ حَقِّها من باطلها، ورشدِها مِنْ غَيِّهَا، وهُدَاها مِنْ ضَلَالِها، وبذلك يَنْتَصِرُ الحقُّ وأهلُه، ويَنْدَحِرُ الباطلُ وأهلُه.

فإذا تَقَدَّمَ دعاةُ الشُّيوعية والاشتراكية المنكرون لوجود الله، والقائلون: (لا إله، والحياةُ مادةٌ) المُكَذِّبون بالحقِّ، والمنكرون لكتابِ الله، وما وَرَدَ فيه من الأدلة النَّقْلِيَّة والعقلية علىٰ وجود الباري، وقدرته العظيمة، وعلمه الشامل، فارجِعُوا إلىٰ كتابِ اللهِ، واقرؤوا من آياته ما يرشد إلىٰ دلائل وجوده سُبْحانَه، وأنَّه الصَّانعُ الحكيم لهَذِهِ الأشياء، والموجدُ لها، والخالقُ لها سُبْحانَه.

وقد أرشد سُبْحانَه في كتابه الكريم إلىٰ ذلك، وَبَيَّنَ أنَّه ربُّ العالمين، وأنَّه الخلَّاقُ العليم، وأنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وأنَّه يَنْصُرُ الحَقَّ.

وَيُقِيمُ الأدلةَ علىٰ ذلك في مواضع كثيرةٍ من كتابه؛ ليعتمد عليها طالبُ الحقِّ، يَقُول سُبْحانَه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، ثمَّ يَقُول سُبْحانَه بعدها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

ويَقُول تَبارَك وتَعَالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة:٢١]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢]، ويَقُول: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]، ويَقُول سُبْحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويَقُول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

إلىٰ آيات كثيرة يرشد بها سُبْحانَه أنَّه ربُّ العباد، وأنَّه ربُّ العالمين، وأنَّ الرُّسُلَ جاءت بهذا، كَمَا قَالَ جلَّ وَعَلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، ويَقُول تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، ويَقُول سُبْحانَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢]،

ويقُول جلَّ وعَلَا: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣]، ويقُول سُبْحانَه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢﴾ [الزمر:٦٢]، ويقُول سُبْحانَه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣].

ثمَّ يُبيِّنُ الأدلةَ في مواضع كثيرة، عندما يتأملها المؤمنُ يعرف أنَّ الدَّليلَ النَّقْلِيَّ مُؤَيَّدٌ بالدَّليل العقليِّ المشاهَدِ المحسوسِ، ولهَذَا ذَكَرَ سُبْحانَه بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] الحُجَّةَ علىٰ ذلك فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة:٢١].

والمعنىٰ: أن هَذَا الخالقَ لنا هو المستحقُّ أن نَعْبُدَهُ؛ لكونه خَلَقَنا، ولأنَّه يَرْعىٰ مَصَالحَ العباد، وهَذَا أمرٌ معلومٌ بالفِطَرِ السَّليمةِ والعُقُولِ الصَّحيحةِ، فهُمْ لم يَخْلُقُوا أنفسَهم، فقد خَلَقَهُم بارؤُهم، فالله هو الخالقُ بالأدلةِ النَّقْلِيَّةِ والعقليَّةِ، ثمَّ قَالَ سُبْحانَه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:٢٢].

بيَّنَ ﷻ كيف تُدْرَكُ هَذِهِ الأشياءُ المشاهَدةُ، المخلوقةُ الَّتي يدركها العقلُ، وَيُدْرِكُها كُلُّ إنسانٍ، فَجَعَلَ الأرض فراشًا لنا ننام عليها، ونسير عليها، ونرعىٰ المواشي عليها، ونحمل عليها، نزرع عليها الأشجار، ونأخذ منها المعادن، إلىٰ غير ذلك، ثمَّ أنزل من السماء ماءً من السَّحَاب، أنزل المطر، فأخرج به الثمرات لنا.

مَن الَّذي أنزل المطر؟

من الَّذي أخرج هَذِهِ الثمار الَّتي يأكلها النَّاس والدَّوَابُّ مما زرعوا، ومن غير ما زرعوا؟

كُلُّهَا من آياتِ اللهِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ علىٰ قدرته العظيمةِ، وأنَّه رَبُّ العالمين؛ أرضٌ مستقرَّةٌ أرساها رَبُّنَا بالجبال الَّتي جَعَلَها أوتادًا لها، وجعلها مُمَهَّدَةً ساكنةً نعيش عليها، ونطمئن نحن ودوابُّنا وسَيَّاراتُنا فَوْقَهَا، وَتَطيرُ في فضائها طائراتُنا، وَنَتَمَتَّعُ بجميع ما خَلَقَ فيها، والسماءُ كذلك خَلَقَهَا فَوْقَنَا، وَزَيَّنَها بالكواكب السَّيَّاراتِ والثَّوابتِ، وَجَعَلَ فيها الشَّمْسَ والقَمَرَ؛ ليعلم العبادُ قدرةَ الخالقِ العظيمِ، والعليِّ الكبيرِ الَّذي لا شريك له في ذلك ﷻ.

ثمَّ هَذِهِ المزروعاتُ الكثيرةُ، والثِّمارُ المُنَوَّعَةُ الَّتي فيها المنافع الكثيرة، والمصالح العظيمة، مع اختلاف أشكالها، وألوانها، وأحجامها، وطعومها، ومنافعها، إلىٰ غير ذلك هنا، تُظْهِرُ قدرةَ الله سُبْحانَه، واستحقاقَه للعبادة، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

فهو سُبْحانَه يُبَيِّنُ لنا في هَذِهِ الآياتِ الَّتي نشاهدها ونراها ونحسُّ بها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

هَذِهِ السماوات مع اتِّساعها، وارتفاعها، وما فيها من عجائب، وغرائب، وهَذِهِ الأرض مع سَعَتِهَا، وانبِسَاطِهَا، وما فيها من أنهارٍ، وجبالٍ، وغيرِ ذلك، ثمَّ اختلاف الليل والنَّهار، وما أنزل من السَّماء من ماء، وما أخرج من البحر من أشياء تنفع النَّاس، وما يحملُهُ ماؤها من البواخر الَّتي أمسكها علىٰ ظهر هَذَا الماء، تُحَصِّلُ حاجاتِ النَّاس، وَتَحْمِلُهُم أيضًا مِنْ بلادٍ إلىٰ بلادٍ.

ثمَّ أنزل من السَّماء ماءً، فأحيا به الأرضَ بعد موتها، وَبَثَّ فيها من كلِّ دابَّةٍ، وتصريف الرياح، والسَّحاب المُسَخَّر بين السَّماء والأرض، هَذِهِ الآيات العظيمة لمن تَدَبَّرَهَا تُرْشِدُهُ إلىٰ وجودِ بارِئِها، وخالِقِها الَّذي خلقه، وَأَوْجَدَهُ مِنَ العَدَمِ، وأنَّه ربُّ العالمين ﷻ، وأنَّ هَذِهِ المخلوقات لا قِوامَ لها إلَّا به سُبْحانَه، كَمَا قَالَ عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

فهَذِهِ الآياتُ الَّتي نشاهدها، والدَّلائلُ الَّتي نقرؤها وَنَعْلَمُهَا، إنَّما يَنْتَفِعُ بها ذَوُو العقولِ السَّليمةِ، والبصائرِ المستقيمةِ، ولهَذَا قَالَ سُبْحانَه في آخر الآية: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد:٤].

والرُّسُلُ -عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم أَصْدقُ النَّاس، وقَدْ أَقاموا الأدلَّةَ والمُعْجزاتِ عَلَىٰ صِدْقِهِم، وقَدْ أَخْبَرونا بهَذَا، وأنَّ هَذَا صُنْعُ اللهِ، وأنَّه رَبُّنَا وخالقُنا، وأنَّه الرَّحمن، وأنَّه الرَّحيم، وأنَّه السَّلام، وأنَّه القُدُّوسُ، إلىٰ غَيْر ذَلِكَ من أسمائِهِ الحُسْنَىٰ ﷻ.

كَمَا أَخْبَر -جَلَّ وَعَلَا- في كتابِهِ العظيم أنَّه الحكيمُ العليمُ القادرُ علىٰ كُلِّ شيءٍ جَلَّ وعلا، وفي هَذَا أَبْلَغُ رَدٍّ علىٰ دُعَاةِ الشُّيوعيَّةِ، والدَّهْرِيَّةِ، وَالاشْتِرَاكيَّة، وغَيْرهم مِمَّنْ أَنْكَروا وُجُودَ الله، فهَلْ هَذِهِ المَخْلوقات وهَلْ هَذِهِ المَوْجودات تَخْلق نَفْسها وتُنْشِئ نفسها؟ هَلْ يَقُول هَذَا عاقلٌ؟! بَلْ كوبُ الماء لو قُلْتَ لعاقلٍ: إنَّه خَلَقَ نَفْسَه؛ لقَالَ: إنَّك مجنونٌ، وهَكَذا كوبُ الشَّاي، وكوب القَهْوة، والملعقة، والعَصَا، كلُّها معروفٌ مَنْ صَنَعَها، فكَيْفَ بهَذَا العالَمِ العظيم الَّذي أَنْشَأه الخالقُ سُبْحانَه من العَدَمِ، وَجَعَلَ فيه من الآيَاتِ والمَنَافعِ ما لا يُحْصَىٰ؟ فهو المُبْدِعُ، سُبْحانَه وتَعَالىٰ عَمَّا يَقُولُ الظَّالمون عُلُوًّا كبيرًا.

ثمَّ هَذَا الخالقُ قَدْ بَيَّنَ أسماءً تَلِيقُ بِذَاتِهِ، وَبَيَّنَتِ الرُّسُلُ صِفَاتِهِ وَأَسْمَاءَهُ، وَدَلُّوا عَلَيْهِ، وَأَرْشَدُوا إِلَيْهِ، وَقَامَتِ الدَّلائِلُ علىٰ صِدْقِهِم، وعلىٰ رَأْسِهم نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، أصدقُ الأنبياء وَأَفْضَلُهُم، قَد بَعَثَهُ اللهُ بِكِتَابِهِ العظيمِ، والرِّسَالةِ العامَّةِ الَّتي أَوْضَحَ بها كُلَّ شيءٍ.

ثمَّ يأتي دُعَاةُ المَاسُونيَّة، الَّذين يُريدُونَ أن يَرُدُّوا النَّاسَ إلىٰ الأَحْوَالِ البَهِيميَّة، والمُسَاواة في كُلِّ شيءٍ، ويُحَارِبُوا مَكَارمَ الأَخْلَاقِ، ومَحَاسنَ الأَعْمَالِ؛ لِيَجْعَلُوهم كالبَهَائِمِ، لا يُمَيِّزونَ حقًّا من باطلٍ، ولا خيرًا من شَرٍّ.

وهَذَا كُلُّه خلاف ما دَعَتْ إليه الرُّسُلُ عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وخلافُ ما دَلَّ عَلَيه القرآنُ الكريمُ المُعْجزُ، وهو أيضًا خلافَ ما دَلَّتْ عَلَيه العُقُولُ الصَّحيحةُ، والفِطَرُ السَّليمةُ الَّتي فَطَرَ اللهُ العبادَ عَلَيها، فإنَّ اللهَ سُبْحانَه فَطَرَ النَّاسَ علىٰ الاعترافِ بمَكَارم الأَخْلاقِ، ومَحَاسنِ الأَعْمَالِ، والعدلِ، والحقِّ، وكراهةِ الظُّلْمِ، والعُدْوَان، والأَذَىٰ.

لقَدْ فَطَرَ اللهُ العبادَ علىٰ تَمْييز الأب من الابْنِ، والأَخ من الأُخْت، والزَّوجة من الزَّوج، حتَّىٰ البَهَائم مَيَّزُوا هَذَا عَنْ هَذَا.

كذَلِكَ مَنِ ادَّعَىٰ الإباحيَّةَ، وأنَّه لا حَرَجَ عَلَىٰ الإنسانِ في أيِّ حالٍ أَنْ يَعْملَ ما يَشَاء، ويَسْتبيح ما يَشَاء من مَهَازل، ومَسَاوئ، كُلُّهمْ مُلْحِدُونَ وضَالُّون.

وقَدْ أَبْطَلَ اللهُ هَذَا المذهبَ، وَبَيَّنَ ﷻ أنَّه أَرْسَلَ الرُّسُلَ، وأَنْزَل الكتابَ لبَيَان حقِّه علىٰ عبادِهِ، وما أَحَلَّ من الطَّيِّبات، وما حَرَّمَ من الخَبَائثِ، وما أَوْصَىٰ بِهِ ﷻ عِبادَه مِنَ التَّمَسُّكِ بِمَا جَاءَتْ به الرُّسُلُ، وَنَبْذِ ما خالَفَه.

ولقَدْ أَوْضَح سُبْحانَه في الكُتُب المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّماءِ تَفصيلَ الحَلَالِ من

الحَرَام، والهُدَىٰ من الضَّلال، والمَعْروفِ من المُنْكَرِ، والخيرِ من الشَّرِّ؛ فالإِبَاحيُّون والمَاسونيُّون قَدْ أَعْرَضوا عن ذَلِكَ كُلِّه، وَنَبذُوه وَرَاء ظُهُورهِمْ، فلا خُلُقًا كريمًا اسْتَقامُوا عَلَيه، ولا عقلًا صحيحًا تَمسَّكوا به، فلم يَأْخُذُوا بما جَاءَتْ به الرُّسُل من الهدىٰ، والتَّمييز بَيْنَ الحقِّ والباطل، والهُدَىٰ والضَّلال.

ومَنْ تأمَّلَ كِتَابَ الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّةَ نَبيِّهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ العَالَم، عَرَفَ أَنَّ الحَقَّ كلَّه فِيمَا جَاءَتْ به الرُّسُلُ عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، من بَيَان ما أَبَاح اللهُ، وبَيَان ما حَرَّمَهُ سُبْحانَه، وأَنَّهم بُعِثُوا ليُمَيِّزُوا بَيْنَ الطَّيِّبِ والخَبيثِ، وبَيْنَ الحَلَالِ والحَرَامِ، بما شَرَّعَ اللهُ؛ حتَّىٰ تسيرَ المُجْتمعاتُ عَلَىٰ هُدًىٰ وبيانٍ، وعَلَىٰ خيرٍ ورشادٍ، وعلىٰ الأَخْلاقِ الكريمةِ، والصِّفاتِ الحميدةِ الَّتي تَحْفَظُ للإِنْسَانِ عَقْلَهُ، ودِينَهُ، ومَالَه، وَنَفْسَه، وذُرِّيته، وَزَوْجَتَهُ، وَغيْرَ ذَلِكَ.

ولا يَتَعدَّىٰ عَلَيه غَيْرُهُ، فَيَأْمَنَ المجتمعُ، وتَسْتقيمَ الأَحْوَالُ، والأَخْلاقُ، وَيَأْمَنَ النَّاسُ، وَتَحْصُلَ لكلِّ إنسانٍ حُرِّيَّتُهُ في أَخْذِهِ، وعَطَائِهِ، وبيعِهِ، وشرائِهِ، وتَعَاطِي ما يَسَّرَ اللهُ له من الحَلَالِ، وَتَمَلُّكِهِ ما كَسَبَ بالطُّرق الشَّرعيَّة، وتَصَرُّفِهِ بما يَنْفعُهُ ولا يَضُرُّه.

وأَمَّا مَنْ دَعَا إلىٰ أفكارٍ أخرىٰ، كدَعْوةِ القاديانيَّة، وأَشْباهِهم مِمَّنْ دَعَا إلىٰ اتِّباعِ نبيٍّ جديدٍ، أو رَسُولٍ جديدٍ، فدَعْواه باطلةٌ، وأفكارُهُ مُضَلِّلَةٌ زائفةٌ؛ لأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بَيَّنَ في كتابِهِ المبينِ أَنَّ محمَّدًا -عَلَيه الصَّلاة والسَّلام- خاتمُ النَّبيِّين.

وقَدْ جاء ذلك في الأَحَاديث المُتَواترة عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَبَشَّرَتْ به النُّبُوَّاتُ السَّابقةُ، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ولكِنْ هُنَاكَ أَشْبَاه الأَنْعَامِ، تَلْتبس عَلَيهم كلُّ دَعْوىٰ، ويَخْفىٰ عَلَيهم كلُّ شَيءٍ، ولا يُمَيِّزونَ بَيْنَ حقٍّ وَبَاطلٍ، وَلَا يُفَرِّقونَ بَيْنَ هدًىٰ وضلالٍ.

فكلُّ ما يدَّعيه الدَّاعون، وَيَنْعِقُ به النَّاعقون يَلْتَبِسُ عَلَيهم؛ لعَدَم العِلْمِ والبصيرةِ، ولهَذَا ارْتَفع صوتُ هَذَا الرَّجل (أعني: مرزا غلام أحمد) بِدَعْوَاه الباطلةِ، فاتَّبَعَهُ من النَّاس مَنْ هُمْ أشباهُ الأَنْعَام، وَصَدَّقُوا بما قَالَه، وَمَا كَتَبه في هَذَا الباب ممَّا يخالِفُ نصَّ الكِتَابِ العزيزِ، وما تَوَاترتْ به السُّنَّةُ عن المُصْطَفىٰ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، من كونِهِ خاتمَ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلين.

كَيْفَ يَحْدُثُ مثل هَذَا؟ وكَيْف يَشْتَبِهُ علىٰ مَنْ هُمْ مِنْ بني آدم، الَّذين هُمْ مِنْ أَصْحَاب العُقُول، والَّذين يَقْرؤُونَ ويَكْتبونَ، وبُطْلَانه من أَوْضَح الأَشْيَاء وأَظْهَرها؟ ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُري عِبَادَه من العَجَائب وَالعِبَرِ ما فيه عِظَةٌ وذِكْرَىٰ لكلِّ ذي لُبٍّ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وهَكَذا البَهَائِيَّةُ، والبَابِيَّةُ، وأَشْبَاهُهم مِمَّنِ ادَّعوا دَعَاوىٰ باطلةً، وضَلُّوا في هَذَا السَّبيل، وَلَبَّسوا علىٰ أَشْبَاهِ الأَنْعَام مِنَ البَشَرِ ما يَدْعُون إليه من بَاطِلِهِمْ، فَزَعم كَبيرُهُمْ أَنَّه نبيٌّ، ثمَّ ادَّعىٰ أَنَّه ربُّ العَالَمين.

ومَعَ ظُهُور بَاطِلِهِمْ نجدُ لَهُمْ أتباعًا، ودُعَاةً، وأَنْديةً، تُرَوِّجُ بَاطلَهم، وتَدْعو إليه، ورُبَّما كَانَ الكثيرُ مِنهم يَعْرف الحقَّ، ويَعْلم أَنَّه مُبْطِلٌ في دَعْوَاه، ولكنَّه يَتظَاهر بِتَأْيِيدِ البَاطِلِ؛ لِمَا له من غَرَضٍ في ذَلِكَ في هَذِهِ الحَيَاة الدُّنيا، فَتَابَعَهم في طَرِيق الباطل.

وهُمْ أَشْبَه بالأَنْعَام، بَلْ هُمْ أَضَلُّ منها، كَمَا قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ

أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان:٤٤]، وقَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

لَقَدْ ضَلَّ هَؤُلَاء ضلالًا بعيدًا، كَمَا ضَلَّ أَصْحابُ فِرْعَون بِفِرْعَون، وأَصْحَابُ النَّمْرُودِ بالنَّمْرُودِ.

فهَذَا المِسْكينُ الَّذي يَتبوَّلُ وَيَتغوَّطُ، ويَأْكُل ويَشْرب، ويَتأَلَّم من كلِّ شيءٍ، كَيْف يكونُ ربًّا؟ وكَيْف يَكُونُ إلهًا؟ وكَيْف يَجُوزُ هَذَا عَلَيه وعلىٰ أتباعِهِ؟ ولكن الأَمْر كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحانَه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وَكَمَا قَالَ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان:٤٤].

وَكَمَا قَالَ عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ...﴾ الآية [القصص:٥٠].

وهَكَذا الدَّجَّالُ الَّذي يَأْتي في آخرِ الزَّمانِ، يَتْبعُهُ جَمٌّ كثيرٌ من كُلِّ جاهلٍ وأَعْمَىٰ بصيرة؛ لِمَا يُرَوِّجُهُ من البَاطِلِ، ويَأْتي به من خَوارِقِ العَادَات الَّتي تَشْتَبِهُ عَلَىٰ أشباهِ الأَنْعَام.

وَكُلُّ نِحْلَةٍ وَكُلُّ دعوةٍ باطلةٍ تَجِدُ لها أتباعًا وأنصارًا بِغَيْرِ قُلُوبٍ، ولا هدىً، أَمَّا طريقُ السَّلَفِ الصَّالح فهُوَ أوضحُ من الشَّمس في رابعةِ النَّهارِ؛ لِمَا قَامَ عَلَيه

من البَراهين السَّاطعةِ، والحُجَجِ النَّيِّرةِ، والأدلَّةِ القاطعةِ، لكلِّ مَنْ عندَه أدْنَىٰ بصيرةٍ ورغبةٍ في طَلَبِ الحَقِّ.

وقَدْ بَيَّنَ اللهُ في كتابِهِ الكريمِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الأمينِ أنَّ الخيرَ والفلاحَ يَكُونَانِ في التَّمَسُّكِ بكتابِ اللهِ العظيمِ، وَسُنَّةِ المُصْطفىٰ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وما كَانَ عَلَيه سَلَفُ الأُمَّةِ من الصَّحَابةِ رضوان الله عَلَيهم، وأَتْبَاعهم بإِحْسَانٍ.

فَيَرُدُّ دُعَاةُ الحقِّ عَلَىٰ هَؤُلَاء المُنْحرفينَ بِمَا عَلِمُوا من كِتَابِ الله، وسُنَّة رَسُولِهِ عَلَيه الصَّلاة والسَّلام، وبما عَلِمُوا بعُقُولهم الصَّحيحةِ، وبَصَائِرِهم النَّافِذَةِ، وَفِطَرِهم السَّليمةِ، علىٰ هدىً ما عَلِمُوه من كِتَابِ الله، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وما عَلِمُوه من مَخْلوقاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، من الدِّلَالَة علىٰ قدرتِهِ، وعظمتِهِ، واستحقاقِهِ للعبادة، وصِدْقِ رُسُلِهِ عَلَيهم الصَّلاةُ والسَّلام، وأنَّ ما أَتَوْا به هو الحقُّ، وهُوَ ما دلَّ عَلَيه كتابُ الله، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، من بَيَان الحَلَالِ والحَرَامِ، والهُدَىٰ والضَّلال، وما شَرَّعَ اللهُ لعِبَادِه، وما نَهَىٰ عنه، وما أَخْبَرَ به من الجَنَّةِ والنَّارِ، إلىٰ غير ذلك، وأنَّ ما أَنْكَره هؤلاء وغَيْرُهم من الشُّيُوعيِّين وسائرِ المَلَاحدةِ، من البَعْثِ والنُّشُورِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، وغيرِ ذَلِكَ من شُؤون اليَوْم الآخِرِ، كُلُّه باطلٌ، ومُخَالفٌ للأدلَّة القطعيَّةِ.

وَهُمْ جميعًا حُجَّتُهم داحضةٌ، وباطلُهم واضحٌ؛ فإنَّ الأدلَّةَ الدَّالَّةَ علىٰ بَعْثِ المَوْتىٰ، ووُقُوفهم أمامَ ربِّ العَالَمين، كثيرةٌ لا تُحْصَىٰ، وإنَّ كلَّ ما خَلَقَه اللهُ في هَذِهِ الدُّنيا شاهدٌ علىٰ قدرتِهِ سُبْحانَه، ووُجُوبِ الاعترافِ بأُلُوهيَّتِهِ وَحْدَه؛ فالأرضُ المَيْتَةُ يُنْزِلُ اللهُ عليها المطرَ، فَيُخْرِج منها النباتَ بعد موتها، ويُخْرِجُ منها -جلَّ وَعَلا- ما شَاءَ من الثِّمار.

فالَّذي أخرج هَذَا النبات، وأنعم علينا بهَذِهِ الثمار، هو الله ﷻ، الَّذي أنزل هَذَا المطر، وأحيا به الأرضَ الميتةَ الَّتي أخرجت النباتَ والثمارَ، هو الَّذي سَيُحْيِي الموتىٰ، ويبعثهم من قبورهم، وَيَقِفُ كلُّ واحد أمامه عَزَّوَجَلَّ للحساب علىٰ ما عمل، وما اكتسبت يداه في هَذِهِ الدُّنْيا.

وهكذا الإنسان، خَلَقَ اللهُ أبانا آدم من تراب، ثمَّ جاءت منه الذُّرِّيَّةُ، خلقهم سُبْحانَه من ماءٍ مَهِينٍ، ثمَّ تحوَّلوا إلىٰ عَلَقَةٍ، ثمَّ إلىٰ مُضْغَةٍ، ثمَّ إلىٰ إنسانٍ سُوِّيَ له سمعٌ وبصرٌ وعقلٌ وإدراكٌ وجوارحُ، ثمَّ يَتَدَرَّجُ ويَكْبُر، حتَّىٰ يصير إنسانًا عظيمًا، فيأخذ ويعطي ويفكر ويتعلم ويُنْتِجُ.

وإنَّ هَذِهِ الآيات العظيمةَ كلَّها تدل علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وَتَدُلُّ علىٰ صِدْقِ الرُّسُلِ، وإخبارهم بأن هناك - أي في الآخرة - مجتمعًا لَدَيْهِ سُبْحانَه، يُؤَيِّدُ فيه الحقَّ، وَيَجْزِي أهلَه بأحسن الجزاء، وَيُدْخِلُهم الجنةَ، وَيَقِيهم عذابَ النَّارِ، وَيُذِلُّ أعداءَه وَيُخَلِّدُهم في النَّارِ أبدَ الآبادِ.

ثمَّ إنَّ كُلَّ عاقلٍ في هَذِهِ الدَّار يشاهد مَنْ يظلم، وَمَنْ تُؤْخَذُ حقوقُه، وَمَنْ يُعْتَدَىٰ عليه في مالِه وَبَدَنِهِ وَغَيْرِ ذلك، ثمَّ يموت الظالمُ ولم يَرُدَّ الحقوقَ، ولم يُنْصِفِ المظلومَ، فهل يضيع ذلك الحقُّ علىٰ المظلومين المساكين المُسْتَضْعَفِين؟!، كلا، فإنَّ الخالق العظيم الحكيم العليم حَدَّدَ للإنصاف موعدًا، ذلك الموعد هو يومُ القيامةِ، يُنْصِفُ فيه المظلومَ الَّذي لم يُعْطَ حقَّه في الدُّنيا كاملًا من الظالم، فَيَنْتَقِم منه ويعاقبه بما يستحق.

إنَّ هَذِهِ الدارَ ليست دارَ جزاء، ولكنَّها دارُ امتحانٍ وابتلاءٍ، وَعَمَلٍ وَسُرُورٍ وأحزان، وقد يُنْصَفُ فيها المظلومُ، فيأخذ حقَّه فيها، وقد يُؤَجَّلُ أمره إلىٰ يوم

القيامة؛ لحِكْمَةٍ عظيمةٍ، فَيَنْتَقِم الله من هؤلاء الظالمين، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

ففي هَذَا اليوم الرَّهيبِ يُنْصِفُ اللهُ المظلومين، وَيُعْطِيهم جزاءَهم، وَيَنْتَقِمُ لهم من الظالمين، وقد يُعَجِّلُ اللهُ سُبْحانَه للظَّلَمَةِ العقوباتِ في الدُّنيا، كَمَا فعل في أممٍ كثيرةٍ، وقد يُؤَجِّلُ ذلك للمظلومين والظَّالمين، ثمَّ تُعْطَىٰ الحقوقُ في هَذَا اليوم العظيم، يومِ القيامةِ الَّذي تشخص فيه الأبصار، وَكُلُّ ذلك حَقٌّ.

فالحَكَمُ العليمُ القادرُ علىٰ كُلِّ شيءٍ لا يُفَوِّتُ علىٰ المَظْلومين حَقَّهم، ولهَذَا أخبرنا أن هناك بعثًا ونشورًا، وأن هناك جزاءً وحسابًا، وقد قامت علىٰ هَذَا الأدلةُ من القرآنِ وَالسُّنَّةِ، وإجماعِ الأُمَّةِ، والعقولِ الصَّحيحةِ، والفِطَرِ السَّليمةِ، ودَلَّت علىٰ أنَّه لا بُدَّ من جزاء وحساب، وأنَّ البعثَ حَقٌّ، وأنَّ الجنة حقٌّ، وأنَّ النَّارَ حقٌّ، كل ذلك جاءت به الكتب السَّماويَّةُ، والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ، وأجمع عليها المسلمون.

ومع ذلك فالفِطَرُ السَّليمةُ والعقولُ الصحيحةُ تَشْهَدُ بذلك، وإننا نشاهد ظالمين ومظلومين لم يُقْتَص من الظَّالمين للمظلومين، ولم تُؤْخَذْ منهم الحقوق، فلا بد لهم من يومٍ يُحَاسَبُون فيه، ويجازَىٰ فيه كُلُّ إنسانٍ علىٰ ما قَدَّمَ.

إنَّنا نَجِدُ مؤمنين صالحين مُوَفَّقين مجتهدين في سبيل الخير، لم ينالوا ما ناله غيرُهم من أولئك الَّذين تَعَدَّوا حدودَ الله، وظَلَمُوا عبادَ الله، وهم مع هَذَا لديهم الأموالُ العظيمةُ، والقصورُ الشَّاهقةُ، والخَدَمُ والمَتَاعُ.

وَجَمْعٌ غفيرٌ من الأخيارِ المتَّقين محرومون، لم ينالوا من هَذَا شيئًا، فلا بد من موعدٍ، ولا بد من لقاءٍ مع رَبِّهم، يُعْطَونَ فيه من المنازلِ العاليةِ، والأجرِ العظيمِ، وَيَتَكَرَّمُ عليهم سُبْحانَه بأنواعِ الفَضْلِ، جزاءَ صَبْرِهم وأعمالهم الصَّالحةِ، فينالون الثوابَ الكبيرَ، والمنازلَ العاليةَ، والخيرَ الجزيلَ، والإحسانَ العظيمَ، والقصورَ والجواري والخيراتِ الَّتي لا تُحْصَىٰ، علىٰ ما فعلوا من خَيْرٍ، وعلىٰ ما قَدَّمُوا من عملٍ صالحٍ.

ويجازي سُبْحانَه هؤلاء الظَّالمين المفرِّطين المُعْرِضِين، الَّذين رَكَنُوا إلىٰ الدُّنْيا، وَغَرَّتْهُم شهواتُها، وانساقوا وراءَ مَفَاتِنِها، بما يَسْتَحِقُّون مِنَ العَذَابِ والنَّكَالِ وَسُوءِ المَصِيرِ، وما ذلك إلَّا لتفريطِهم، وإعراضِهم عن اللهِ، وَتَعَدِّيهم حدودَه، ومقابلتِهم نِعَمَهُ بالكفران، وَظُلْمِهم عبادَه، وإدبارِهم عن طاعته، فهؤلاء يُجَازيهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ بما يَسْتَحِقُّون.

وهَذِهِ الأمورُ العظيمةُ إذا تَأَمَّلَها صاحبُ العقلِ الصَّحِيحِ، والفِطْرَةِ السَّليمةِ، عَرَفَ أنَّ المعادَ حَقٌّ، وَعَلِمَ أنَّ ما يَدَّعيه المُلْحِدون والشُّيوعيُّون والوثنيُّون وغيرُهم، ممَّن يُنْكِرون الآخرةَ ومعادَ الأبدان مِنْ أَبْطَلِ الباطل، واتَّضَحَ له أنَّ دعواهم ساقطةٌ، وأقوالَهم زائفةٌ.

وهكذا أصحابُ النِّحَلِ والدَّعوات المضلِّلة، والأفكار الهدَّامة، كُلُّها علىٰ هَذَا السَّبيلِ، إذا تأملها ذو العقل الصحيح، والبصيرةِ النَّافذةِ، والفِطْرَةِ السَّليمةِ، عَرَفَ بُطْلَانَها، وَعَرَفَ أدلةَ زَيْفِها، من الكتابِ والسُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ، ومِنَ الكتب الصَّحيحةِ، فإنَّه سُبْحَانه خَلَقَ الشَّواهد، وأقام الدَّلائل علىٰ الحَقِّ، من كتابه وسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وبما أَوْدَعَ في العقولِ من فَهْمٍ وإدراك، وبما خلق في هَذِهِ الدُّنيا من مخلوقات، وأوجد فيها من كائنات، تشهد له

بالحكمة، وأنَّه الخَلَّاقُ العليمُ، الرزَّاقُ الكريمُ، القادرُ علىٰ كلِّ شيءٍ، والمستحقُّ لأن يُعْبَدَ وحدَه لا شريكَ له.

والجديرُ بطالب العلم أينما كان، أن يُقْبِلَ علىٰ كتابِ اللهِ، وأن يَجْعَلَ تَدَبُّرَه وَتَعَقُّلَه من أكبر هَمِّهِ، ومن أعظم شواغِلِه، وأن تكون له العنايةُ الكاملةُ بقراءته، وَتَدَبُّرِ ما فيه من المعاني العظيمةِ، والبراهين السَّاطعةِ، علىٰ صحةِ ما جاءت به الرُّسُلُ، وعلىٰ صدق ما دَلَّ عليه الكتابُ، وعلىٰ بطلان ما يَقُول به أهلُ السُّوءِ، أينما كانوا، وكيفما كانوا.

وَمَنْ تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا للهدىٰ أعزَّه اللهُ، وبَصَّرَه وبَلَّغَه مُناه، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وهكذا السُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ، إذا تأمَّلَها المؤمنُ، وتأمَّل مَوْقِفَهُ ﷺ مع أعدائه وخُصُومِهِ في مَكَّةَ والمدينة، عَرَفَ الحقَّ، وأنَّ أهلَ الحقِّ منصورون ومُمْتَحَنُون، وَمَنْ فاتَه النَّصْرُ في الدُّنْيا فلن يفوته الجزاءُ والعِوَضُ في الآخرةِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر:٥١، ٥٢].

فقد وَعَدَ اللهُ سُبْحانَه بالنَّصْرِ للعاملين في الدُّنيا والثواب في الآخرة، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١]، فقد وَعَدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في

هاتين الآيتين الَّذين يعملون للحقِّ، ويقيمون الصلاة، ويؤدُّون الزَّكَاةَ لمُسْتَحِقِّيها، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر- وَعَدَهم جَلَّ وعلا بالنَّصْرِ، وهو يعلم، النَّصْرَ في الدنيا والتَّمكين فيها، والنَّصْرَ والرِّضىٰ مِنَ اللهِ سُبْحانَه يومَ القيامة، يوم يَقُومُ الأَشْهَادُ.

وفي هَذَا عِزَّةٌ للمؤمنين، وذِلَّةٌ للكافرين، فالمؤمنون يفوزون بالجنة، والكافرون تَعْلُو وجوهَهم الذِّلَّةُ والنَّدَامَةُ، والنَّارُ تكون مَثْوَاهم وَمَصِيرَهم.

وفي هَذَا المعنىٰ يَقُول ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ﴾ [النور:٥٥]. والآياتُ في هَذَا المعنىٰ كثيرةٌ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أحوالَ أهلِ العلمِ المُوَفَّقِين، الَّذين نبَغُوا في هَذِهِ الأُمَّةِ، وَتَدَبَّرُوا كتاب ربِّهم، وسُنَّةَ نَبِيِّهم ﷺ، وَعَلِمُوا في ذلك ما يُعِينُهم علىٰ فَهْمِ كتابِ اللهِ، وعلىٰ فَهْمِ سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، فهمًا صحيحًا من الصَّحَابةِ رضي الله عنهم وأرضاهم، والتَّابعين لهم بإحسانٍ من أئمةِ الإسلامِ، فيما كتبوا وما نُقِلَ عنهم، وَمَنْ سار علىٰ نَهْجِهِم مِنْ أهلِ الصِّدْقِ والوفاء والبصيرة، كأبي العبَّاس ابن تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللهُ، وتلميذَيْهِ: العلَّامةِ ابنِ القَيِّمِ، والحافظِ ابنِ كثير، وغَيْرِهم مِمَّن برزوا في هَذَا الميدان من أئمة هَذَا الشأن، نعم؛ مَنْ تأمَّل أحوالهم، وفتح الله عليه بِفَهْمِ ما قَالُوا، وما كتبوا- رأىٰ العَجَبَ العُجَابَ، والعِبَرَ الباهرةَ، والعلومَ الصَّحيحةَ، والقلوبَ النَّيِّرَةَ، والبراهين السَّاطعةَ، الَّتي تُرْشِدُ مَنْ تَمَسَّكَ بها إلىٰ طريقِ السَّعادةِ وَسَبِيلِ الاستقامةِ.

وبذلك يَحْصُلُ له بتوفيقِ الله سُبْحانَه تحقيقُ الغاية المطلوبة، وتحصينُ نفسه بالعلومِ والمعرفةِ والطُّمَأْنِينة إلىٰ الحقِّ، الَّذي بعث الله به رُسُلَه، وأنزل به كُتُبَه، وَدَرَجَ عليه سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

وَيَتَّضِحُ له أنَّ مَنْ خَالَفَهم مِنْ دُعَاةِ الزَّيْغِ والضَّلالِ ليس عندهم إلَّا الشُّبُهات الباطلة، والحُجَج الزَّائفة، الَّتي لا تُسْمِنُ ولا تُغْنِي من جُوعٍ.

وَيَعْلَمُ حقًّا أنَّ طالبَ العلم في الحقيقة هو الَّذي يُمَيِّزُ الحقَّ من الباطل، بأدلَّته الظَّاهرة، وبَرَاهينِه السَّاطعةِ، ويقرأ كتب الأئمة المهتدين، ويأخذ منها ما وافق الحقَّ، ويترك ما ظهر بُطْلَانُهُ، وَعَدِمَ موافقتَه للحقِّ.

ومن هؤلاء الأئمةِ المبرَّزين: الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنصاره في القرن الثاني عشر وما بعده، قد برزوا في هَذَا الميدان، وَكَتَبُوا الكتاباتِ العظيمةَ الناجحةَ، وأرسلُوا الرَّسَائلَ إلىٰ النَّاسِ، وَرَدُّوا علىٰ الخُصوم، وأوضحوا الحقَّ في رسائِلِهم ومؤلَّفاتهم، بأدلةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ.

وقد جَمَعَ من ذلك العلَّامةُ الشَّيخُ عبدُ الرحمن بن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً كثيرةً في كتابه المُسَمَّىٰ (الدُّرَر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجْدِيَّة).

والأدلَّةُ الَّتي كَتَبَها الشَّيْخُ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتلاميذه مَنْ تأمَّلها وَتَبَصَّرَ فيها رأىٰ فيها الحقَّ المبين، والحُجَجَ الباهرةَ، والبراهين السَّاطعةَ الَّتي تُوَضِّحُ بطلانَ أقوالِ الخُصُومِ، وَشُبُهاتهم، وَتُبَيِّنُ الحَقَّ بأدلَّتِهِ الواضحةِ.

وَهُمْ رحمةُ الله عليهم - مع تَأَخُّرِ زَمَانِهم - قد وُفِّقُوا في إظهارِ الحَقِّ وَبَيَانِ أَدِلَّتِهِ، وأوضحوا ما يتعلَّق بدعوةِ التَّوْحِيد، والرَّدِّ علىٰ دعاةِ الوَثَنِيَّةِ، وعُبَّادِ القُبُور، وَبَرَزُوا في هَذَا السَّبِيل، وكانوا علىٰ النَّهْجِ المستقيم، نَهْجِ السَّلَفِ

الصَّالحِ، واستعانوا في هَذَا الباب بالأدلَّةِ الواضحةِ الَّتي جاءت في الكتاب والسُّنَّةِ النَّبوِيَّةِ، وعنُوا بكتب الحديث، وكتب التَّفْسِير.

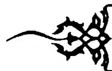
وَبَرَزُوا في هَذَا الميدان، حتَّىٰ أظهر اللهُ بهم الحقَّ، وَأَذَلَّ بهم الباطل، وأقام بهم الحُجَّةَ علىٰ غَيْرِهم، وَنَشَرَ بهم رايةَ الإسلامِ، وقامت رايةُ الجهاد، وَأَجْرَىٰ اللهُ علىٰ أيديهم من نِعَمِهِ وَخَيْرِهِ الجَزِيلَ ما لا يُحْصَىٰ، وأصبح أهلُ الحَقِّ في سائرِ الأمصارِ الَّذين عرفوا كتبهم، وصحة دعوتهم، وسلامة منهجهم، ينشرون دعوتَهم، وَيَسْتَعِينون بما أَلَّفُوا في هَذَا الشَّأْنِ علىٰ خصومِ الإسلامِ وأعداءِ الإسلامِ في كُلِّ مكانٍ، من أهل الشِّرْكِ والبِدَعِ والخُرافاتِ.

وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُوَفِّقَنا جميعًا لما يُرْضِيه، وأن يُصْلِحَ قلوبَنا وأعمالَنا، وأن يَجْعَلَنَا هداةً مُهتدين، وصالحين مُصْلِحين، وأن يَمْنَحَنَا الفِقْهَ في دِينِه، كَمَا أسأله عَزَّوَجَلَّ أن يَنْصُرَ دِينَه، وَيُعْلِي كلمتَه، وَيُصْلِحَ أحوالَ المُسْلِمِين في كلِّ مكان، وأن يُوَلِّي عليهم خيارهم، وأن يُصْلِحَ قادةَ المسلمين، ويجعلَهم هداةً مهتدين، وأن يوفِّقهم لتحكيم الشَّريعة والتَّحاكم إليها، وأن يوفِّق ولاةَ أَمْرِنَا لكلِّ خيرٍ، وَيَنْصُرَ بهم الحَقَّ، إنَّه -جَلَّ وَعَلا- جوادٌ كريمٌ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ على نَبِيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصَحْبِهِ



فهرس الموضوعات





يضم هذا الكتاب بين دفتيه الرسائل التالية:

1- أنواع التوحيد الذي بعث الله به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

2- توحيد المرسلين وما يضاده من الكفر والشرك.

3- وجوب الاعتصام بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والتحذير مما يخالفهما.

4- واجب المسلمين تجاه دينهم ودنياهم.

5- وجوب تحكيم شرع الله، ونبذ ما خالفه.

6- نصيحة واجبة لتحكيم شرع الله المطهر.

7- حكم الاحتكام إلى القوانين الوضعية.

8- وجوب العمل بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكفر من أنكرها.

9- أسباب ضعف المسلمين أمام عدوهم، ووسائل العلاج لذلك.

10- أسباب نصر الله للمؤمنين على أعدائهم.

11- عوامل إصلاح المجتمع.

12- موقف المؤمن من الفتن.

13- حوار حول مسائل إيمانية ملِحة.

14- حوار حول مسائل التكفير.

15- الغزو الفكري ووسائله .

16- كيف نحارب الغزو الثقافي الغربي والشرقي؟

17- أهمية العلم في محاربة الأفكار الهدامة.





جمهورية مصر العربية – القاهرة
شارع الهدي المحمدي – أحمد عرابي – مساكن عين شمس
E-mail:Manart-aslam@hotmail.com
E-mail:Manart.aslam@yahoo.com
جوال: ٠١٢٠٥٥٤٠٤٢٢ - ٠١١٤١١٤٦٣٦٦